فريدة المغرب

روّاها

المعلم جرجس زوين الفتوحي الماروني
تلميذ مدرسة غزير العامرة

نقلاً عن رواة المغرب

IHS

بمطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
في بيروت سنة ١٨٧٤

فريدة المغرب

في اصل فريدة وحسبها

بزغت شمس المشرق . فاحيت ارض المغرب . ففاح اريج الرياحين . وشذا عرف الورد والنسرين . ارتفعت شمس العدل . ففاضت بحور الفضل . فالتقطنا الدراري والمرجان . من فضل السخي المنان

روى اهل الصدق الذين بنوا روايتهم على الحق ان فريدة المغرب قد نشاءت في اقطار جاورت خليجًا اشتهر في كل عصر وزمان . بما فيهِ من المرجان . ولما كانت السنة الثانية عشرة من بعد الثمانماية والالف من فدا الانسان رايت في خليج جينوا المشار اليهِ بالبنان سفينة تشق المياه وقد اجتنبت الشواطي المحجرة . في تلك الليلة المقمرة . فابتعدت عن الصخور . خشية من وقوع المقدور . فسارت مرةً ذات اليمين وحينًا ذات الشمال . تطلب الماء العديمة القرار . فرارًا من الاخطار . وقد

خفق من سايقتها الفواد . خفوق يوم المعاد . هنا ولا رقيب قد رقب . ولا لص قد وثب . غير انهُ قد خال لديها بان صيادين غير امينين . وأقواماً خائنين . قد يهجمون عليها في ذالك الحين . اما هي فلشدة ثقتها بسيدة العالمين . اصبحت من الآمنين

كثيراً قد كثرت هنالك الاخطار . ونفذت الاقدار . فحارت ممن خاض تلك المياه الافكار . فكم من قلوع قد تمزقت . وسفن تشققت . فاموالاً اتلفت . وركباً غرقت . ولا منقذ من التهالك . لمن تاه هنالك . فلما لم يكن ملجا . ذكروا ام الرجا . ونصبوا تمثال نجمة البحر . فوق ذلك الصخر . فالتفتوا اليها في حين الاكدار . فاوقتهم شر الاخطار . فاياها قصدت فريدة في اناء ذلك الليل . ولم تخشَ الويل . فلما بلغت ذلك النادي الاقدس رفعت نحوها الالحاظ . والقلب منها قد استيقظ . فضربت المجذاف . واذا بالسفينة عند اقدام ذلك الصخر الكريم فلا قلب يخاف . فقالت لها قفي . فمن زار المكان قد شفي . والليل قد

ناهز الانتهاء . والبدر على زوال في كبد السماء . وفريدة
تضرب المياه بالمجذاف . والقلب منها في خوف وارتجاف .
فحبذا بدرًا قد سار في ضياء البدر . فتلألأ بهاء النحر . فخلت منه
قد طلع الفجر . وسرى نسيم الصبا . واليهِ القلب قد صبا .
فقل : عقد الريح على الماء زرد . فحبذا درعًا منيعًا لو جمد .
ضربت المياه وقالت سيري ولا تخشي الاخطار . فقد
رمقتكِ اعين تقيكِ الاضرار . فسارت السفينة في مياه
ذلك الجون وقد حركتها تلك الايدي اللطيفة الحركات .
حركة تقيها الافات . فحبذا فتيةً قد سترها وشاح ازرق .
حاكى لون ذلك الازرق . اما نحرها والجيد فبالابيض اتشحا
لكن لا مبالغة بالبياض . بل ليستمد البياض منهما بياض .
فخلت والسفينة تجري والمياه قد ضربها المجذاف . والامواج
على تلك الصخور تتكسر جيدًا ونحرًا وما غطاها من الستور .
زبدًا نشاء عن فوران ذلك التنور . سارت فارتفعت
امامها صخرة عالية مصقولة الجهات حولها صخور كأنها لها
جنود واتباع . لازموا الوقوف في ذلك القاع . سارت وقد

حمامة الزهور . وحييت بالسلام . ملكة السلام . وباحت بما استكن في الصدور . وصرخت نحو نجمة البحور . فقالت: يا مغيثة البائسين . ورجاء المأبوسين . استحلفتكِ بحب احببتِ بهِ من حملتيهِ في الحشا . ان ترثي لقلب ذاب حبًا بحبه المضنوك . فانكِ عليمة بما يقاسيه فوادي من العذاب خوفًا على موضوع حبي المصاب . فيابتولًا تسامت قدرة . وتعالت رأفة . ارمقيه باعين رحمتكِ . واكتنفيه بحمايتكِ . خلّصيه من البلايا . واوقيه من الرزايا . ابعدي عنه قاتليه . وشتتي شمل مبغضيه . واخفيه عن اعين طالبيه . اكفلي لي حياته . واضمني راحته في خلوته . فلا يطغَ البحر فيغرقه . ولا تهب الريح فتهلكه . فلا يؤذهِ برد الليل . ولا يضره حر النهار . ولا تمنع العاصفة ان يتوصل اليه من قصد اغاثته . ونقل اليه ما يقتات بهِ في حال شدته . آلا عودة لماضيه . وتحقيق لامال قلب تاق اليه . اهل يُعطى لي ان اناديه يومًا يا قرينًا صالحًا قد احبك قلبي فنلت المنا . وحزت المبتغى . يا ام الجود والمراحم انعمي بهذه المنة فانني

واياه لكِ من الشاكرين . وعن احسانكِ حامدين

لكن ترى مالي وهذه الامال . هيهات تصطلح بين اهلنا الاحوال . فيسود الاتفاق ويستولي السلام فيصدقون على تكميل رغبتنا . وتتميم بغيتنا . هل يتبدد من بينهم الاغبرار . وينطفي من البغضة توقد النار . فيقبّلون بعضهم قبلة السلام . فتصح الاحلام . اهل يؤذن لي ابي فادعو حبي قريناً لي . اهل يرتضي بان تُدعى ابنته قرينة من لا يطيق مشاهدته . يا صانعة المعجزات . بسلطان سيد الكائنات . رثي لدموعي فاني لا ايس وقد توكلت عليكِ . فما خاب من التجى اليكِ . فلا يمضينَّ ليل الاّ قصدت مقامكِ هذا الاكرم . فمرغت الجبين . وانّيت الانين . واصعدت الزفرات . وتنهدت الحسرات . واسكبت العبرات . الى ان ترحمي ذلي . وتستجيبي سؤلي . وترثي لحال موضوع حبي . الذي قد ارتجع الان عن جهله فانقد حبّاً بكِ ووعدكِ انه اذا ما من الشر خلصتيهِ . والضر اوقيتيهِ . وبي عليه انعمتِ . وبهِ عليَّ تكرمتِ .

قصدنا هيكلكِ الاقدس فاتممنا فيه الفروض الدينية وتناولنا الاسرار الالهية . وعلقنا على تمثالكِ الطاهر قلبين ذهبيين حملا منا الاسماء . ودلا على عظم محبتنا لملكة السماء

اما فريدة فكانت سليلة عائلة شريفة . ذات حسب ونسب وقد امتازت بالاعمال الجليلة . والافعال النبيلة . فحازت التقدم لدى الملوك وتقربت من الدولة . وكانت من اخص رجالها ولما حل بجينوا ما حل بغيرها من تقلبات الزمان . وتغير الحدثان . فسطى الطاغون . وتمرد الاشقيا والدون . وقلب تخت حكومتها . وتبدد شمل رجالها . وكان فاضل والد فريدتنا هذه من رجال الدولة فصار ما صار . ونفذت الاقدار . وتسلم ذمام الاحكام . من لم يكن لفاضل فيه مرام . فهجر البلدة وقصد املاكًا له على شاطي ذلك الخليج وسكن قصرًا له من بدايع الزمان . لاحكام صناعته والاتقان . وقد احدقت به الحدائق والبساتين . وفاح عطر الورد والرياحين .

ورغب فاضل بتلك الزهور والاشجار . زينة الدار والجوار
وكان البستان قد امتد حتى شاطي البحر. فيتوصل منه
الى جون هنالك جميل الموقع قد احاقت بهِ الصخور
العالية فاوقته من الارياح . والقلب اليه قد ارتاح . اما
فاضل فلم يقترن بزواج الاَّ وقد تقدم في الايام فحظي بمن
كانت قدوة للنساء كمالاً . وزينة المكان بهاءً وجمالاً .
غير ان هادم اللذات . ومفرق الجماعات . قد جاءَها
فخطفها في ولادتها فريدة ذات الجمال . وربة الكمال .
فتنحى والدها عن الدنيا وهام بحب ابنته . فكانت مسرته
في وحدته . وهي احسن البنات فطرة وقد امتازت
لطفًا وادابًا فضلاً عما زينتها بهِ الطبيعة من الجمال .
فسلمها ابوها لامراة فاضلة شهيرة علمًا واعمال . فربتها
احسن تربية . وهذبتها احسن تهذيب . فعلمتها علومًا
امتازت بها نساء العصر . ولم تسلمها الاَّ تاليف جليلة
وتصانيف تهذب العقل والقلب . ومرنتها على الفضيلة
المسيحية . والاداب الدينية . هذا ومن اجمل ما جملها بهِ

المولى حسن الصوت وعذوبة النطق فعلمها والدها علم الموسيقى وسلمها لاحسن معلمين فانقنت هذا الفن كل الانقان . فعاد اذا ما دقت العود ولمست القيثار سبت الفواد وحيرت الجنان . وكان والدها في خلوته . وفي حال ياسه وشدته . يستدعيها اليه فتبدد عن فواده الغموم وتزيح عن مخيلته غيوم الهموم . بعذوبة صوتها والالحان . ودق الالات فخلته اصبح في سماك السما طربًا وافراح وحبورًا وانشراح . فلا سعيد في تلك الاطراف سواه . ولا حاز انسان نعماه . من صفو العيش وراحة البال . وحسن الاحوال . فطاب منه العيش بفريدة مهجة فواده وراقبت منهما الاحوال . وعادا جميعًا كانهما في جنة الفردوس . غير ان فاضلاً الموما اليه قد كدر معيشته افتكاره كيف يبارح ابنته اذا ما اقترنت بزواج لاسيما اذا زوجها لمن لم يكن كفوءًا لها . ومن ثم لم يكن بينهما امتزاج . وهي من احسن البنات الطافًا . واجملهم ادابًا . قد اقترنت الاوصاف الطبيعية . بالعلوم العقلية والادبية .

فتفقه منها العقل . وتصيغ القلب . فهذه افكار كانت تولي فاضلاً الاحزان وتوعبه اكدار

اما فاضل فلشدة ما كان قد احاق بالمملكة من الخراب واعتراه من الوصاب في حال الثورة والعصيان وتغير الحدثان قد تغيرت منه الاخلاق فعاد سريع الانفعال لاسيما اذا ما تذكر ما كان قد جرى بهِ وبامثاله من بغي البغاة وكيف ان الاوطان قد قاست شر الوبال بقلب العرش وتعدي اهل العدوان فلم يبرح من اذهانه ما قاساه الاهلون من الجوع الشديد والضيق الذي ما عليه من مزيد فسلبت اموالهم ونهبت منازلهم فهذه كلاً او بعضاً متى تهيأت لديه تغيرت منهُ الاحوال واستولت عليهِ الاحزان وان كان في ذرى الراحة والانشراح فلذا ساءت معاشرته ولا من يروم الاقتراب منه في كربه والاكدار سوى فريدة زينة الابكار فاذا ما شاهدها انجلت عنه الاحزان فعللتهُ بحديثها والكلام ودقت العود ولمست القيثار فولى الظلام وطلعت شمس النهار بعد ان كان قد صار صافي عيشه

في اعتكار وكثيرًا ما قد طلب مهاجرة الناس ومبارحة الجلاس وحبس نفسه داخل مخدعه لئلا يرى انسانًا امامه وهو على تلك الحال من احزان واكدار

ومما قد تمكن في فواد فاضل كل التمكين تمسكه بعوايد اجداده الاقدمين وحبه لمقام عائلته الاميرية وتعلقه بشرفه والنسب حتى ان كل من حاز مقامًا او ارتفع شانًا وامتاز بحسن الصفات وحقيق الفضل ونال انعام الملوك والسلاطين فعلا مقامًا على جميع الاقدمين كان لديه من المحتقرين لانه سليل عائلة لم تضاهِ عائلته بالاقدمية

قلنا ان جينوا واقعة على خليج تسمى باسمها فمن ثم كانت ذات مينا عبارة عن مدينة عظيمة غير ان هذه المينا قد خربت بناياتها في سابق الزمان فلذا دعيت المينا القديمة ثم تجددت فدعيت المينا الجديدة فكل شريف حاز مراتب الشرف من بعد تجديد المينا الجديدة كان لدى اعين فاضل من عموم الناس ولم يعتبر من الشرفاء الا اقواما انضموا في سلك الاعيان في زمان المينا القديمة وهب ان امراء واعيانًا

ووزراء وزعما السلطان ارتفعوا الى ذرى ارفع مقام وكانوا من المينا الجديدة احتسبهم فاضل من بعض الاتباع وانهم لايستحقون المثول لديه والتشرف بناديه . وناهيك عن ان هذا الرجل قد عاش في اوائل هذا العصر الذي فيهِ لافضل الا لصاحب الفضل ولا التفات الى شرف الاجداد ما لم يقرنه الفتى بحميد الصفات فيصبح من اهل الكرامة ان اعتباراً للاصل والحسب وان لاجل فضله وحميد الخصال ومع هذا راينا فاضل المذكور ما زال متوغلاً باوهام الشرف وقد علَّقه على قدمية الزمان بمعزل عن صفات الانسان ولقد كنا في عجب واندهال لو لم نرَ له امثال قد حافظوا على هذه الخصال

فكان بالقرب من قصر فاضل ولاملاك اراضي وبساتين ملك احد المقدمين وهو رجل قد كثر غناه ويسرت احوال دنياه فقصده القريب والبعيد واحتف بهِ الاتباع والعبيد وكان هذا الرجل يُدعى جليل وهو من اخلاء الفرنسيس وقد عقد معهم رباط وداد شديد الوثاق وكانوا كلما

مروا في تلك الاطراف قاصدين زيارة ملكهم ذلك الهمام والليث الضرغام اعني بهِ نابليون الاول دعاهم جليل الى داره وتلقاهم بالترحاب وصنع لهم المآدب الفاخرة فقابلوه بالاكرام ورفعوا شانه والمقام اما فاضل فكان كلما سمع بما يبديه جليل نحو المذكورين هاج وجاش واخذ يطعن ويقدح وينسب جليلاً الى بغض الاوطان لكونه خليل الفرنسيس الذين اخذوا بعض جزر جينوا وضموها الى مملكتهم فعادت ملكهم وخاصتهم بل وقد احتسب فاضل جليلاً محروماً لان ملك الفرنسيس كان وقتئذٍ قد قبض على حبر الاحبار وسجنه في مدينة لا تبعد من هنالك واسم المدينة صافونا

فلما كان جليل لاينثني عن تصرفاته من الدعوات والولائم واتباع الآثار والمفاخر وهو اذ ذاك قدير على حفظ المقام لكثرة غناه لاسيما لحسن موقع قصره وجميل بناه وما ازدان بهِ من التحف النفيسة والاقمشة الثمينة والمفروشات الفاخرة وناهيك عن النقوش والتماثيل وما رغبت الناس

فيهِ من النخب الجليلة في كل عصر وجيل كان فاضل لاينثني عن الطعن بحق جليل وينهكم عليهِ ويقول لاحرج على جليل ان طلب الاقتراب من الشرفاء لانه يفتقر الى الشرف ومن احتاج الى شي طلبه . ولا باس اذا ما اقترب من الحديثين على ان كل حديث نعمة بجالس امثاله وفاقًا لما قيل : ان ألطيور على اشكالها تقع : دع جميلاً يزدهي بشرفه فانه راى بعض بنات العائلات الشريفة قد اوقعها الدهر باحد انسبائهِ فظن بذاته انه من سلالة المقدمين والامراء الاقدمين . لاتنخدع يا جليل ولاتغتر ان الشرف لايبتاع بمال وليس هو عدوى تسري بالتماسس . فافعل ما شئت فما انت الأحديث نعمة . نِعمّ زمان شرَّف فيهِ ملك ذلك العصر القديم تلك المينا القديمة فقال وهو جالس في دار اجدادنا : انكم جميعًا امراء . فترى ماذا كان وقتئذٍ جليل وآباء جليل واجداد جليل فانهم كانوا بحرية وحمالين يحركون خشبة العوبة الامواج فيصطادون الاسماك وينقلون من السفن المال والاحطاب فهذا اصله والحسب ابن حمالة

الحطب . فدعه الان يبتاع الالقاب ويشتري المناصب ويسمونه قائدًا وفوق القائد واميرًا وفوق الامير فان هو الاَّ من الحديثين . فلم يسرِ في عروقه دم الامراء الاقدمين واعيان تلك الاجيال والمقدمين

اما فريدة فكلما كانت تسمع والدها يفوه بهذا الكلام ويتلفظ بهذه الاقوال كانت تقشعر منها الاجسام ولا تطيق احتمال مثل هذه الاحلام المبنية على محض الاوهام . ولما كانت لديه ذات نفوذ واقتدار اعتمدت على ذلك . لتريه بان كلامه بغير محله قد وقع وانه بهذه الاراء المرذولة يجلب على نفسه الملام ويستوجب الازدراء والاحتقار : فلما كان احد الايام وقد اخذ فاضل يهذ بهذه الاقوال ويكرر ما لم يكن يبرح لهُ من بال بل قد فاه بهِ في كل آن من طعن وقدح وذم واجتناب المدح لكل شرفاء ذلك الزمان الذين لم يحاكوا عائلته قدمية ولم يضاهوها مجدًا قالت لهُ . ابتِ ما هذه الحال وما تلك الاقوال فاني اراك تطعن وتقدح بحق اقوام علوا مجدًا وسموا فخرًا بغناهم والافعال

واستحقوا الثناء لدى الدون والعال . افما ان عائلة جليل جارنا ونعم الجار قد ظهر منها اناس افاضل خدموا الحكومة والاوطان واظهروا من الشجاعة اعظمها والبسالة افخرها واكرمها فمنهم الوزراء العقلاء والادباء والفقها ومنهم قضاة البلاد ونوابها والقواد ومنهم السفراء لدى الدول الفخيمة ومنهم زعماء الملوك والسلاطين افما كل هذه توليهم مقامًا اراك تنسبه للاولين بمعزل عن المتاخرين ومع ذلك قد مضت الاعوام وتوالت الايام وما زالوا منذ اكثر من ثلثة اجيال يتوارثون الحسب ويمتازون بالنسب فضلاً عن فضلهم المتمايز وافضالهم الكثيرة واحساناتهم الوفيرة وفضائلهم الغراء التي امتازوا بها بين الاعيان والامراء

فما فاهت فريدة بهذا الكلام ونطقت بهذه الاقوال الا وقد غضب ابوها كل الغضب فزار وزمجر واغتاظ وتكدر وصاح وقال: ما الذي تفوهين بهِ يا من لا تدركين ما تقولين ولا تدرين ما بهِ تنطقين. اتفضّلين على الاقدمين الحديثين وان هولاء الا اتباع للاولين

قالت كيف تدعي كونهم حديثين وقد انتسبوا الى اجداد امتازوا شرفًا وفخرًا منذ ثلثة اجيال واكثر اهل هم ابناء امسك الدابر. ام عامك الغابر

قال : انكِ من جهلاء هذا الزمان الذين يفضلون الشعب على الاعيان . لعمري ان كل ما احاط بنا من العناصر كأن قد عجن بعصير الشعوبية . قاتل الله هذا الزمان ما اقبحه زمانًا فيه سكتت بلابلة الزمان . فاصبح الوطواط ناطق * وتسابقت عرج الحمير . فقلت من عدم السوابق * افما تعلمين ان اصل شجرة عائلتنا لا يعلم لها ابتداء واننا نسل المقدمين الذين حازوا نعمة اكبر السلاطين . افما تعلمين ان رجالاً تحمسوا غيرة وانقدوا حمية وقطعوا هذا الازرق وذهبوا جيوشًا جرارة الى حيثما ولد فادينا نحن النصارى صيانةً لاراضي وطئتها اقدامه الطاهرة قد نزلوا من مينا هذه البلاد اعني بها المينا القديمة . وعائلتنا اذ ذاك كانت قد اينعت من شجرتها الاثمار . وشذا منها عرف الازهار . وتلألأت بهاء فخلتها شمس النهار . فاين كانوا وقتئذٍ اقوام تعرضت

المدافعة عنهم وغرت على شرفهم . فلاعدت تفوهين بمثل هذا الكلام فانك تطعنين بحق اصلك والنسب وتخالفين حقوق الاشراف لاسيما ان دعوى عنها تدافعين . اتخجلت من تعرّض للمحاماة عنها . لعمري لو قام شيشرون الرومانيين وديموستين اليونانيين . وقس العرب وسحبانهم وراموا يدافعون عن شرف مثل هولاء الحديثين . لاضاعوا شهرتهم بين الانام . وخسروا مجدًا حازوه بصناعة الكلام . فمن من هولاء الفصحاء والعلماء البلغاء يستطيع ان يجعل احد ابناء الميناء الجديدة من ابناء القديمة . او يرفع العار عن راس جليلك المحروم . وقد استوجب كل الرذل . فاخطئ من احصاه ما بين اولي الفضل . واهل الحكمة والعقل

فايست فريدة من اصلاح ابيها ومن اصراره والعناد . وقد رامت حسن الاتفاق بينه وبين عائلة جليل لاميال استولت على قلبها والفواد . على انها كانت قد هامت بابنة جليل . المسماة جايلة . وهي من خير الناس فضلاً وفضيلة

ذات اداب حميدة . وخصال فريدة . وقد امتازت دينًا وتقىً . فاحبت القريب . وبذلت الغيرة نحو الغريب . وهامت بحب الفقراء . وسعت باصلاح الاشقياء . وصرفت مالها والاوقات بعمل الخير نحو المساكين . وتقديم لوازم المعوزين . وكانت قد مرَّنتها والدتها على هذه الاعمال الجليلة . والخصال الجميلة . اذ كانت هذه الام الفاضلة من اهل التقى الخائفين الله . السالكين في طريق الاله . السائرين في محجة وصاياه . وقد كفروا بدنياهم . طمعًا بنعم سماه . وكانت جليلة ذات اخلاق رضية . والطاف شهية . تسبي الفواد بمحاسن صفاتها وتجذب القلب بلطف حركاتها . وتكتسب الناس بعذوبة اقوالها . وتجبرهم على محبتها لشهرة اعمالها الخيرية . وافضالها السنية . فوقعت محبتها في فواد فريدة احب موقع . واستأسرتها بصفاتها والخصال . فعادت لديها من خير خيار الآل . فرامت فريدتنا . التقرب من جايلتنا . وان تنتهز الفرصة لاعلان محبتها

غير ان ما حمل فريدة على مودة جليلة اسباب

غير هذه اذ انها قد رأت قلبها قد ذهب عنها ورحلت راحتها والفواد انسلب وتخشى ان تبيح لنفسها بما استكن في فوادها فنسبت ميلها الى جليلة . واسندت هذا الميل على اسباب صوابية في ذاتها مقنعة لمن تصدر للاعتراض . غير ان الاسباب الحقيقية قد بنيت على رغبة خفية

في جميل ومزاياه

انه كان لجليلة اخ جميل المنظر . حميد المخبر . سليم القلب والنية . حسن المزية والطوية . عالي الهمة شريف النفس وديع لطيف سهل المعاشرة لين العريكة . حسن الفطرة قابل للازديان بكل فضل وفضيلة . خلوص صافي الوداد . وبالاجمال ما من صفة تقرب الانسان من الناس الّا وقد غرست في فواده اصولها ونمت فيهِ فروعها فكان اذا ما ذهب الشتاء ببرده . وجاء الربيع بزهره ووروده . بارح جليل المدينة وجاء بعائلتهِ الى تلك الشواطي الجميلة ولم يبارحها الّا والصيف قد ولى وكان قصره لا

يبعد عن قصر فاضل وقد قام في احسن موقع على انه ارتفع
في اعلى منحدر ذلك الوادي فساد على تلك المروج
الخضراء والمياه قد اندفقت من كل جهاتهِ ودارت بها
رحى الطواحين وتوزعت على تلك الحدائق والبساتين وقد
امتد امام ذلك القصر الشاهق . اراضي تسبح الخالق .
باشجارها والازهار . وغدرانها وتغريد الاطيار .
وقامت على شاطي البحر مروج طرزها الاقحوان واحدق
بها الآس والريحان . وقد يليها لجهة القصر غاب ملتف
الاشجار . حجبت حرارته شمس النهار . ففيها من النارنج
والجلنار . وفيها السرو والغار . وبين القصر والغاب
حدائق وبساتين قالت للغم توارَ عنا واذهب . وناهيك عن
كروم في تلك الربى والهضاب . جاءت بما جعل الانسا
على احسن حال مستطاب . هذا وقد قامت فوق القصر
في ذلك الربى العالي احراش جمعت الارز وانواع
الاشجار فنعم الموقع . وحبذا المرتع . لو وجد نعيم في الدنيا
قلت هذا النعيم . او ارتاح فؤاد في الارض قلت هنا الراحة

او اطمان بال قلت هذا مكان الطمانينة والامان الذي تاق اليهِ قلب الانسان

ففي اثناء شهر الورد وهو شهر ايار. المختص بتكريم ملكة الاطهار. كانت فريدة وجيوش النهار قد طردت جيوش الظلام وبزغ الفجر وارتفعت الشمس في افاق المشرق مخضبة البنان ترى من اعلى قصرها جليلة تنحدر من قصرها وتسير مستندة على جميل قاصدة معبد ملكة السماء والارض لتقيم الصلوة وتقوم بواجب التكريم لسيدة العالمين فاذهلها حب جميل لجليلة على انه غب ان كان صرف ليلة بمعية والده في الولائم والانشراح نهض صباحًا من فراشهِ وبالكاد قد ذاق لذة الوسن وذهب بمعية شقيقته واذا قد مالت الغزالة الى الزوال وتناقص النهار وسار جميل بجليلة الى البحر فركبا سفينة واخذ يحركها في ذلك الجون فتسير بهما حيثما ظن جميل بان البر قد راق لجليلة. ومن اجمل المواقع جون جاور قصر فاضل وقد احدقت بهِ الصخور فقصده جميل اذ قد عظمت رغبة جليلة بان

ترى الصيادين يطرحون الشباك فتأتي بانواع الاسماك
وقد طافت على وجه المياه فازدادت بها الحركات لتلاعبها
املاً بالخلاص . وليس لها من الاحبولة مناص . فيصعد
جميل الى الصخور ويأخذ بحفر الصفد فيلقيها الجليلة وهي
داخل السفينة فتتلقاها وان من الانشراحات ما قد توقف
على بعض الحركات لاسيما اذا ما النو قد طاب والهواء قد
جاد والطبيعة تسبح الاله على ما انعم بهِ عليها وجاد

فكلما رأت فريدة جميلاً يحسن نحو اخته المعاطاة
ويكثر الملاحظة وقد نشأت عنايته نحوها عن خلوص
الوداد والحب الصافي الموارد فسهر على ما لذ لها وطاب.
واستدرك بغيتها والارتغاب . ازدادت بهِ حباً . وهامت
اليهِ وجداً . وما نزل وشقيقتهُ في الازرق وقد شقت السفينة
الامواج الاَّ وقد سبقت من فريدة الالحاظ فرقبت منهما
السير . ودعت لهما بالخير . فما سارت السفينة لحظةً . وقطعت
برهةً . وجازت بين تلك الصخور وانتقلت من جون الى
جون الاَّ واعين فريدة قد رافقتها في كل مكان. واذا ما

توارت عن العيان رافقتها فكرًا وكانها معها قد سارت. واليها قد طارت. فسكنت ولم يسكن القلب والجنان. فانهُ حيران ولهان

فما زال البصر يتأمل باماكن سارا بها والمخيلة تسير معها وهي تخاطب نفسها بنفسها قائلةً

ههنا كان جميل يحرك الجذاف ومن هنالك ساق السفينة فحادت عن الجون وذهبت رأسًا الى تلك الناحية ما اشدهُ قوةً . واحذقهُ عقلاً . واعظمهُ نشاطًا . فلا يخاف هيجان البحر ولا تلاطم الامواج . بل قد حول السفينة عن الصخور فتاهت في الاباحة ثم اعادها الى الشاطي فسارت حيثما شاء

فما برحت فريدة واقفة في مكانها . وافكارها منشغلة باخ يكون لها يحاكي جميلاً قوةً ونشاطًا . ويضاهيهِ حبًا وانعطافًا . نحو شقيقة على ما كان يحب جميل شقيقتهُ جليلة . فتارةً يلوح لناظرها ذلك الاخ الموهوم سائرًا بها تلك الاودية والبطاح وصاعدًا الربى والتلال يلتقط لها

الزهور ويقدم الاثمار. ويصطاد لها العصفور ويقتنص الاطيار. ويقصد بها معبد ملكة السماوات والارض المرتفع فوق تلك الجبال العالية. فسقيًا لها لو نالت مبتغاها. وحصلت على مناها. وكان لها اخ على ما تمنت. وشقيقًا على ما رغبت. غير ان هذه الفتية اللطيفة البنية والاخلاق كلما تصورت ذلك الاخ المشتهى تهيئته بهيئة جميل فاقلقتها هذه الهيئة وازعجتها هذه الصورة لعلمها بان اباها يشناها لعظم بغضته جميلاً وعائلة جميل. فعندها كانت تتصور لها اخًا بهيئة يختلف عن هيئة جميل. غير ان اخًا على هذه الهيئة الجديدة لم يشفِ غليل محبتها ولم يرضِ ميل مهجتها ولم تحبهُ على ما كانت تحب اخًا كان على هيئة جميل وصورته

ولم تكن فريدة الّا وتخاف كل الخوف من نزول البحر حتى وانها اذا ما صعدت على سطح القصر ورأت البحر قد هاجت منهُ الامواج وجاش وزبد ارتعدت اهتيالاً فكيف اذا ما نزلت فيهِ وهي لا تحسن السباحة

ولا سوق السفينة. غير ان ذلك الاخ الموهوم منها الذي قد حاكى جميل هيئة فيحاكيهِ قوةً ونشاطًا وللسفينة حركة وادارة كان يخال لديها بانه ينزل بها البحر ويعاملها بما يعامل بهِ جميل شقيقته من العناية والالتفات

فكثيرًا ما قد رات جليلة نفسها تحرك المجذاف وتسوق السفينة وتنشغل في جمع الصفد فلِمَ لا تحذو حذوها وتستسير نظيرها وتتعلم نزول البحر وتحريك المجذاف فلِمَ تخاف وما هذا الرعب. فان مثل هذه التحسبات إن هي الّا الاصبيانية. قالت هذا واستدعت شيخًا قديم الايام من بحرية قصر ابيها وفتحت باب البستان الموصل الى البحر واومات اليه ان ايتِ بتلك السفينة فامتثل امرها فنزلت واياه وقالت لهُ امضِ بنا نحو الاباحة ثم انعطف نحو الجون واذا ما قطعناه وصلنا الى ما وراء ذلك الراس قالت ففعل واخذت تساله والسفينة تسير الهوينا عن كيفية تحريك المجذاف وادارة السفينة

ففتح ذلك الشيخ فاه كانه في عرش عظمته واخذ يقول

لها بصوت رصين : اعلمي يا ولدي من رام اتقان هذا الفن العجيب الغريب وجب عليه اولاً ان يتسلح بالشجاعة والانتباه ثم يتعلم كل حركة بمفردها فهاك المجذاف فاقبضي عليه والقيه على حافة السفينة ومكّنيه هنالك في مكان جعل لهذه الغاية ثم القيه في الماء على ما تشاهدين وشقي الازرق على ما ترين وضي يديكِ الى صدركِ وارجعي الى الوراء لتحسني التقدم الى ما قدام ولهذه الصناعة حركات هيهات من يتقنها هيهات . ولما كان النظر افود والتمرين انفع فالى ما افعل انظري وبهِ النظر امعني

قال هذا واخذ يقرن العلم بالعمل ويعلم مولاته بالمثل اما هي فلشدة رغبتها وفرط محبتها للاتقان تغاضت عن حركات معلمها الغريبة ولم تلتفت الاَّ لما تعلق بفن البحرية فانصبت على العمل تحقيقاً للامل

فما برحت تلازم نزول البحر وتسوق السفينة الى الاباحة وتبعدها من الصخر الى ان اتقنت الفن فصارت تحرك المجذاف وفاقاً للمرغوب وتسوق السفينة بحسب

المطلوب فلا تخشى هيجان المياه ولا تخاف تلاطم الامواج فقد عرفت كيف تدير السفينة في الاباحة والجون وكيف توقيها من الصخور وكيف تحسن ادارتها اذا ما الريح القاصفة هبت او نسيم الصبا قد لعب فبان عندها بحر جمد كالزيت او مياه هاجت كطغيان الطوفان

فعلم ابوها فاضل برغبتها وتاكد حقيقة بغيتها فكان ينظر اليها في كل آن ويتاملها وهي تركب السفينة فكثيرًا ما كان يمازحها ويقول انكِ يا ولدي اله البحر ولا غرو انكِ من سكان البحر فلا عاد يراكِ بر ولا قصر

فكلما مالت الغزالة نحو الغياب صعدت فريدة على سطح القصر لترى جميلاً وشقيقته تشق السفينة بهما المياه. فاذا ما راتهم خفق الفواد واضطرب وتحرك قلبها ولعب واخذت تحدق بهما الانظار وترقبهما في كل اخر النهار حتى اذا وقف لحظة وانشغل جميل بالصيد وجليلة بجمع الصدف ثم تواريا عن العيان فتحت باب البستان وركبت سفينتها وضربت المجذاف وساقتها سوق من لا يخاف

وطافت كل مكان طاقته . سفينة جميل فتارة تخوض الاباحة واخرى تمر من ناحية تلك الصخور وحينًا تقطع الجون وتجتاز الى ما ورائه الى ان تستقر بها الحال في شاطئ قريب طاب فيه الجلوس وانتعشت بنشأته النفوس

لما كانت اواسط ايار شهر الورود والازهار وقد تخصص لتكريم نجمة الابحار مريم شفيعة البشر كانت فريدة قد اعتادت على الترداد على كنيسة البلد حيثما يتم ذلك التكريم . وكانت يوميًا تذهب جليلة واخوها تتميمًا لهذه العبادة الجليلة وقد زادت فريدة بحب جليلة انشغافًا لما شاهدته من حسن عبادتها وصدق تقواها فان هي الاَّ ملاك امتثل امام هيكل العلي وحضرت الذبيحة الالهية بكل احترام ووقار وترنمت بالتراتيل والتسابيح فكانت قدوة المتعبدين ومثالاً للمتقين . غير انه قد ساءت لدى فريدة حالة جميل الذي كان على ما قل من الدين فكانت تراه قد جاء بمعية شقيقته من القصر الى باب المعبد فاخذ باصبعه من الماء المقدس وادناها من اصبعها ثم سلها كتاب

الصلوة ولبث خارجًا في ظل تلك الاشجار الحاجبة شمس النهار

فجلس جميل في تلك المروج الخضراء تاركًا حضور الذبيحة الالهية وعبادة العذراء المجيدة واخذ في ظل تلك الاشجار والمياه تتدفق كالانهار ينشغل بكتب هام بتلاوتها واساطير جدّ بقراءتها وانها لاساطير لايليق بمن تمسك بالدين الصحيح ان يلتفت اليها ويعي في اذهانه فساد معانيها فكانت فريدة ترقب كل ذلك وعلمت بعده بما هنالك

اما جميل وان يكن ذا اخلاق رضية وصافي الضمير وسليم النية. فانه كان قد مال الى الاضاليل واخذ يطالع التآليف المفسودة والكتب المرذولة فاثرت بهِ وان بعض التاثير فحاد عن طريق التقى ومال الى الاباطيل لكن هذه الاسباب الردية لم تكن اوصلته الى اللجة ودهورته في الهاوية بل كانت تحيده رويدًا رويدًا عن الصراط المستقيم وتلقيه في تيه الاضاليل. فويحًا لمن سلم نفسه للاغواء وويلاً لمن لايبتعد عن طريق الهلاك فكم من مخبر سمج في

منظر بهج. قد يغرك زيد بالطافه وعمر برقة اخلاقه وهند بنعومة الفاظها ودعد بلين اطباعها لكن اذا ما اختبرت قومك هولاء رأيتهم والمكر قد ملأ منهم الفواد والخبث قد تمكن وتاصل فحل محل الصلاح واصبحوا من اهل الطلاح

اخبرونا عن فولني الشهير بفساد التعاليم انهُ كان من اهل الاخلاق الرضية لطيف المعاشرة لين العريكة يرحل اليهِ ولا يرحل عنهُ فقد هام الناس بحبه وابتغوا مجالسته مع هذا كله كان فواده ممتلئًا بغضًا نحو ابن الله العلي وقد كمن العدوان للعلي القهار ورام نسخ شريعته القدوسة ونزع اثمار سر الفدا حتى انه لما حان الاوان نفثت الافعى سمها فبان المكر وظهر الخداع. فعلم فولني المذكور تعاليم لم يسبقه اليها اهل الفساد اجمعين ارايت ظاهر المنظر وحقيقة المخبر

فلا تثق بظاهر الطاف حصر بها تمدن العصر الاداب مع ان الاداب الحقيقية قد افل نجمها فتمسك الناس بالظواهر وتركوا البواطن فكان الخليق بالانسان

ان يطهّر داخل الكاس ولا يلتفت الى الظاهر الا ليستدل على الباطن ولا ليخفي ما كمنه في فواده من الاعوجاج بظاهر السذاجة

فلم يكن جميل من مصاف هولاء الناس الماكرين والانام المداجين . غير انه بانعكافه على مطالعة التآليف المفسودة كان قد خلع العذار وسار في طريق البوار وترك شمس النهار ليسير والظلام قد ادلهمّ . فايما جواب يعطيه الاباء عن تربية اولادهم وتهذيبهم وايما دينونة يدانون بها لتهاونهم

فان جليلاً كان لايلتفت الى تربية جميل ولم يخطر لاذهانه بانه اذا ما اطلق له العنان ركب متون الخلاعة واتشح باثواب الفساد فامسى اقبح العباد فقد تركه يستسير على ما شاء فلذا جعل ايمة الكفر ايمته فتلى اساطير فولني وفولطير وهام غرامًا بما تركه روسو من التصانيف المرذولة لاسيما تردد الفرنساويين الى دار والده قد مكّنه من معاشرة اهل الضلال ويسّر له التآليف المفسدة الضمائر فتوصل

الى ما توصل اليهِ من عدم الالتفات بامر الدين وعدّه من اساطير الاولين فلم يدخل الكنيسة ويتعبد بل جلس بعيدًا من ذلك المعبد منشغلاً بشرب الدخان ومنزهًا الحاظه باطراف ذلك المكان وهو يهين العلي الرحمن بتلاوة ما ساء وشان

اما جليلة فقد لحظت ما كان من اخيها وانه قد ركب متون الضلال واصبح في اسو الاحوال فلذا رفعت الحاظها الى العلي العليم واستمدت لهُ من لدنه الانوار ليسير ما دام النهار. فبذلت الصدقة والذكوة وجدت باسعاف المساكين واغاثة المظلومين وقصدت زيارة المسجونين وعلمت الجهال واحسنت منهم الاحوال وزارت الفقراء وافتقدت المرضى وصلت وابتهلت ودعت وتوسلت الى المولى الكريم لينعم على اخيها جميل بالهدى الى صراط المستقيم

فكانت تلازمهُ في بحر النهار وتحتال عليهِ لتجد فرصة لارشاده وتميله الى الصالحات ليبتعد عن الطالحات. فلذا

كثيرًا ما كانت تطلب منه صدقة توزعها على المساكين بل كثيرًا ما جعلته ان يوزعها هو بذاته وطالما رايناها تقدم لهُ بعض الاحداث وتغريه على بذل المال لتربيتهم وتهذيبهم فكم من مرة جاءت بهِ الى مكان التعليم وارته نجاح تلك الشابات بامر الدين واغرته على توزيع الجوائز على من اتقنت التعليم وشهد لها بالتهذيب. وكم قد تملقته وكم قد لاطفته وقالت لهُ يا جميل الاسم والسمة دونك وفعل الجميل فيجازيك عنهُ رب الانجيل

فلما كان ذات يوم والنهار على الزوال ركب جميل وجليلة السفينة وسارت بهما على الشاطي القريب من قصر فاضل فلاحت من فريدة التفاتة واذا بهما امام اعينها. فنزلت من القصر ودخلت البستان واختفت بظل الياسمين واخذت ترقب جليلة وجميلاً فنزل هنا من السفينة واخذ يصطاد على الشاطي ويلقي الاسماك لشقيقته وهي جالسة داخل السفينة. فالتقط لها بعض الصدف فدنا منها وانزلها الى نحو الشاطي وجلسا هنالك يتنادمان ومن

حديث الى حديث ينتقلان وقد طاب لهما المكان وانشرح منهما الصدر فشعلا النار والقيا فوقها الاسماك واخذا من الخبز اجوده وجعلا يتناولان ذلك الماكول وفيما كانا على تلك الحال من مسرة وحبور الا وقد التفتت جليلة الى اخيها وقالت لهُ قد برح من اذهاني ان اخبرك بما بهِ تسر منك الخواطر ويقر الناظر

فقال وما الذي تخبريني بهِ ايتها الحبيبة

قالت اما بلغك امر امينة خصيصتك

قال وما بالها

قالت انها لاحسن الشابات علمًا وادابًا فقد استحقت الجائزة مرارًا واذن لها بان تتقدم المرة الاولى من مائدة الخلاص وفي الاحد المقبل يتم هذا الاحتفال الجميل ولم يجس علينا سوى مشاهدتك هنالك ياجميل

قال لعمري انها لاحسن فرصة ارى فيها هذه الشابة التي اروم خيرها وابتغي نجاحها

قالت لولاك يامهجة الفواد لكانت على اسو الاحوال

دينًا ودنيا. فانك قد انفقت المال على تهذيبها وتربيتها وبذلت العطاء عليها فالبستها الملبوس واقتها خير زاد وقدمت لها ما احتاجت اليهِ داخل منزل ابيها وفي المدارس

قال وما عمرها الان وهل يوذن لها بأن تتقدم من المائدة السرية

قالت انها بسن الاثنتي عشرة سنة وانها على جانب عظيم من التعقل والادراك

قال متى حان الاوان اعلميني فاذهب معكِ حالاً واحضر ذلك الاحتفال

قالت انعلم ابنة من هي ومن هما ابواها

قال لا علم لي بها ولا بابويها

قالت انها ابنة رجل من احدى المدن البحرية في فرنسا قد جاء الى هذه المينا يشتغل ببناء سفينة عظيمة تراها في محل المراكب وانه رجل سيء الاخلاق شرس الاطباع لا دين له ولا دنيا على انه من رجال الثورة الفرنساوية لا

يطيق ذكر اسم الله العلي ولا ان ينظر هيكلاً او معبدًا وقد اشتد بهِ الغضب اذا راى كاهنًا او قسًا فلعن وشتم وقذف السماجات ونطق بالمنكرات فخلتهُ حيوانًا ضاريًا

قال وما هي حال زوجته هل حاكته اطوارًا ام هي من النساء الصالحات

قالت انها من اقبح الطالحات وانها افة من الافات فبئس المراة والزوجة فلا عقل ولا تعقل ولا تربية ولا تهذيب فظة المقال سمجة الكلام شرسة الاخلاق لا تحتمل ولا تطاق غضوبة قبيحة شريرة شتّامة سفيهة سبّابة مكروهة حتى دعاها الناس لبوةً او ذئبة كاسرة

قال وما امينة ابنتها

قالت قد راينا العوسج اثمر تينًا والاشواك جاءت بالورود وما ذاك الا من فضلك وحسن عنايتك نحوها وان شئت الوقوف على ما نسر بهِ الخواطر فدونك وهذه النكتة فاصخ سمعًا لهذه القصة فانها تتعلق بابنة خصيصتك فتعلن لك سريرتها فتتحقق صدق حالتها فتسر لحسن تربيتها

قال قصّي علينا هذه القصة واطلعينا على حال امينة خصيصتنا

قالت لما كان الاحد الماضي وقد علم الكاهن التعاليم فشرح وصية الانقطاع عن الزفر في الايام المحرمة فلما كان نهار الجمعة وجلست امينة وابواها على المائدة يتناولون الطعام لحظ والدها انها لاتتناول لحمًا فاعترضها فقالت ابتِ قد حرمت اكله الكنيسة امنا في مثل هذا اليوم . فقال لها انا ابوكِ واياكِ امر باكل اللحم

قالت ابتِ لاتجعلني اهين الله فاخالف الناموس . فعندها استشاط غيظًا وضربها ونهض بها عن المائدة واخذ حبلاً وربطها في ناحية ووضع امامها لحمًا وخبزًا وقال لها : للحم كلي وتركها ومضى في حال سبيله . فلما كان المساء وكان قد انصرف من شغله مر بالقهوة وانشغل هنالك الى نحو انتصاف الليل . وكانت زوجته قد حزنت لما جرى بابنتها . فنهضت اليها وجاءتها بماكول صيامي وقالت لها . من هذا تناولي . فاجابت الابنة لا ياماه فاني

لا اتناول منهُ اصلاً على ان والدي عن الاكل قد انهاني فلن اخالف لهُ امرًا فان عصيت الوالدين عصيت الاله الامر بالطاعة لهما

فلما انتصف الليل وقد رجع ابوها الى المنزل فاخذت زوجته توبخه على قساوته وكيف قد ترك الابنة مشدودة بالوثاقات ولم تذق ماكلاً وانها قدمت لها بعض الماكول فابت ان تمسهُ لئلا تخالف امره وقد انهى تعالى عن مخالفة امر الوالدين

فلما سمع ذلك الرجل بما كان من ابنته صاح صارخًا نعم الشريعة شريعة المسيح اني قد احببت مسيحكِ يا ابنتاه

قالت وانه لمسيحك ايضًا يا ابتاه

قال قد عبدته حبًا بكِ

قالت وحبًا بخلاصك الابدي

فتقدم منها وفك وثاقها واجلسها معه على المائدة وقال كلي من الان وصاعدًا ما تشتهين ؛ واحفظي وصية رب العالمين . قال يا ابنتاه اطلبي مني ما تتمنين

قالت ابتِ في اليوم الاحد اتقدم المرة الاولى من مائدة الخلاص وهي المناولة الاولى اتذهب ووالدتي معي الى الكنيسة

قال اننا بكل طيبِ خاطر الى هنالك ذاهبون

قالت اتذهبان اولاً الى الكاهن

قال اننا نذهب لا محالة حبًا بكِ يا قرة العيون

قالت جليلة اوعدا ابنتهما وقاما بوعدهما فذهبا الى الكاهن واعترفا بخطاياهما وفي نهار الاحد يتقدمان من المائدة السرية وابنتهما وتكون المناولة الاولى لهما ولها

فلما سمع جميل هذه القصة اغرورقت عيناه بالدموع فقالت فريدة وهي محجوبة وراء جدران البستان ما زال جميل على فطرته الحميدة فجثت على الارض وقالت ربي ردّه اليك ولا تسمح بانهُ يدنس صورتك ومثالك . يا بتولاً ملجاء الخطاة رديه الى السراط المستقيم . قالت هذا ولم تعلم بان الله قد اختارها لتأتي بجميل الى طريق الهدى وان ميلها نحوه وغيرتها على ناموس الله واوامر الله انما قد استخدمها

تعالى لانقاذه ورجوعه عن الطريق المعوجة

في قرعة جميل العسكرية

لما كان فصل الصيف قد مال الى الزوال . وقد انتظرت الطبيعة نزول الامطار . وكان اذ ذاك يوم سكنت حرارته . وراقت طراوته . نهض فاضل وفريدة كريمته والفجر قد طلع قاصدين تلك البراري الشارحة الصدور . المكللة بالاثمار والزهور . واخذا يصرفان الاوقات بانشراح وحبور . وينتقلان من مرج الى مرج . ومن بقعة الى بقعة . والانهار تتدفق والطير قد غرد . والقطعان ترتع في تلك البطاح والوديان وكل نسمة تسبح العلي الرحمن . واذا بالغيوم قد حجبت انوار الشمس واطبق الضباب على الربى والهضاب وابرقت وارعدت فخلت الصخور قد تشققت . فاظلمت فلم يهتدِ السائر الى طريقه

فخفق من فريدة الفواد . فكانه يوم الميعاد . فضمها والدها
اليه واخذ يسير بها من مكان الى مكان . الى ان ساقتهما
الاقدام الى احدى تلك الوديان العميقة فصارا على جرف
الهاوية والغيوم قد اشتدت . ونيران البروق اتقدت .
فحارا واندهشا فان رجعا الى الوراء فقفر شاسع وان
تقدما الى ما قدام فبينهما والمنازل الاهوال . ولما كانا على
تلك الحال من دهشة وانذهال . انفتحت ميازيب السماء
فاوى الوحش الاوكار . واستظل الطائر بين اغصان
الاشجار . وهرولت القطعان الى الجدران . فتركت
المراعي والرعيان . وسعت الرعدة في جميع اعضاء فريدة
ولا قوة لذلك الشيخ القديم الايام . ان يسير بها الى ما
قدام . وقد سارت المياه ما بين الاقدام . فلاحت منهُ
التفاتة الى اليمين والشمال . فرأى قنطرة تعلو ذلك
الوادي العميق وهو في سائر جهاتهِ ملك جليل فشجع
فاضل ابنتهِ وقال لها : شددي منكِ القوى فنأوي الى
جناح تلك القنطرة . وسارا في الحال وما استكننّا في ذلك

المكان. الاّ وقد سمعا دوي المياه القاذفة امامها الاحجار والاشجار. واندفقت في ذلك المسيل وكلما توالت الدقائق انتها مياه طغت فوق تلك المياه وطافت حتى وحول تلك القنطرة. فعندها نهض فاضل فوق علوة في جناحها وفريدة منضمة اليه وقد غشي عليها وغابت عن الحواس. وصاح يا اهل المروة: هلموا لاغاثة من قد حاقت بهِ الاهوال وذهب فريسة الوبال

فكان باتفاق جميل قد سمع هذا الصراخ جميل الذي كان قد ذهب باكرًا للقنص فقصفت العاصفة فاوى اكواخًا لهُ هنالك اعدت للزرّاعين ولجمع ادوات الفلاحين فبادر في الحال ليرى من ذا الذي قد ذهب فريسة الوبال وما كان فوق تلك القنطرة ونظر الى ذلك الصارخ الاّ وقد كانت المياه قد علت وكادت تغرق فاضل وابنته فركض الى تلك الاكواخ وجاء بالرجال واخذ خشبة وربطها بالحبال وقال لمعاونيه احسنوا الوثاق وشددوا الذراع فاني منحدر والخشبة الى

هذا القاع فوصل الى حيثما دنا فاضل وقال لهُ: تمسك يا مولاي بهذه الحبال

فاجابه فاضل نشدتك الله خلّص ابنتي ودعني في هذا المكان

قال تمسكنَّ بهذه واني لمنقذ كريمتك في الحال

فاصاح فاضل سمعًا وقبض جميل على فريدة وضمها الى احد تلك الحبال وعضدها بذراعيه ولما تمكن كل التمكين اشار الى اولئك الرجال ان انهضونا في الحين فكانوا ارشق من النسيم ففي لحظة عين صاروا فوق القنطرة باذن رب العالمين وقد كتب اسمهم من السالمين

هذا وما زالت فريدة غائبة عن الحواس ولم تشعر باولئك الناس . فجاوا بها وبابيها الى تلك المنازل واخذت النساء تبالغ بخدمتها واعتنى الرجال بوالدها فلما اخذت تستفيق من غفلتها بادر جميل الى قصر والدها وجاء بالرجال فحملوها الى القصر في الحال وما برح جميل ورجاله بخدمتهما الى ان جلسا في مخادعهما وبذلت نحوهما

الاتباع كمال الغيرة والاهتمام فرجع ورجاله فرحين لانقاذهما تلك الذوات الكريمة

اما فريدة فلما استفاقت من ذهولها والتفتت الى ما حوها قالت ابتاه اين نحن واين كنا وكيف من الاخطار قد نجونا

قال ابنتي : حمدنا الله وغيرة جميل نجل جارنا جليل وقص عليها ما جرى وصار وكيف انقذهما ذلك الشاب الشجاع من الوبال

فما سمعت فريدة باسم جميل الا وقد انتعشت منها الروح وحيي الفواد هذا وقد حاولت كتمان السرور فقالت لوالدها انه لرجل همام الذي انقذنا من هذه الاهوال

فاخذ والدها يبالغ باوصاف ذلك الشاب الغيور ويثني على فعله المبرور . ويعلن امتنانه العميق عن ذلك الفعل الجميل وفريدة قد سر منها الفواد وابتهج . وحييت منها المهج . وقالت في نفسها حمدت المولى على هذه الفرصة

الجميلة التي لا شك انها ترفع كل حاجز بين عائلتنا وعائلة جليل الجليلة فحبذا صحت الاحلام . وزالت من العقول الاوهام

ولما كان الغد والجو قد صحا وراق . وراقت من فاضل الاخلاق . وقد ارتاح وابنته من كل مشاق . التفت اليها وقال : قد حتمت علينا فروض الواجبات ان نذهب الى قصر جارنا جليل ونشكر نجله الامجد عما ابداه ورجاله نحونا من الغيرة الوفية وفعل المحبة السنية . قومي بنا في الحال لنقصد تلك الاطلال معربين عن كمال المودة والامتنان

فلم ينطق فاضل بمثل هذا المقال الَّا وقد وقفت فريدة على اقدام الامتثال . وقالت ابتِ قم بنا في الحال . بدون فتور ولا مطال

فلما وصلا الى ذلك القصر سالا طالبين جميلاً فحضر اليهما في الحال . واستقبلهما في الترحاب وجاء بهما الى قاعة الاستقبال . وبالغ بالاكرام والاجلال . ففاها

نحوه قائلين : قد طفح الفواد امتناناً عن غيرتك الوفية فاننا ما دامت الحيوة قد نادينا صارخين بانك منقذنا . ومخلصنا من بليتنا

اما هو فاجابها بكل احتشام . وقد اوعب الفواد احترام . انهُ من اجمل الحظوظ حظ قد مكنني من تلك الخدمة نحو مثل هذه الذوات الكريمة . التي اذا ما بدلت حياتي وقاية لها اعددت تجارتي من اربح الرابحات فحمدته تعالى على نجاتكما كما اني قد حمدته على فرصة اظهرت بها حسن استعدادي نحو عالي مقامكما . ومما التمسه بحرارة الطلب ان تمكناني من تقديم الخدم في ما ياتي من الايام فيزيد حظي حظاً وغبطتي سعادة . وجاءت جاليلة تلاطف فريدة وتواددها وتبالغ باعلان محبتها وقد عقدت بينهما علائق الوداد واستحلفتها واباها ان يثابرا على مواصلتهما . وكان على قلب فريدة يوم ابهج الايام . وحين يُذكر آن بعد آن . وما زالت تعلل نفسها بالامال وأن قد زال ما بين ثينك العائلتين كل نفور واغبرار

فلاح من موافقة الظروف وتوفيق الاحوال . بان قد تحتق من فريدة الامال . وتنال ما قلبها قد ابتغى . وفوادها قد اشتهى . غير ان تقلبات الزمان . وتغير الحدثان . وسرعة وقوع البلايا . وهجوم وثبات البلايا وغوامض اسرار العلي بامور البشر شانه ان يخطف منا الاثمار حال بسطنا الايدي اليها فتهبب الارياح وتقصف العواصف فتنزع منا الغصن والاثمار . فنلبث والايدي فارغة والعقل باندهال والقلب في خفقان ولم يتبقَ لنا سوى الاسف والاكدار . واذا برغائب واماني قد تولدت في القلوب وعللنا النفس بامال نخدع بها النفس في حال يأسنا والقنوط ونبني عليها اطماعنا والقلب في خفوق واضطراب

فكانت وقتئذٍ قد تنكست الاعلام النابوليونية في موسقو وخذلت جحافله الجرارة . وابطاله المغوارة . التي لم ينبيء عنها التاريخ بمثل كثرتها . وشدة سطوتها . من بعد جيوش داريوس ملك فارس على اليونيين . وقد تشتت

منها الشمل وتبددت في تلك الاقطار وذهبت فريسة البرد الشديد فبادت خيولها وذهبت ذخائرها واصبحت وقد عرت عن المدافع ولربما قد فرغت من ايديها الاسلحة واخذت تطوف الاودية والجبال وتخوض الثلوج حتى اصبحت مايتها عشرة وعشرتها واحدًا . ولما لم يبقَ لقائدها ذالك الهمام . والليث الضرغام . وسيلة يحتق بها الامال رام جمع جيوش جديدة وردف جنود تنزل ميادين الحروب . وتقاسي من الحرب البلايا والخطوب

فلما اذيعت اوامر الملك وعلم الناس ما كان من مقاصده من اخذ عساكر جديدة سرت الرعدة في القلوب وخفق الفواد خوفًا وجزعًا لاسيما لان ايطاليا كانت منذ سنين عديدة لم تعلم بالحرب الّا بالسمع ولم تنطوِ ابناؤها تحت لواء الحرب بل كانوا قد لبثوا مستظلين بظل الراحة والامان فلما ظهر نابوليون بغزواته وسطى هذا البطل بفتوحاته . وحامت جنوده تلك الاقطار . فارعدت فرائص الكبار والصغار . فجرت دما القتلى كالامطار .

وخضبت الحقول والانهار. حتى ان ما من شبر ارض الاَّ وقد كان مدفن قتيل وما من بلدة وان صغيرة الاَّ وقد شاهدت من الحرب الاهوال . وعاينت شر القتال والنكال. ومع هذا ما زال ذلك المقدام المغوار . مصرًا على جمع العساكر من ايطاليا ليحارب جهات المجر واسبانيا ويقاتل جنوبًا وشمال

فمن الاقطار الايطاليانية التي احتملت رزء هذه الرزية كانت البلاد الجنوية فانها شاهدت انهار الدماء قد امتزجت بمياه انهارها وعاينت الموت وشاهدت القتل والبوار فلم تطق استماع الحرب ولم تحتمل ذكر تلك الاهوال المشيّبة الاطفال

فناحت الامهات . وسكبت العبرات . على فراق اولادها . وقتل مهجة فوادها . فايُّ ام تسمع بان ولدها اوشك السقوط بين ايدي اعوان الملك ولم تشق الجيوب وتخدش الوجنات . وتتنهد الحسرات . وتغيب عن الحواس لوقوع البلايا والافات

قال الراوي لا يدرك شدة الاهوال ومرّ تلك الاحوال الاّ من عاين وشاهد فليس السمع كالعيان فاننا عشنا في تلك الايام وشاهدنا ما كان فلم ننظر وقتئذٍ الى امهاتنا الاّ وقد تمزقت منها الافئدة كمدًا لما كانت عليه تلك المحبات من الحزن الشديد. الذي ما عليه مزيد. اعلم يا هذا انه من عادة الام ان تفرح اذا ما رات اولادها قد حازوا من الصحة اكملها. ومن العافية اجملها. وقد اتصفوا بسلامة المزاج وحسن البنية والتكوين فلم يكن فيهم ما يشين. اهل من بغية الامهات اكثر من ان يرين اولادهنّ على هذه الصفات. فمع هذا كانت امهات ذلك الزمان اذا ما نظرن الى اولادهنّ وراينهم على تلك الحال استولت عليهنّ الاكدار وخضنَ بحور الاحزان وقالت الام يا ولداه ليتك اعرج او كسيح وحبذا داهمك فالج الفاك في الفراش او اعمى فلا تنظر ضوء النهار وانّى لي ان اراك اخرس اصم ومن يعطيني ان اشاهدك والانامل مقطوعة فلا تليق لان تحمل سلاح وتحرك الرماح. فهذه

كانت اماني الامهات . وهذا ما كنّ اليه تايقات . فكيف برين القرعة العسكرية قد وقعت على الاولاد . وهاجروا البلاد . ولن يروهم الى يوم المعاد

هذا وناهيك عما كان يجرى بين الاهلين من الخصومة والعدوان . في كل اين ومكان . اذ ان كلًّا منهم كان يبذل كل المجهود لينقذ ولده من الجندية فيوشي بحق جاره . فنشاء عن ذلك حسد وحقد لاسيما في المدن الصغيرة والقرى حيث كل عليم بامر جاره . وعارف بما في دياره . فاستيقظت بينهم شعائر الانتقام فما ارتاب احد بجاره وانه قد اوشى بحق ولده الّا واوقد نار العدوان فاخذ حالًا بالثار . واستولى على البلاد الدمار . فاصبحت بوار . فمن يصف شراسة اخلاق اولئك الوالدين اذا ما حل بولدهم البلا ووقع بايدي الجندية وقد توهم والده بان جارًا له اهدى المامورين اليه . فمن يستطيع ايضاح ما شاهدنا من القتال . وعاينا من النكال . فعاد الاخ لاخيه عدو الد والاخت لاختها جلادًا عفت رسوم الشفقة من

فوادها وعادت ذئبة كاسرة او لبوة زائرة

اما شبان ذلك العصر والاوان فهربًا من الحرب العوان كانوا يباشرون افظع الوسائل ويخترعون اشنع الاختراعات فمنهم من سعى بقلع احدى عينيه ومنهم من قطع ابهامه لئلا تصلح للقبض على السلاح وغيرهم من قطع ابهام ارجله لئلا يحسن المشي. ودهن هذا وجهه بدهون شوّه بها صورته فعاد بعد ان كان جميل المنظر وحسن الصورة قبيحًا شنيعًا نفرت العين من الالتفات اليه. وقد جرح هذا فخذيه وانزل فيها مراهم آكلة قرضت منه اللحمان فلم يستطع سيرًا وبالاجمال قد سعى اولئك البائسون بتشنيع حالهم وتعطيل اجسامهم وملاشاة اعضائهم بما لم تستطع الحرب ان تفعله بهم

قال الراوي هذا ما شاهدناه وعايناه من حوادث تلك الايام التي قد مضت وخلّفت في فوادنا الاكدار. وتركتنا فريسة الوبال. وما برحت قلوبنا ترتعش اذا ما اياها تذكرت. والسنتنا ترتبط اذا ما عنها اخبرت.

وبامرها تحدثت . وقد ذكرناها لا حبًّا بالمكدرات . وما جرى بايطاليا من المحن والافات . بل ايضاحًا لاحوالها في تلك الايام . وما حل بها من الاهوال لاصغائها لاهل الدسائس والحركات واستماعها من اهل المكائد والتلاعب اناس انطووا تحت لواء جمعيات سرية وقيل انها المسونية الشهيرة بدسائسها المكرية حتى البست ايطاليا ثواب الحداد . وطعنتها بالرماح المداد . فشتت منها الشمل وبددت الاهل . فاصبح الوالد في واد . والولد قتيل طي المهاد

هذا ولم تجدِ هذه الحركات ايطاليا نفعًا لانها لم تحارب عن الاوطان بل قد سفكت دماها لتمكن اهل العدوان من بلوغ المارب فقد ضحت ابناءها اشفاء لغليل اعدائها الذين ما برحوا وهي عنهم تحارب . ولاجل اغراضهم تضارب . يعدّونها عبدة بطالة . وقد انصفت بالذل والنذالة . وعرت عن الشجاعة والبسالة . وان هذا لأحظ من اصبح العوبة الدسائس وسقط في حبائل اهل المكائد

فاوقعوا به الرزايا ووصفوه بسوء المزايا فويحًا لكِ يا ايطاليا على هذه الاحوال. ترى من الذي ينجيكِ من هذه الاهوال. وقد وقعتِ باشراك اهل الفتن وتعرقلت اقدامكِ باشباك اهل الفساد

لا تعجب يا صاح مما سمعتهُ عن شبان ذلك الزمان. ولا تقل عن ذاك انهُ جبان وعن اخيهِ انهُ قد عرى عن الشجاعة واصبح متسربلاً بشعار الذل والهوان. بل من جملة ما حمل اولئك الفرسان على الرجوع عن الميدان واختراع طرق يتخلصون بها من جور سلطان ذلك الان مشاهدتهم سحب قرعة خلانهم وما حاق بامهات هولاء المساكين من الاحزان الممزقة الفواد

على ان من كانت قرعتهُ في السنة المقبلة قد عاين قرعة اخيهِ في السنة الدابرة. فرأيت لدى ذلك الاقتراع تلك الامهات الكئيبات واقفات لدى ابواب السراية كانهنَّ في الموقف العظيم منتظرات ذكر اسم اولادهنَّ حتى ان بعضهنَّ لمجرد ذكر اسم ولدها قبل ان تسمع ان

كانت ورقتهُ سوداء او بيضاء غشي عليها في الحال وذهبت فريسة الوبال. وغيرها هجمت على اولئك الاقوام كذئبة كاسرة وشقت منهم الصفوف وصاحت بهم قائلة: دعوني اودع ولدي وارى المرة الاخيرة مهجة فوادي. وانا ما قاومها الغفر ومانعها الحرس وثبت عليهم كلبوة اخذت منها افراخها وخدشت وجه اولئك الرجال باظفارها. وكم من مرة قلعت منهم الاعين وقد رفعتها الحراب عن الارض ومزقت منها الحشا وهي لا ترتجع عن اقدامها. حتى انهُ كثيرًا ما اضطر الحرس لنجدة الجنود لينجوا من غضب تلك النساء الهائجات على فراق اولادهنَّ

فلا ننسب هذا الى الفجور والسفاهة ولا الى الخوف والجبانة لان تلك الامهات الودودات كنَّ متاكدات عدم عودة اولادهنَّ من ميادين القتال وهل نسينَ ما كان قد جرى بغيرهم من قبل والعهد القريب والامد ليس ببعيد

فلما كان اولئك الشبان يشاهدون تلك الاحوال

بالعيان ويعلمون بان ما قد حل في تلك السنة بتلك
الامهات الاجنبيات سوف يحل في المقبلة بامهاتهم انقدوا
غيرة وخافوا على احشاء حملتهم وثدي ارضعنهم . واصبحوا
ووالديهم يتاملون طرقًا بها من الجندية يتخلصون. وامهاتهم
من البلاء يوقون . فلم يكن ذلك منهم عن خوف وجزع
ولا عن جبن وذل بل عن شدة الحب السائد وقتئذٍ على
قلوب الوالدين والبنين . فانهُ كان عجيبًا في ذلك الحين .
لان ايطاليا لم تكن قد توغلت في عوائد العصر الحاضر
بل ان حب الوالدين للاولاد كان حبًا متبادلاً وان بهذا
ارتبت وبمقالنا شككت كذبتك شواهد الحال لان كثيرًا
ما اذهلت سلطان ذلك الزمان بسالة شبان الايطاليان
وادهشهُ نزولهم الميدان والحرب عوان

فهذا البطل الذي لم يخشَ وقائع الحروب خاف على
امه من نزول الكروب فحاول واحتال واوقع بنفسه در
الوبال ليوقيها من الاهوال

فرايت سكان السواحل البحرية قد ركب منهم الشبان

سفينة لاعبتها الامواج وساروا شفعًا او وترًا ضمن خشبة خلتها لا تبعدهم عن الشاطي الاَّ قليلاً حتى اذا ما صرفوا ليالي وايام وهم اذ ذاك لم يتبقَ معهم زاد بهِ يغتذون او ماء اياه يشربون . بل قد انحطت منهم القوى وطوا الحشى على الطوى . خلتهم اصبحوا من الموتى و وصلوا الى شاطي جزيرة وقد انتهكت منهم الابدان وانحلت منهم الاجسام. فاواهم اهلها وحنوا اليهم الى ان عادت اليهم قواهم

ومنهم من قد هرب وحده داخل خشبة هاجت عليها الامواج وجاش البحر العجاج . فتارة خلت تلك الخشبة اوت اللجة وتارة صعدت في العلو مرتفعة . ولم يعبا راكبها بتلك الاخطار . وان تحطمت مركبته وتكسرت على الاحجار . ولم يعد لهُ من اليم مناص ولا فرار

فكثيرًا ما قد شاهدنا منهم اقوامًا قد نجوا من اخطار البحر فوصلوا الى قارة خلت عن السكان وهم اذ ذاك صفر الايدي لا زاد ولا قوت فرعوا الحشيش واوا كهوف الجبال فخلتهم اصبحوا من الحيوانات وغيرهم قد نجوا الى بلاد

السرب والفلاح فخدموا سكان تلك الجبال يرعون لهم المواشي ويسهرون على القطعان وما منهم الآمن قد طوى الحشا جائعًا ظمآن . ففضلوا خدمة اولئك السادات على استماع قنابل المسكوب وحراقات النمساويين

فقد قطع كثير منهم البحر الابيض واووا تونيس والجزائر وبلاد البربر فقاسوا امرّ العبودية سنين واعوامًا حتى اوفوا امهاتهم من مرارة فقدهم في الحروب وميادين الخطوب

لابارك الله بتلك الايام فقد حلت الرعدة في القلوب واستولت عليها الكروب من شدة تلك الخطوب التي عمت شبان ذلك الاوان فتشتتوا في البحور واووا كهوف الجبال وعمق الوديان

اما سكان اواسط ايطاليا حيثما قد كثر فيها السباخ وجزلت المياه فكنت ترى منها الشبان يغوصون تلك الوحول ومختفين داخل الغيطان فهذا ضمن برميل اخفاه بين القصب وذاك داخل بقعة احدقت بها المياه من كل

جهة وقد غطتها الاعشاب فيصرفون النهار كله في ذلك المأوى الكئيب حتى اذا ما جاء الليل البهيم ركبوا خشبة وخاضوا تلك المياه قاصدين عبرًا جاء اليه بعض الاقارب بالزاد فاخذوه ورجعوا مسرعين الى حيث كانوا فتناولوا ذلك الزاد وقد خفق منهم الفؤاد خوفًا متوهمين بان بدًا طردتهم الى هنالك قد تصل اليهم فتوقعهم في اشر الانهالك

واحسرتاه على اولئك الفتيان فانهم كانوا يصرفون ليالي الشتاء والبرد قد اشتد والجليد قد جمد ولا نار يصطلون عليها ولا مكان يحسن ماواهم واذا ما جاء الصيف بحره الشديد قد كوتهم نيران الهجيرة ولا ظل يستظلون به فتصاعدت تلك الابخرة الوخيمة فطبخت منهم الاجسام فاعترتهم الحميات الردية فاصبحوا والوجه كالح والمنظر قد غطاه الاصفرار ومالت بهم الايام الى البوار فهذا قد ابتلى بداء الاستسقا. وذاك قد عم به البلاء فسرت الاداء في جسمانه. فلا يستطيع الخروج من مكانه. فتبًا لتلك

الاحوال وويحًا لتلك الايام فلم تذق الام لذة الوسن
بل قد كحّل اعينها السهاد قلقًا على ولدها المستوطن تلك
المهاد ولم يخلص من الجندية الاَّ وقد تعاظمت عليه البلية
فذاق من المصاعب اقواها . ومن المتاعب اضناها . ومن
الامراض اشدها ومن الاسقام اكثرها . فانك تراه بين
تلك السباخ قد حاكى الاوراق المتناثرة والاعشاب العفنة
فكانه جثة قد اخذها الهريان ولم تبقَ لهُ هيئة انسان

اما سكان الاقاليم المجاورة جبال ايطاليا الرفيعة
الذرى فقد تاهوا في الغاب واوقدوا نيران الحرب بينهم
والذئاب فصعد هذا هربًا اعلى الجبال الشامخة فخلته عقابًا
تطاير فوق تلك الثلوج المتراكمة وما استقر بهِ الحال لحظة
وقد اضناه السير واضجع برهة على ذلك الجليد الاَّ قد
وثب عليه سرب الحيوانات الضارية اذ قد هيجها الجوع
النضاج وهامت الى نهش اللحوم فدنت منه واستنشقت
الاثار فشعر ذلك النائم اليقظان فنهض والرعدة قد لبست
الرعدة والشدة جاءت فوق الشدة فدعه حيرانًا ولهان

وهاك نسيبه قد صعد الجبال . وداهمته الامطار ولا يعلم كيف يتوجه يمينًا اوشمالًا والبرد قد تساقط عليه كالحجار فاهتدى الى شقوق الصخور فهرول نحوها املاً بالملجاء وما دخل الى بعض ذلك الكهف الّا وقد خرج من داخله وحوش كاسرة فانطرح قتيل الخوف فراه الاسد وزمجر فازداد ذلك المسكين رعبًا وامتلا فواده هولاً فاطلق الرصاص املاً بالخلاص فابتعدت منه الكواسر لحظة واليه قد رجعت فقابلها بالحراب فكانت ساعة منها الطفل قد شاب

وكم من الذين في جولانهم تلك الاقفار صارفين الليل والنهار وقد حاقت بهم الاخطار فالخوف من داخل والويل من خارج كانوا اذا ما قصدوا مكانًا اليهِ يأوون وفيهِ لحظة يرتاحون تواردت عليهم جماعة الذئبة من ضمن ذلك الغاب فعمدوا على شجرة صعدوها املاً بالخلاص واذا بتلك الوحوش الضارية حاولت الارتفاع حتى اليهم ولما لم تستطع منهم البلوغ اخذت تقرض

اصل الشجرة بانيابها لشدة كلبها وعظم غضبها وما برحت على تلك الحال والليل قد اقبل والثلج قد انحدر والبرد زمهرير والشاب متمسك بغصن عمد اليه وقد تعلقت نجاته عليه هنا واليد اصبحت كالجليد فلا يحسن القبض على غصن الرجا وقد خاف السقوط من العلا فان لم يمت برهًا فقد تدهور فتلقته تلك الذياب ومزقته بالانياب فشدد عزمه والقوى وصرف ليلته على تلك الحال

اما شريك حالته ترى كيف صرف ليلته فانهُ لما كان عامدًا الى ظل شجرة ظليلة يصرف في حضنها تلك الليلة وقد امن منهُ الفواد . ونجى من شر اهل الفساد واوى تلك المهاد . وفيما كان يهنئ نفسه على خروجه من الاطلال ودخوله الجبال هربًا من الوبال . وانها لديه اهنئ حال . واذا بجماعة الذئبة برزت اليه ووقفت بين يديه . وما اخذت بالوثوب عليهِ الا خلته صقرًا بسط اجنحتهُ فطار فصار فوق تلك الاشجار فعمد الدب على الصعود فصعد ما كان فوق الشجرة وقد لوى منها الاغصان وتمكن

فوق غصن كل التمكين . لينهش فريسته في ذلك الحين الاَّ وكان ذلك الشاب الاسد قد قبض على الفاس وضرب الغصن ضربة خائفٍ رام الخلاص والذراع شديدة والقوة مستزيدة فانقطع الغصن في الحال واذا بالدب قد تدهور في تلك الوديان وقد دوت بالاصوات الهائلة وتساقطت حجارتها من ضخم جثة وقعت عليها وما زال ذلك الوحش يتدهور من صخرة الى صخرة ومن شعب الى شعاب ويتلاطم على اشجار تلك الغاب وقد دوت الوادي والمصراخ زاد فخلتها رعود قد قصفت وزلازل للجبال قد زعزعت

لكن اين الفرار . من وقوع الاقدار . وقد ساعدها الاشرار . العاملون على الخراب والدمار . فقد هرب اولئك البائسون واوا البحار . وفرّوا الى قمم الجبال العالية . لكن ترى هل نجوا بعد هذا من الوقوع بايدي الجندية . كلاَّ قد عمل على قبضهم الحاسدون ووشى بحقهم المبغضون ولما كانت قد قصدتهم امهاتهم مرارًا في تلك الاقفار

لتاخذ لهم ما يسدون به ضور جوعهم قد رقبها الراقبون وعلموا مكاناً قصدته وغابات فيها كابدت المشاق بذهابها ليلاً الى تلك الوحول ودخولها غاباً غير ماهول فسعوا لدى اولي الامر وذهبوا على اثارها فوقعوا بمهجة فوادها وسحبوه الى السجون ثم الى العسكرية . فشقت عليه الجيوب ، لاجراء ما كان مكتوب

ولما كانت المسونية قد علمت بوشك سقوط الامبراطورية الفرنساوية وبسقوطها تخيب منهم الامال ونتوصل بهم الاضرار وقد حبطت منهم الاعمال . ولم يجر لهم مأرب . قد نصبوا الفخاخ الى تلك العائلات التي فرّ من حضنها الاولاد . طافرين في البراري والوهاد . قاطعين جبلاً وواد . واذا شعروا بما يمكن من الظن ويايد الوهم سعوا بها لدى من لهم الامر وانزلوا بها النكال فوقعت في شرّ الاعمال فهجم الاعوان على المنازل وفتشوا في كل مخدع ومكان وفي الاقبية الواطية . والمنازل العالية . حتى وانهم قد فتحوا اقفال الصناديق وكسروا البراميل وكشفوا في

منازل اهل البرّ على محلات خزن فيها علف البهائم وفحوا الاهراء فعادت تلك البيوت فريسة الخراب وقد ازادوا على هذه الافعال الممقوتة ظلمهم اهل المنهزمين فظلمهم ارباب الامر بدفع جرائم . واداء غرائم . فباعت الام حلاها . والزوجة مجوهراتها والاب ما بين يديه من الراسمال . وما بيده من مؤنة العيال . ومع هذا لم ينفك اهل الظلم عن ظلمهم . واهل الجور عن جورهم . بل قد انهتكت حرمة العيال . ورزئت بالوبال فنفد من يدها المال . وعلى سوء حالها لم تبال . اذا ما نجا ولدها من يد الاعوان . ولم يدخل الحرب العوان

اما الاشرار فقد كثرت لديهم طرق التعدي والظلم حتى انهم قصدوا المنهزمين الى داخل الاوكار في خفايا الجبال والحقوا بهم جماعة الصيادين وقد تقدم هولاء كلاب تمرنت على اثر الفارّين فانبعوا في كل صقع وواد حتى اذا ما وقعوا باولئك المساكين نهشوهم نهشًا ففرّ هذا صاعدًا اعالي الاشجار وذاك ذرى الجبال واذا ما ضايقهم

الكلب الكليب واطلقوا عليه الرصاص سمع الصيادون واهتدوا اليه فقصدوه في الحال . ونزلوا بذلك المسكين وقيدوه بالاغلال . وارسلوه الى السجون القريبة فارسلته الى غيرها وقد اشتدت منه الوثاقات واوقعت بهِ اشد الضربات . فدخل سجونًا الى اخرى وما برح على تلك الحال . من سجن وانتقال . الى ان دخل الجندية . وسقط بتلك البلية

وقد كانت في ابتداء الامر حلت المصائب برعاع الشعب ولم يطالب الى الجندية الّا اولادها بمعزل عن اولاد الشرفاء والسادات . وبل كان الانسان يستطيع اعطاء بدلًا من الانطواء تحت لوائها غير انهُ قد تغيرت الحال . وصدر الامر بجمع العساكر من كل رتبة ونصاف ولا اذن بقبول بديل وان اعطى الدراهم الكثيرة والاموال الوفيرة . فاصبح اعيان ذلك الزمان من بعد كان قد اصابهم من الذل والهوان من جرى تلك الثورة عليهم وانحطاط مقامهم مجبورين على تسليم اولادهم للجندية وان كان الولد

قد نمتع بحق البكورية على ما امتاز بهِ ذلك الزمان من
ان الولد البكر هو الوريث المحض وعليهِ تعلقت امال
عائلته كلها وكان ممثل جميع اعضائها . فعندها رايت حقًا
امورًا انبأت عن حب الاخوان في ذلك الزمان فما وقعت
القرعة على الولد الاكبر الاَّ وقد نهض اخوهُ الاصغر .
وان حديثًا في السن وقدم ذاته بدلاً عن اخيه . هذا ولم يكن
الاكبر على ما قل من الحب نحو اخيهِ بل قد تنزل لهُ عن
حق البكورية وقدم ذاته طعامًا للحرب ولم يشاء ان يقع
اخوه بما عليهِ قد رتب . واحسرتاه على امهات ذلك الزمان
لا سيما من الشرفاء والاعيان فقد كانت سلبت من هولاء
الاموال وضبطت الارزاق وقد ادوا الظلائم . ودفعوا
الغرائم . وانخفض منهم المقام . وانحط الشأن بسبب تلك
الثورة الملعونة وها انهم قد خسروا الان البنين مع الاموال
فصاحت الام يا ابناه لا تذهب يا ولداه الى الحروب .
وان حلت بنا كل الخطوب . كيف نترك ابًا شيخًا قد
رباك . واما حملتك في الحشا وارضعتك الثدى

فقال يا اماه: ان لم اذهب ذهبت منكم الراحة ·
وسلبت النعمة. واضمحلت العائلة. وخربت المنازل ·
دعيني اكون فدية عن الاخوان والوالدين. وان ذقت
مرار الحين

قالت والداه انجُ بنفسك ولا اسف على المال والعيال
ولا التفات الى الراحة والسلام. فرَّ هاربًا واذا ما نجوت
خالصًا طاب عيشنا. وكانت بذلك راحتنا. فخفت علينا
الاثقال. واحتملنا البلايا كل الاحتمال. اذا ما فزت بالنجاة
يا موضوع الامال ورأسمال اللآل

وكان في ناحية قصر جليل وراء ذلك البستان
الجميل دار عميق نافذ الى الوادي وقد علاه جبل عالٍ
ابتنى من صخور شامخة قد تخللتها الاشجار القديمة الايام
فصدتها عن الاقلاع من امكانها فما نظرت العين الى
ما يسرّ الفواد من اشجار البستان وريحانه والى اسه
ووروده وما تخلله من الاقنية والحياض الّا قد اقشعر
الجسم من هول تلك الوادي وما علاه لاسيما تلك الصخور

المرتفعة الموشكة على الاقتلاع كانه داهية عظمى قد تهددت ذلك الوادي وكم قد انقطع منها من القطع الجسيمة فتدهورت حتى شاطي البحر فتالف منها سلسلة اكام ردمته فخلتها قلعًا حصينة او اسوارًا منيعة قامت او صدًّا لمياه البحر عن اقتحام الغارة او منعًا لهذه من ان تقع فتسد الاباحة

ومن جملة هذه الصخور الهائلة صخرة سادت على جميعها جسمًا وعلوًّا وقد رفعت راسها نحو الغمام . وتقدمت في البحر الى ما قدام . ولاما يربطها بالقارة الّا احد اطرافها الضيقة فما نظر الملاحون الى هذه الصخرة افة السفينة وضربة الركاب الّا وقد سرت الرعدة في اعضائها خوفًا على مركبتهم فلذا قد نصبوا فوقها تمثال نجمة الابحار لتوقيهم من الاخطار . على ما تقدم منا القرار . في بدء هذه القصة العجيبة والملحة الغريبة

فالتزمت راكب البحر الى نحو ملكة الابحار السائدة على تلك الاقطار . وقال قينا شر الاخطار ليلاً ونهار .

فتعرضت تلك الصخرة لتلاطم امواج البحر كتعرض البطل الصنديد الى رحى الحرب وقد تخللها فوق اعلى وسطها مغاراتان عميقتان كانهما اعين اسد ريبال زأر فارعد الامواج العجاجة ولاما ياوي تلك الكهوف الأعصافير السماء خوفاً على انفسها وفراخها من انقضاض الباز وقنص العقبان فاوى العصفور ليلته واذا ما اصبح الصباح صار يسترزق من فضل ربهِ وما رجع الى ماواه الأحنوًا على ثمرة احشاءه او ليصرف ليلته فيامن على نفسه من بلايا دنياه

فكثيرًا ما كانت تقصد جليلة واخوها جميل ذلك المكان المختص بسيدة الاكوان فتستقر بهما السفينة هنالك والشمس قد مالت الى الغروب فيصرفان الاوقات بحبور وانشراح الصدور . وانها لاجمل فرصة على قلب جليلة المزدانة بكل فضيلة . لتحيي ام الرجاء بالسلام . وتلتمس شفاعتها لدى العلي العلام

ولما كان احد الايام وقد حضرت الى هنالك . خالت مما لاح على وجهها من الامارات بانها فريسة

النهالك . فضاق منها الصدر وقد غطى الظلام . بهاء ذلك المحيا البسام . والفكر بانشغالٍ والقلب بخفقان . والعينان للدموع تسكبان . فالتفت اليها جميل وقال

ما هذا ايتها الحبيبة وما قد الم بفوادكِ حتى تغيرت منكِ الاحوال

اجابت : يا مهجة الفواد . وسلوى الاكباد . ان ما بي من الاكدار . لو الم بالحجار . لتفتت وتناثرت غبار . لكني رجوت ملكة السما ان تنظر الينا بعين الرضا

قال ولِمَ لا تفصحين بمقالكِ . وتعربين عما بدا لكِ . وقد تكدرت لاكدارك . وحزنت لاحزانكِ

اجابت : لا بارك الله بيوم تصدعت فيهِ اسماعنا من تلك الاخبار . المقصرة الاعمار . فقد رشقت قلوب الاهل بسهام جارحة . ورماح طاعنة . انما قد بلغك صدور امر نابليون بجمع عساكر جديدة لا يستثنى منها شريفًا ولا اعيان وان كان عين هذا الزمان بل قد اجبر الجميع من رفيع ووضيع ان ينطوي تحت لواء الجندية ولا يقبل بديلاً

عن انسان ولو اعطى المال بالميزان بل وانهُ لا يفرق بين من قد بلغ اشدهُ او لم يبلغ اذ قد تاكدنا بان كثيرين من الشبان قد اجبروا على نزول الميدان ولم يبلغوا السن المعلوم. فلذا قد حزنت شقيقتك وتكدرت وانّت وشكت وذهبت مني الراحة وانسني القلق وخسرت لذة الوسن واكتحلت عيناي السهاد. فتارةً كاني بك قد وقعت بايدي الظلام. وبالغوا منك بالانتقام. وحيناً قد نزلت ميادين الحروب. ومواقع الخطوب. ففجر السنان قلبك ومزق الرصاص كبدك. ومرةً قد وقعت عن ظهر الجواد فداستك الفرسان. وتناثرت منك اللحمان. ووقتاً قد ضربتك البيض الحداد فتجندلت قتيلاً في المهاد

فعندها التفت جميل اليها وقال: ما هذه الاوهام. وهل تشغلين افكارك بالاحلام. فكيف تعلمين باني قد ذهبت الى الحروب. وقد حلت بي الخطوب. افما تعلمين ان امري قد تعلق على القرعة وهذه ثمرة التقادير الحاكمة بنا اجمعين. فالقرعة عمياء فترشق بنبلها فقد تصيب او لا

تصيب فان اصابت فلا دموعكِ تنجيني ولا بكاك يوقيني وان كانت لا تصيبني فلمَ تنوحين ولاحوالي تندبين افما تكونين عبثًا قد تكدرتِ . وباطلًا حزنتِ . فدعي الامور تجري مجراها فقد حكمت التقادير بالبشر اجمعين فان فلحوا فصدفةً قد فلحوا وان سقطوا فموكول سقوطهم لمقدر لا يمحى

فالتفتت اليهِ جليلة وقد لاحت على وجهها علامات الغضب وقالت ما هذا المقال وكيف قد تفوهت بالمحال افما قد تعلمت اصول الدين وعرفت بان امرنا اجمعين بيد سيد العالمين الاله الواحد الاحد الفرد الصمد الذي بيدهِ الكل واليهِ المصير فقد دبر بعنايتهِ الاكوان وساس الانسان فارادته العلية حاكمة على البرية . افما اننا نناديهِ صباحًا ومساءً قائلين : ابانا لتكن مشيئتك على الارض كما في السماء

قال : دعي هذا المقال . ولا تفوهي بالمحال . ان المقدر كاس لا يمحى ومتى وقع القدر اعمى البصر . فلا

مناص ولا فرار . فبالصدفة الى العالم اتينا وبالصدفة فيهِ نعيش وبالصدفة الى ترابهِ نعود . فقد حكمت علينا التقادير . فباطلة هي التدابير

اجابت : لله درك من عالم قد خاض وحول علوم اهل الفساد واوباش العباد . قولوا لنا يا ايمة قد توغلوا باوهام العصر ما هي التقادير وهل لما تدعون ذاتٌ ام وجودٌ . فما هي الصدفة وما هو المقدَّر ومن قد حتم بالامور هل مقدركم عاقل يعقل او عليم يعلم ام يدرك ما اليهِ تنسبون من التصرفات . ورشق سهام الضربات وصواعق الافات . اعلم ايها الحبيب ان التقادير الفاظ فارغة فانها اسماء لا مسمى لها . واوهام لا اس لها . فالله خالق السماء والارض مدبر الاكوان . وبيده ذمام الانسان . فقد فعل ما شاء . فدع خرافات ملأْت بها اذهانك واطرح تعاليم اهل الفساد واعترف بالحق . واعتمد كلام الاله الصدق . ولا تثق بالخلق ان فاهوا بما لتعاليمه الالهية قد غاير وقد بني على الكذب والباطل

قالت هذا وقد ضاق منها الصدر. فخلتها في يوم الحشر. فلما راها جميل على تلك الحال. وقد تغيرت منها الالوان التفت اليها وقال. ياشقيقة الروح والفواد نشدتكِ بما ازدنتِ بهِ من التقوى ان تبتهلي لاجلي لاله السماء فينيرني بانواره السنية. فاستسير بموجب ارادته العلية. فصلي لله لاجلي واريحي افكاركِ لنحوي. فعليه توكلت فانهُ حسبي ونعم الوكيل

فما سمعت جليلة من فم اخيها هذا الكلام. الاَّ وقد تبددت عن وجهها غيوم الظلام. وقالت حمدتك ربي على هذهِ الانعام ورفعت الحاظها نحو تمثال نجمة الابحار. وسيدة البشر. رافعة ايدي الابتهال. واذا قد خطر لاذهانها بالحال ان قالت لجميل

يا حبيب الفواد انروم راحتي واسكان هواجسي

اجاب: كيف لاا روم واني لباذل بحبكِ الحيوة. فاطلبي ما تتمنين. واسألي ما ترغبين

قالت انعدني وتقوم بالوعد. فبانجاز وعدك كمال

السعد . واخذت يده والقتها على قلبها المتقد اشتعالاً
وقالت اقسم لي يميناً يمكنني من وعدك الصادق

فصرخ جميل بالحال . والقلب منه يجب شقيقته
ولهان . اقسمت يميناً مبرمة اني لما ترومين رائم . ولما
تطلبين للنفس باذل

فسر منها الفواد . وشكرت رب العباد . والتفتت
اليهِ وقالت

ارفع الحاظك الى ما فوق ورَ تينك المغارتين
داخل هذه الصخرة العالية . دونك وان تاويهما مدة من
الزمان الى ان تزول المخاوف . فان اويتهما نجوت من
القرعة ورفعت من قلوبنا الاحزان . واني لموقنة بان المدة
قليلة على ان اهل الدراية واولي العقول الثاقبة قد ارتأوا
بان احوال نابليون قد مالت الى القهقرى وقد غاب كوكب
سعوده . فارح فوادنا واصغ الى سماعنا . فبذلك راحتنا
وبهِ سعادتنا . لاننا اذا ما تاكدناك خارجاً عن ميادين
الوغى كنا من المغبوطين . افما بجمالك حبك لنا ان ترثي

لحالنا . اتنسى امًا حملتك في الحشا وأبًا قد طعن سنًا وبك قد وضع الامال . افما تشفق علينا وقد رايت الشبان قد ذهبوا فريسة الوبال في ميادين القتال . فلم يرجع منهم انسان

اجاب : ان حبي لكِ وللوالدين يحملني على احتمال الحين . لكن كيف التوصل الى هذه المغارة وقد علت علوًا قاصيًا

قالت : انك تتوصل اليها من فوق الصخرة بحبل تربطه في وسطك فتقبضه الرجال . فما انت الاَّ داخل المغارة في الحال . واننا نلقي اليك الفراش وبعض الماكول والمشروب . ولا غرو انك لواجد داخلها عطفات كثيرة وخفايا تسترك حتى وعن اعين داخليها . وفي كل ليلة ناتيك بزاد . فاذا القيت الينا حبلاً من فوق ربطنا الزنبيل بذلك الحبل وسحبته اليك

اجاب : ان الحب قد اكثر منكِ الحيلة . لكن نرى من يجسر على الاتيان الى ههنا والليل قد اظلم والبحر قد

اضطرب

قالت : اني بحسن تعليمك قد تمكنت من ركوب السفينة وضرب الجذاف . فاذا ما كانت ليلة رايقة جئت اليك لامحالة . واذا هاجت الامواج جاءك غلامنا بالطعام . افما انك تعهده اشجع الشجعان . لايبالي باخطار البحار . وان تكسرت السفينة على الحجار . ولا يعلم بهذا الّا والدي وحده ونقول لوالدتي انك قد سافرت بحرًا الى الجزائر القريبة فاواك احد اعيانها الشهيرين لدينا

قال : افدتِ عما بهِ الفائدة . لكن اينكِ عن الاضرار والخسائر . افما تعلمين انه اذا ما تاكد الفرنساويون باني قد فررت من الاوطان هربًا من الجندية وشوا بحق والدي الى الملك فنسي ونسوا ما لوالدي نحوهم من المعروف فانزلوا بنا المصائب . فضبطوا الارزاق وسلبوا الاموال . وشددوا والدي بالوثاقات . واذاقوه مر العذابات . افما قد بلغكِ ما قد حلّ بالاعيان من المصائب . وما قاسوه من المصاعب

قالت: خلِّ الدار تنعي من بناها وفز بالنجاة. فاذا ما اطمانت افكارنا لنحوك. تدبرنا بما بهِ الصالح فحسبنا غبطةً افتكارنا بان جميلاً ما زال في قيد الحيوة. واعلم ان هذه الحال لاتدوم. فثق بكلامي وان قلّت ثقتكم بكلام النساء. ان حال الملك على زوال وقد افل نجم السعود لان البابا بيوس السابع مسجون ومن مس البابا قد اضرّ بنفسه وكان سبب خراب بيته. واسفاه على حال اب المؤمنين فانّى لي ان اصف ما لم بفوادي من الاحزان لما اصابه

اجاب: لعمري انتنَّ معاشر النساء متى مُس اكليركي باطراف ثوبهِ شققتم الجيوب واذرفتم الدموع وناديتم اضطهادًا اضطهادًا وانذرتم بوقوع المصاب وان الكرة قد تحولت عن دورانها وفتحت ميازيب السماء وغرق الارض طوفانها. تقولين ان البابا مسجون وما المانع من ذلك وما الذي تعلمنه انتنَّ معاشر النساء من الاسباب السياسية الموجبة سجنه

قالت: يا شقيق الفواد قل ما تشاء فاني عالمة بانك

من المعارف على جانب عظيم وانك من الماهرين بامر التاريخ . نشدتك الله راجعنَّ صفحاته افما انك ترى بان كلما سطت دولة على البابا انكسرت شوكتها وكل امة حاربتهُ اضمحلت قوتها وان كانت في اوج العلا

اجاب : دعيني من كل هذا . فاني فاعل ما ترومين واجريت ما عنهُ قد تكلمتِ واليهِ قد اشرتِ من امر اقامتي في وكر العصافير فتخابري مع والدي بذلك واني لامره من المطيعين وها اني قد اثبت لكِ وعدي بالقسم فاني بعهدي افي وان كنت قد عجلت بالوعد . قال هذا وضرب المياه بالمجذاف فسارت بهما السفينة الى مقرها عند حافة بستان قصره

ولما كان المساء وقد ذهب كلٌّ الى راحتهِ اخذت جليلة والدها على انفرادٍ وقصت عليهِ القصة وما كان من مقصدها من اختلاء اخيها في تلك الكهوف

فاخذ جليل يمعن النظر ويتفكر وكلما ازداد امعانًا ازداد حيرةً واندهالاً . فلم يعلم كيف يقرّ رايه على ذلك

المقصد الحميد بذاتهِ . غير انهُ قد غُرست في طريقه الاشواك اذ قد افتكر جليل وقال لعمري كيف يتوصل جميل الى تلك الاعالي وكيف نبعث اليهِ بالماكول والمشروب اذا هاجت مياه البحر واضطربت . ومن يعلم اذا ما دخلهُ سئمته روحه من الغد او لشدة الامطار والزمهرير اعترتهُ اسقامٌ طرحتهُ في الفراش . فمن ذا الذي يعيل بهِ ومن يداويه . وكيف نعلم بحالته وانى لنا التوصل اليهِ . واذا ما سلم من مثل هذه التهالك اهل يسلم حسد الواشين انما يعلم بهِ بحري رآه في باب ذلك الغار في اثناء النهار . لعمري كلما تأملت هذه الحال شقت عليَّ وازداد بلبالي فاني ادعهُ يخوض ميادين الوغى فتظهر شجاعتهُ وتعلن بسالتهُ . ويشتهر بين الفرسان من ان يصبح فريسة الوبال داخل تلك الاوكار

لكن جليلة لما كانت تحب اخاها كل الحُب ولعلمها ان اقامتهُ في تلك الكهوف اسلم غائلة وايمن عاقبة اخذت تقنع والدها بتنفيذها مرغوبها وان بسواه هلاك اخيها

وخراب دار ابيها

فاذعن ابوها الى رايها غير انهُ اعترض عليها قائلاً: ترى من ذا الذي يستطيع ان يوصل جميلاً الى ذلك المنفى ومن ذا الذي يعوده في خلوتهِ ويذهب اليهِ بما لزم لراحة معيشتهِ

اجابت مولاي لا تقلق منك الافكار ولا يروعك هول ذلك المكان . فانني متوكلة على رب العلا ولا شك انه يسهل طرقنا بشفاعة سيدة البحار . السائدة على هذه الاقطار . واني لواثقة بان غلامنا امين . من اصدق المحبين . لاسيما اذا ما علم بان ما نبتغيه قد تعلق بجميل . فانه لا يبطئ عن اجراء اوامرنا وان قاسي مر الاهوال . فدعني اذًا اذهب الان واسعى معهُ بما وافق الحال . فبارك منا الاعمال وقد ابتهلنا لام الرجاء فلا تخيب لنا امال .

قالت هذا وذهبت تطلب خادمها امين . وقالت لهُ ياخير المحبين والخدمة الصادقين . انقوم بما عليهِ قد اعتمدنا . ولعنايتك فوضنا

قال مولاتي امري بما تشائين . فاني لامركِ من اخص المطيعين

فانبأته بما كان من الراي والاعتماد من اقامة اخيها في ذلك الغار . فنهض في الحال . وسعى بالسكك والحبال . وجاء بها الى اطراف البستان . وقال لها ولاخيها هلمَّ بنا الى ذلك المكان . لعلنا نستطيع الانحدار . الى ذلك الغار . بدون ان يعلم بنا حاسد . وترانا عين مبغض

قالت لعمري هذا ما كان والدي يخشاه ولاعتمادي على نصحك اقنعته بانه لايعلم بنا انسان بل اننا نذهب الى ذلك المكان . فنبتهل اولاً الى سيدة الاكوان . ثم نسعى باحذارك يافتى الى تلك المغارة فترى ان كانت تصلح للمأوى

فلا تخف النزول الى هذه المغارة يا فتي ولا تضحكوا يامعشر الرجال من ضعف الامرأة فانها اذا ما احبت . اشتدت فوق شدة الاسود . فاني بحول القدير المتعال . قديرة ان امسك الحبال وحدي . فاعضدك الى ان تبلغ

من المغارة المقصود . والينا بالسلامة نعود . قالت هذا واشارت اليهِ ان يعلم جميل بما كان . فاطاع لامرها ورجع اليها مصحوبًا بجميل وخرجوا جميعًا من البستان . والقوا السكك والحبال داخل السفينة وحركتها المجاذيف فما عاد طرفك اليك الاَّ كانوا قد وصلوا لدى تلك الصخرة فصعدوا الى حيثما ركز تمثال نجمة الابحار وضربوا السكك بالصخرة وجثوا لدى اقدامها رافعين ايدي الابتهال . وصرخت جليلة من قلب كليم قائلةً : ياسيدة السماء والارض يامن قد علوتِ قدرةً فوق الملائكة والبشر . شدّدينا بالقوة فنمكن هذا الفتى من الانحدار . الى هذا الغار . حيثما يلبث عبدكِ جميل ملتجئًا في حماكِ فينجو من الاخطار . فلا تخيبي لنا امال . يانجمة الابحار . فكم من سفن اوقيتِ . ورجالٍ انقذتِ من اليم . فازيحي عن فوادنا غيوم الهم والغم

قالت هذا وبادرت واخاها الى الحبال وشدّوا من ذلك الفتى الحقوين وانزلاه نحو تلك الهاوية وهو

اذ ذاك قد تمكن بها بيديه ورجليه ولما صار قبالة ذلك الغاب واللجة تحته عديمة القرار حرك الحبال. اشارةً بان يقفا عند تلك الحال . وداس برجليهِ باب الغار . واعتق نفسهُ من ذلك الوثاق واخذ الزناد وقدح . وقدصاح في تلك المغارة وصرخ . واشعل الشموع واذا دوت تلك الكهوف دويًا ارعد منهُ الفؤاد . وفتتت الاكباد . وظنهُ يوم المعاد . فلما رأت تلك الطيور النور قد اضاء في خفايا تلك الظلمة المدلهمة خافت على افراخها فصاحت وضجت وصدى الصخور مع دوي الامواج اوقد نيران الهواجس في قلب ذلك الغلام . ولما هدأ روعه وسكن جزعه طاف ذلك المكان . وحققهُ تحقيق العيان ثم بادر الى الحبال فشدّد بها حقويه واشار الى منقذيه ان ينشلاه في الحال . فرفعاه بدون مطال . واذا بهِ قد لاحت منهُ التفاتة نحو تلك اللجة فكاد يغيب عن الصواب اذ رأى نفسهُ بين العلا . والهوتة السفلى . وبينما هو على تلك الحال . كان منقذاه قد رفعا الحبال . فصار فوق اعلى تلك الصخرة

فانطرح حالاً على اقدام سيدة النجاة مؤدياً الشكر على ما اولته من النجاة واخذ يقص لجليلة واخيها ما عاين فقال: ان المغارة كبيرة شاسعة كاد المرء ان لا يعرف نهايتها غير اني تاكدت ان بها فوهتين من جهتيها فلذا يتلاعب فيها الهواء فيضمحل منها الرطوبة ويزيل العفونة. وفيها عطفات كبيرة بناحية عن ابوابها حتى اذا ما اوقدت فيها النار لم يرَ فيها نوراً من كان في الابحار. فسر جميل لهذا الوصف اذ انهُ كان مغرماً بالكتابة والمطالعة فتمكنهُ تلك الخلوة من ايقاد النار وشعل المصباح فيهذ في كتبهِ ليلاً ونهار

وعندها حمدوا رب العالمين. وقدموا الشكر لسيدة العلويين والارضيين. وركبوا السفينة ولم تمضِ لحظة الاَّ وقد صاروا في اطراف بستان القصر فدخلوه في الحال. وذهبت جميلة تخبر اباها بما كان. فسر منهُ الفواد وحمد رب العباد على تلك النعمة وقال لها اكتمي ذلك فلا يعلم انسان بما هنالك

فاجروا امره بدون مطال . ولما كانت الليلة المقبلة
رام جليلٌ ان يمتحن الامر بنفسهِ فذهب بمعية ولديه
والغلام فسارت بهم السفينة الى المحل المقصود ولما
صعدوا الى اعلى الصخرة ابتهلوا الى سيدة السماء بتوفيق
المسعى

وانزل جليل وولداه ذلك الغلام الى المغارة ولما تمكن
من الوقوف عند بابها اشار اليهم فاوقفوا الحبال . واخذوا
ينزلون اليهِ الفراش وادوات النار والشموع والمصابيح
والزيوت والمواكيل والخمر العتيق والجديد والملبوس
والمفروش ولم تترك جليلة شيئًا يحتاج اليهِ اخوها في منفاه
الَّا قد جاءَت بهِ حتى الابر والخيطان

ولما كان وقتئذٍ قد مضى الشتاء ببردهِ . وجاء الربيع
بوردهِ . وقد حان الزمان الذي يصلح فيهِ جميل للقرعة
اخذت تلح على ابيها وتستحلفهُ ان ياذن باحداره الى ذلك
الغار منذ تلك الساعة ولا يوجل اختلاءه دقيقة . بل ولما
كانت متقدة الحشاء حبًا نحو اخيها سألت والدها ان

يأذن بانزالها الى تلك الكهوف لتقف على حقيقة الحال . وتعلم بما داخل تلك المغارة حتى اذا ما ابتعدت عن اخيها تتهياه باذهانها وتشغل افكارها بهِ وهو على تلك الحال . فانكر ابوها عليها طلبها وقال : اذا ما اصبحت بين الجو الاعلى . واللجة القصوى . غشي عليكِ في الحال . فلا نعلم ما الذي يحل بكِ من الوبال

وفيما كان جليل وجليلة في نزاع وجدال . كان الغلام قد كنس المغارة وفرش المفروش ووضع كل شيء في مكانهِ حتى اذا ما جاءت الساعة ونزل جميل الى خلوتهِ رأى كل شيء في محلهِ وجاء بعد ذلك الى باب الغار وتشدد بتلك الحبال . واشار اليهم فانهضوه في الحال

فقد سر جليل لما عليهِ قد اعتمد غير انه رغماً عن طلب جليلة ما زال يحاول الامر من يوم الى يوم ويوخره من ساعة الى ساعة بدون ان يأذن لولده بملازمة تلك الخلوة

هذا قد استولت على قلب جليل جيوش الهموم وسحائب الغيوم فضاقت منهُ الصدور . واصفرت منهُ

الالوان كانهُ من سكان القبور. فكلما تفكر بامر ولده وثمرة اكباده اشتد بهِ الحال. فنخلتهُ قد مال الى الزوال

فلحظت زوجتهُ ما كان من امره ولما كانت تخشى ان تساله لمعرفتها اخلاقه انتهزت الفرصة واخذت جميلة ابنتها الى مخدعها وشرعت بما عزَّ لديها تخدعها وقالت لها اني ارى والدكِ قد اصبح فريسة الهواجس ولا علم لي بامره وقد رايتكِ معهُ تختلين وبامور خفية تتحدثين فانبئيني يا ولداه بصحة الحال. ليهدأ مني البال. اذ قد امسيت على اعظم هم وبلبال

اجابت جليلة: يا اماه واسفاه على حال والدي المسكين انما يحق لهُ ان يحزن ويتكدر وقد طرأ على اذهانهِ ما يحير الفكر. فمعلوم لديكِ ان اخي جميلاً قد ناهز اشده واذا ما طلبت منهُ القرعة للعسكرية. اوقعتهُ باعظم بلية. وقد بلغكِ بان ملك الفرنسا و يهن قد الغى حقوق الاعيان وادخل في الجندية الشبان فلا يقبل بديلاً ولا يرتضي بمال. فلا نعلم كيف نوقي جميلاً من هذه التهلكة

قالت: توكلت على الله لاحول ولا قوة الاّ بالله فلا تجدي الهموم نفعاً فلمَ لا يتفكر والدكِ بطريقة يريح منا الافكار. وينقذ اخاكِ من الاخطار. اهل الاكدار تقينا من ظلم الظالمين

اجابت: فاذا ما لكِ الامر سلمنا نرى ما الذي تفعلين وماذا تباشرين

قالت: اني لمرسلة جميلاً في الحال الى جزاير البحر واوصيت بهِ عائلات شريفة في تلك الجهات قد صفت بيننا و بينهم موارد الوداد ولاسيما وان اكثرهم من الاقرباء والانسباء

اجابت: نعم ما ترتاين وحبذا ما تقولين لكن نرى من يهذا يحدث ابانا

قالت: لما كان والدكِ على هذا الحال من اكدار وهموم لا استطاعة لي على مخاطبته لكن اذا ما زالت عنهُ الاكدار لحظة. كلمته بما في فوادي واملت بانهُ يذعن لكلامي ويعتمد مقالي

اما جليل فلما لم يكن يذوق راحة من اكداره ليلاً ولا نهارًا وقد تاه بافكاره وتحير ولا يعلم على ايما شيء يعول خطر لاذهانهِ ان يقصد مدينة صافونا عساه يحظى بمقابلة بيوس السابع الحبر الجليل المسجون في تلك المدينة بامر ملك الفرنساويين

فلما كان نابليون قد امر بالقبض على حبر الاحبار ونفيهِ الى خارج رومية فارسله الى مدينة صافونا فاوى ذلك الحبر الجليل احد اعيانها فحاز حسن الاستقبال وبادر الى زيارتهِ شرفاءها نساء ورجال وشاركوه بالاحزان وقاسموه الاكدار. لكن لما توهم نابليون بان مثل هذه الزيارات تمكن البابا وات من قبول الكتابات وارسالها حتم اخيرًا بسجنهِ داخل دار الاسقفية ولم ياذن لانسان بالدخول اليهِ لحظة بل قد اقام على الابواب الحراس فمنعوا عن الدخول جميع الناس

فمع هذا عمد جليل على الذهاب الى صافونا ولما كان خليلاً للفرنساويين قصد والي المدينة والتمس منهُ

الاجازة بمقابلة قداسة ذلك الحبر الجليل ولو لحظة فاذن لهُ الوالي بذلك وادخلهُ الى دار الاسقفية فحاز المثول لدى حبر الاحبار وعيونه تسكب العبرات وينتهد الحسرات على حال ولده ومهجة فواده . فالتمس بركة قداسته لنفسهِ ولاهل بيتهِ. فاخذ قداسته يشجعه ويعزّيه وان يلقي على الرب الاتكال فانه تعالى ييسر الاحوال واخذ يشور عليهِ بما بهِ الخير. وما يقيهِ من الضير. ومنحهُ البركة لبيتهِ ولساكنيهِ فودع جليل قداسته وعاد الى الاطلال وقد تغيرت منهُ الاحوال اذ قد طفح فواده فرحًا وسرورًا وافعمت احشاءه بهجةً وحبورًا

فعلم اهل بيته بما كان من تغيير احواله وقد جهلوا الاسباب فعندها استدعت زوجته ابنتها جليلة وقالت لها : لاحت لي انها احسن فرصة تخاطب فيها والدكِ بامر اخيكِ

اجابت : ان ما قد قصدتِ فعلهُ فافعليه بالعجل فقابلت جليلًا زوجته واعلمتهُ بما خطر لاذهانها من

ارسال جميل الى جزائر ايطاليا فيلبث هنالك الى ان تزول الاخطار

فقابل جليل طلبها بطيبة الخاطر وصدق على كلامها واوعدها بانه لا تمضي برهة الاوقد اجرى مقالها فسرت ومنها الاعين قرّت فقال لها دونكِ الان وان تكتبي لاهلكِ هنالك والمعارف وتأتيني بهذه الكتابات فاسلمها لجميل لدى سفره الى تلك الجهات

فخرجت من عند زوجها في الحال وانباءت ابنتها بنجاح مسعاها وانها قد حازت مبتغاها وذهبت تختلي في مخدعها وتسطر الكتابات لاهل تلك الجهات توصيهم بمهجة فوادها

وفيما كانت ام جميل تنشغل بهذه الافكار ولم تعلم بما عند جليل وجاليلة من الافتكار وتصرف الليل والنهار داعية لولدها بتوفيق الاحوال كانت قواد الجيوش الفرنساوية وماموروا الجندية بمرورهم لدى مليكهم يعرجون على قصر جليل فيتلقاهم بالترحاب ويصنع لهم

المآدب الفاخرة والضيافات النادرة

ففي تلك الاثناء نزل في قصر جليل مامورون ولما كان المساء اخذ واياهم يصرفون الاوقات بالاحاديث ويتفاكهون بالاقوال وقد مضى من الليل ساعات ولم يكونوا تناولوا الطعام فالتفت جليل الى زوجته وقال لها ياجميلة قد مضى الليل ولم يتناول حضرة السادات زادًا ولا شك ان جميلاً قد تاخر عن الرجوع فلم يمكن ان ننتظره اكثر مما انتظرنا فمري الخدم ان يعجلوا بالطعام . وفيما كان يتكلم بهذا الكلام واذا بالغلام قد دخل وقال سادتي ان العشاء معدٌّ ان حسن لديكم ادخلوا قاعة الاكل .

فنهض ذلك الجمع وما جلس كلٌ في مكانهِ الاّ وقد ابرقت وارعدت ولما كانت جميلة من النساء التقيات رسمت جبينها باشارة صليب الخلاص فالتفت احد اولئك الفرنساويين نحوها وقال

ايتها السيدة لو علم علماء الطبيعة بهذه الاشارة لعدلوا عما اخترعوه من الادوات ردعًا لمفاعيل الصواعق

قالت ايها المولى حبذا لو عرفوا هذه الاشارة وجهلوا ما اياه قد اخترعوا لكان اليق بمقامهم واوفق لاخرتهم

فلما علم ذلك المولى بان مثل هذه تمس شعائر جميلة سكت في الحال . واخذ يغير المقال

فالتفتت جليلة الى زوجها وقالت لهُ . مولاي هل يعود جميل برًّا او بحرًا

قال : لا اعلم باية طريق يعود الينا لان السفينة ذهبت اليهِ والخيول بمعيتهِ

قالت : لعمري ان رجع بحرًا خفت عليهِ الوبال وها ان البحر قد هاجت منهُ الامواج ولا شك ان السفن في اخطار

فالتفت اليها احد اولئك القواد وقال لها ايتها السيدة لِمَ هذا الخوف على ولدكِ وهو من الفرسان الابطال . ولا يخشى مر الاهوال . فان رجع بحرًا فانهُ ماهر بصناعة البحر او برًّا فانهُ اسد ريبال . على اني في المرة الاخيرة التي نزلنا داركم ذهبت واياه الى الصيد والقنص فخلتهُ غزالاً يقفز

الربى والهضاب . فلا تلحقهُ الخيول السريعة السير ولا اعظم الرجال . فلا تخافي عليهِ ضيرًا فاني متاكد بانه من السالمين

قال جميل وقد سرّ بفنع هذا المقال ليوهم لاولئك القواد حقيقة واقعة الحال. ويطلي عليهم المحال. مع هذا لا باس اذا ما ارسلنا احد الغلمان الى نحو الجون علّه ياتينا بخبر رجوع السفينة

وفيما كان يتفوه بهذا المقال . واذا قد دخل عليهم احد الخدام وقال لهُ مولاي قد وصلت السفينة الى الجون وغب لحظة يمتثل قائدها بين يديك وما اتم كلامهُ الاَّ وقد حضر القائد وحيي الحاضرين بالسلام ومدّ يده الى جيبهِ واخذ كتابة يقدّمها لمولاه فما كان من جميلة الاَّ قد اخذتها من يديه وقالت لهُ ان النساء تروم ان ترى باعينها . فقال لها وان الرجال يرومون ان يسمعوا ما تتلو نساءهم فاتلي هذه الكتابة لنعلم مضمونها

فرفعت صوتها واخذت تتلو تلك الاساطير وقد

تغير وجهها بالاصفرار لان جميلاً قد ابان فيها عن توجههِ مع احد اقاربهِ الى احد الشواطي البحرية البعيدة من جينيفا غير انهُ قد اعتذر عن مباشرة مقصده هذا بدون اجازة والديه لان نسيبه لم ينتظر ليحرّر لهما بهذا الشان ولم يتركهُ يرجع اليهم

فاغتاظت جميلة كل الغيظ وقالت كيف يذهب الى تلك الجهات ولم يستاذنا وليس من عادتهِ ان يبتعد عنا بدون اجازة منا . لعمري كيف يمكنهُ الجولان في تلك البلدان بدون اهبة السفر وهو غير معتاد على مثل هذه المشاق واسفاه عليكنَّ ايتها الامهات قد سهرتنَّ الليالي وبذلتنَّ المجهود بتربية اولادكم واذا بهم بلحظة عين قد مالوا لوساوس الناس وتركوكنَّ فريسة الغموم والهموم

فما كان من احد اولئك القواد وهو من اهل الدهاء الّا وقد خامره الريب بامر جميل فالتفت الى جميلة وقال لها : ايتها المصونة نشدتكِ الله اعلميني كم لذلك الشاب الذي ذهب بمعيتهِ جميل ولدكِ من العمر

قالت انهُ من عمر جميل

فعندها نهض صارخاً لاشك انهما قصدا تلك الشواطي املاً بان يركبا احدى السفن الانكليزية و يفرّا من دخول الجندية غير اني اقسمت بما استكن في فواد الرجال من الحماسة وبراس الملك نابليون ولي نعمتي باني ما كنت من الرجال ان لم ..

فما قال هذا الاّ وقد رأيت جميلة قد غشي عليها فنهض جليل وجليلة اليها فنقلها الخدم الى مخدعها واخذ كلٌ ينشغل بما وافقها

اما اولئك القواد الفرنساويون فذهبوا حالاً الى مخادعهم وارسلوا الرسل يعلمون والي جينيفا بهرب جميل ونسيبه وقد حركوا همتهُ على بذل المجهود بارسال جماعة تتبعهما فتقبض عليهما حيثما وقعت بهما

في اقامة جميل في المغارة

فلما كان الغد رأيت قرية تالفت من منازل قليلة واقعة في مضيق في اسفل جبال ايطاليا الرفيعة الذرى قد دخلها رجال راكبين الخيول متنكرين بملبوسهم فضاجت اهل القرية وخافوا بل قد اندهلوا وتعجبوا من ان امكنة منفردة نظير اماكنهم وقد يعسر السير في طرقاتها حتى على ظبي الغاب قد حضرها اولئك الاقوام واخذوا يسالون ويستعلمون في اذا كان انسان رأى شابين احدهما كبير الجثة اسمر اللون والثاني رقيق الخصر اشقر الشعر ابيض اللون قد مرّا من هنالك . فجاء الناس واجابوهم قائلين ترى من ذا الذي يمرّ بهذا المكان والى اين يقصد الذهاب افما ترون الجبال العالية قد غطتها ثلوج مؤبدة ولا يسكنها طائر الجو ولا حيوان البرّ اهل انتم سكارى او بامركم حيارى لا تهتدون الى ما تفعلون

وفيما كانوا على تلك الحال من جواب وسوال حضر احد اعيان المكان مهنته الطب ويعلم من هذا الفن الفصد والتشطيب وقال من هم هولاء الرجال وما الذي يرومونهُ بقصدهم هذا المكان واني ارى اكثرهم قد تشتتوا في الوديان وغيرهم قد صعدوا اعالي الجبال اهل يرومون صيد الغزلان او قنص طيور الفلا. فالتفت اليهِ قومه وقالوا ايها المولى الجليل اهل تسالنا عن ذلك وانت جدير ان تُسأل فعليك اذًا ان تشرح لنا ما قد اشكل علينا. فاطرق الرجل طرفه في الارض ثم رفع عينيه نحو العلا وزعم بانهُ قد ذهب متفكرًا والتفت اليهم وقال

ان هذه من فنون السياسة فما ادراكم باعمالها وأنّى لكم ان تفهموا دقة افكار اربابها قد يمكن بان على جولان هذه الوديان يتوقف انتصار ملك الفرنسيس فان السياسة امرها غريب وحذاقتها عجيبة فتدرك ما لا تدركون وتعلم ما لا تعلمون

وفيما كان اولئك الرجال الاجانب يطوفون تلك

الجبال ويقطعون الاودية والتلال تايهين في تلك الاقطار كانت عمارة فرنساوية قد تالفت من سفن كبيرة وصغيرة حلت جونًا ذكرنا ان جميلاً ونسيبه قصدا الذهاب اليهِ . فرأيت تلك السفن ترفع راياتها وتخاطب بعضها بالاعلام ويذهب كبيرها ويعلم صغيرها . وفي طرفة عين قبضت على سفن الصيادين الراسية بتلك المياه وشدّت اربابها بالاغلال . فصرخ اولئك الاقوام وبكوا . وانوا واشتكوا . فهذا يقول ما ذنبي . وذاك يسال ما الذي فعلت . والايدي تصفعهم . والارجل ترفسهم . فسال الفرنساويون هذا وقالوا لهُ : ما اسمك يا فتى

اجابهم : اسمي امين ومهنتي طرح الاشباك

وقالوا لاخيهِ ما اسمك ياغلام

اجابهم : اسمي سليم ومهنتي صيد الاسماك

فصفعوا الاخر وقالوا لهُ : ما اسمك يارجل اصدق بالمقال . والاَّ ذهبت فريسة الوبال

اجابهم بأن الانين وقال : سادتي اسمي خليل . ومهنتي

احيك الزنابيل

فما فاه بهذا الأقدوشب اولئك الاقوام جميعًا عليهِ وشددوا منهُ الوثاقات وطارت السفن الصغيرة تنبي الكبيرة بانهم قد حازوا نصرًا وفازوا بالمطلوب وقبضوا على جميل وفاقًا لامر الوالي وما بيدهم من التعليمات

فاجابهم ذلك الرجل المسكين : ايها الاقوام خلوا سبيلي ودعوني في حالي ما الذي ترومون مني فاني ابو عيلة. دعوني اعيل بعيالي

قالوا : اننا قابضون عليك فتدخل الجندية

قال : ان الجندية على الشبان لا على ارباب العيال

قالوا : انما اسمك جميل

قال : كلا اسمي خليل

قالوا : اسمك جميل ابن جليل من اعيان جينيفا

قال : اسمي خليل احيك الزنابيل وقد سكنت في اخر ازقة هذه المدينة التي لا تستحق اسم مدينة

فهذه الحادثة في هذه الميناء والحادثة التي جرت في

وقت واحد في بقعة تخللت جبال ايطاليا الرفيعة الذرى
كانت عن دسائس اولئك القواد الفرنساويين الذين
تركناهم في قصر جليل فانهم اعلموا الوالي في الحال استنادًا
على ما سمعوه من المقال . وقد انطلى عليهم المحال . فارسل
الوالي حالاً الخيالة تطوف البراري والاقفار . واشار الى
العمارة ان تطوف البحار . قاصدة ذلك الجون لتقبض على
جميل وصحيبه فيما ان جميلاً كان منذ ايام قد دخل المغارة
وكان وقتئذٍ يصرف الوقت في خلوته تارةً متفكرًا في
وحدته واخرى ينشغل بتلاوة الكتب ولا نديم ينادمه سوى
الطيور وامواج الابحار العجاجة

اما جليل وجليلة فقد تفتتت منهما الاكباد على
فراق جميل لجهلهما حالته في تلك الليالي والامطار تهطل
والبروق تلمع والرعد يقصف ولا من يستطيع التوصل
اليهِ

وليلة هجر فيها القصر وذهب بهِ والده وشقيقته الى
ذلك المكان تستحق ان تذكر في التاريخ على ان سيولاً

عرمرمية غرقت الاودية والسهول ولايستطيع انسان ان يدنو من البحر العجاج ودّع فيها جميل والديه وشقيقته وذهب والغلام وجليل وجليلة الى المكان المعين وغب ان ابتهلوا امام تمثال سيدة الابحار احدروه الى تلك الخلوة وتركوه هنالك ورجعوا وقد اودعوا القلب معه

ولا اقتضاء لكيفية وداعه والدته فانها في تلك الليلة ضمته اليها والتفتت الى جليل وقالت لهُ اهل عولت على ارسال جميل الى احدى الجزائر البحرية

اجابها نعم في الغد يذهب الى جينيفا يودع اقاربه ثم يتوجه الى المحل المقصود

قالت : اهل يذهب برًا او بحرًا

قال : ان الخيول معدة والسفينة ايضًا فيركب ما شاء

فالتفتت الى جميل وقالت لهُ : يا حبيب الفواد قد حررت كتابات التوصية وسلمتها لوالدك اهل سلمك اياها

قال نعم وهي داخل خرج السفر

قالت ولداه لاحظنّ صحتك واجتنب الاماكن العفنة لان المياه كثيرة في تلك الاطراف وعليك ان تستسير بموجب الاداب ولا تعاشرنّ الّا من كمل فضلاً وحكمةً استودعتك الله ووالدة الخلاص ام الرجاء واعلم انهُ منذ عشرين يومًا نقدم الذبيحة في هياكل السيدة في صافونا وغيرها

قال يا اماه: اذني لولدكِ ان يستعلم منكِ هل ان السيدة واحدة ام متعددة

قالت: دع هذا المزاح الممقوت واحترم من وجب احترامها على جنس البشر اجمع واعلم انها ملكة وقد رامت الملكات ان يكرمنَ في كل مكان في مراتبهنّ الملوكية وفي الشوارع وفي البساتين وفي البراري. فام الرجاء ملكة السماء والارض تكرم في كل مكان اعد لتكريمها وتُكرم لاجل سماتها الجليلة فنكرمها تارةً بما انها ام فادي البشر واخرى بما انها ام الرجاء وغيرها لكونها سيدة الملجا وحينًا بما انها نجمة الابحار

فعندها التفتت جليلة الى اخيها واشارت اليهِ ان لا يمزح بمثل هذه الاقوال . اما هو فالتفت الى والدته وقال مولاتي توسلي لله وللسيدة لاجلي . واعطيني بركتكِ وامنحيني رضاكِ قال هذا وقبل ايديها فلثمت منهُ الجبين وباركته فاذرف دمعةً احرقت منه الوجنات لشدة مرارة الفراق ولكونه لا يعلم هل يرجع الى عائلته . ام يموت في خلوته . ام يقبض عليه الاعوان . فيستاقونه الى الحرب العوان

فقالت لهُ والدته : ما هذا يا جميل وما هذه الدموع

قال مولاتي كوَتني الشمعة فهطلت دموعي . قال هذا وذهب متوارياً

فذهبت جميلة الى مخدعها . فجاءَت جليلة واعدت لها ما يقتضي لراحتها . فقالت لها والدتها اهل اعددتِ لجميل ما يلزم للسفر من الملبوس والزاد

قالت : مولاتي قد اعددت كل ما يقتضي . ذوقي لذة الوسن ولا تهتمي

فخرجت جليلة في الحال . وتركت والدتها تغوص بحور الوسن ونزلت الى البستان فرأت جميلاً والغلام ينتظران

فقالت أهل اعددت ما يقتضي اعداده يا فتى

اجاب مولاتي قد اقمت بموجب الامر فلا يعوزني شيء والتفت الغلام الى جميل وقال لهُ

مولاي اننا اذا ما وصلنا الى المكان المعهود وضعناك فوق خشبة تعلقت بطرفيها بحبال وثيقة وقد احاطت بك سيور الجلد المربوطة بتلك الحبال فتقيك من السقوط اذا ما اتفق وفلتت يداك الحبال وهاك كلاَّباً تعلقه بباب المغارة فتستعين بهِ على دخولها ثم اذا ما رفعته من مكانه دعهُ عندك تحتاج اليهِ فيما بعد . وعب ان نكون وثقناك بهذه الوثاقات وضعنا في عنقك هذا المصباح وقد اخفاه ظرف احاق بهِ فادخل المغارة وارفع الظرف فيضيء المكان فتذهب الى ناحية تجد فيها مرتبة فوقها شمعدان فيهِ شمعة قد تغطى فتيلها بمطفاة فارفع المطفاة

واشعلها فتهتدي الى فراشك والامتعة وترى في عطفة وجاقًا عليهِ فحم وحطب فاشعل النار وغطها بالرماد حتى اذا استفقت صباحًا من رقادك طبخت قهوةً تشربها واني لمؤمل بانك ترى الفراش وما يعوزك في خلوتك على ما تشتهي من حسن الاعداد فينشرح خاطرك على عبدك هذا

وفيما كانوا على هذه الحال واذا بجليل قد وصل اليهم وقد سأت منهُ الاحوال فالتفتت اليهِ جليلة وقالت

مولاي ما هذا ولِمَ لا تتكل على العلي القدير وتتسلح بالشجاعة اهل تجدي الاكدار نفعًا . فلا تجزع ولا تفشل فودعنَّ الان جميلاً وباركه فنساله تعالى ان يوقيه في خلوته فضم جليل جميلاً اليه وقبله بين عينيه وباركه ودعا لهُ بالتوفيق

هذا والليل حالك مدلهم . وافئدةُ ذلك اللفيف افعمت همًا وغم . حتى لو سطع ضوء رايت جليلاً قد خارت منهُ القوى واصفرت الالوان واصبح فريسة الاهوال . فاشارت جليلة الى الغلام ان يفتح باب البستان فخرجوا منه راكبين

السفينة والامواج تلاطم الامواج والبحر هائج عجاج فساقها الغلام من عطفة الى عطفة ومن جون الى جون الى ان اوصلتهم الى اسفل الصخرة المعهودة فعلقها بها وقبض على ايدي مولاه وقبض جميل على ايدي جايلة وساعداها على الصعود الى اعلاه . فما بلغوا لدى تمثال نجمة الابحار ألا وقد وقعت جليلة امام ام الرجاء والامال فرفعت اكف الدعا وابتهلت ملتمسة شفاعتها لاجل راحة اخيها ثم نهضت من صلاتها وقالت لوالدها

مولاي لافائدة بالمطال . ودعنَّ جميلاً في الحال .
وانت يامهجة الفواد الثم الايدي الابوية . ودعني اقبل منك الوجنات وتوكل على اله الارض والسماوات فنحدرك الى محل خلوتك بأمن وسلام

ولما تم الامر على ما اشارت التفتت الى الغلام واشارت ان افعل يا فتى بجميل ما امرناك بهِ من ربطهِ بالحبال فنحدره الى الغار في الحال . ولم تمضِ لحظة الّا قد صار جميل لدى مدخل الغار فضرب الكلاّب واستعان بهِ على الدخول

ولما استقرت بهِ الاحوال انفك من الحبال واشار بها الى قومه فرفعوها اليهم فما لحق اخرها اولها الاَّ قد وقع جليلٌ وجليلة مغشياً عليهما لفراق جميل مهجة فوادهما

فبادر الغلام اليهما واخرج روائح استنشقاها فاستفاقا بعض الاستفاقة واخذ اولاً بايدي جليلة فانزلها الى حيثما السفينة فالقاها داخلها ثم رجع الى مولاه فنزل بهِ والقاه بجانب كريمته وحل المراسي وضرب المجذاف وساق المركبة فكانت في لحظة في جون البستان فرست مرساها فصاح بجليلة وقال

مولاتي للطبيعة حقوق استوفتها فاستفيقي الان وشددي منكِ القوى وارجعي الى حال الاستواء وراعي حالة ابيكِ وايقظيه وتسلحا بالشجاعة ولا تدعا الرعدة تتمكن من فوادكما . فمن سمات العقلاء الشجاعة في الشدة

فاجابته جليلة صدقت يا ايها الغلام . واحسنت برائك والكلام . فرفعت اعينها الى الاله القدير . فانه خير نصير . والتمست من لدنه القوة وقبضت على ايدي

والدها وقالت : ابتِ ها اننا وصلنا الى ناحية البستان نشدتك الله استفق من هذه الاحوال ولا تدع نفسك فريسة للاهتيال

قال والدموع سخينة مدرارة . يا للخسارة يا للخسارة ما الذي فعلت انا المسكين افما بيدي سلمت ولدي ولقد اكون قتلت مهجة فوادي وكبدي . ترى ما الذي يحل بهِ في خلوته وما الذي اصابه الان

قالت : ابتِ دع النوح والبكا وسلم الامر لاله العلا فان غفلنا فاعين عنايته ساهرة . فانهض بنا الان وامضِ الى مخدعك سائرًا الهوينا . ولا تدع اهل الدار يعلمون بنا

قالت هذا وسارت بهِ داخل البستان . ودخل الدار ولم يشعر بهما السكان . فذهبت بهِ الى مخدعه . واراحته في فراشه . وعندها التفتت اليه وقالت

حمدنا العلي الكريم على ما وفّقه من التدبير . واني موقنة بنجاح المسعى ولا غرو بان جميلاً قد نجى من ايدي الظلاّم . فعلينا اذًا ان نودي شكرًا لرب العباد . المالك

رقاب العباد . ونرفع اليه ايدي الابتهال . ليرمق الينا
ويوفق الاحوال . فلا تدع يا ابتِ انسانًا يعلم بنا فيطلع
على حالنا . فان اعين الحاسدين . وبواطن الماكرين .
لاقوى من حبائل الصيادين . فلذا رجوتك ان تصحو
وتفيق وتتسلح بالشجاعة والثبات فلا تلحظ عين رقيب
شيئًا من التغيير . فارقد وذق لذة الوسن حتى اذا ما
اصبح الصباح . واضا بنوره ولاح . استفقت وقد انتعشت
منك الارواح . وكنت على احسن حالة من الارتياح

حدثت جليلة بهذا المقال اباها . ونار الفضا قد
انقدت في احشائها . فنهضت مسرعة الى مخدعها
فانطرحت على فراشها وهي تأن الانين . وتبكي من فواد
حزين . وتقول لحى الله حربًا طعنت حرابها افئدة
الوالدين . ففضلا عليها جرع كاس الحين . لعمري ان
جميع افراح الغزاة وفتوحات الملوك المظفرين وما ينشا
عنها من المسرات والحبور لاتعادل بعض ما يقاسيهِ قائد
الجيش من الاهتمام والافتكار ليلة يشن في غدها الغارات

وتوقد نيران الحروب . هذا ما يقاسيهِ قائد لا يهمه من
الحرب الاَّ الانتصار . فما هواجسه وما افتكاراته وما همه
بالنظر الى ما يقاسيهِ فواد ابهات اولئك الشبان المعدين
لايقاد نيران الحرب العوان فضلاً عما تقاسيهِ امهاتهم
والاخوان والشقائق والقرينات وسائر الاهل والاقارب .
لحى الله حربًا اشتعلت نيرانها فاشعلت نيران الاحزان
في فواد اهلٍ ذهب اولادهم فريسة وبالها . أتنظرون لهذه
ايها البغاة وتفتكرون بعواقبها يا من ذهبتم فريسة الاطماع
فافترستم بني ادم وسقيتموهم كاس المنون . واخذت
تلك السيدة الكريمة تشغل فوادها بهذه وما شاكلها حتى انها
لولا عظم تقواها وشدة اتكالها على الله مولاها كادت تفارق
الروح حزنًا وقهرًا على حالة البشر هذه الشقية

اما فريدة فلعلَّها ولعلَّها كانت قد رقدت في فراشها
تحلم احلامًا نشأت عن حبها الاخ حاكى جميلاً خلقًا واخلاقًا
وتعلل نفسها باما ل علقتها بهِ ولقد علمت بان ما حبها
نحو مثل هذا الاخ الاَّ كان حبًا محضًا لجميل الذي تروم

ان تقرن يومًا ما حظها بحظه فيكون موضوع امالها في
الضراء والسراء . وتعتمد عليه في الشدة والرخاء . قد
اكتحلت يا فريدة جفونكِ بالوسن . ولا تعلمين ما الذي
جرى لجميل في ذلك الحين . سقيًا لكِ ان كنتِ ما
بذلك شعرتِ . ولا باحواله علمتِ

ولنرجع الان بالمقال الى ما كان من امر جميل
في الغار فقلنا انه دخل خلوته وانحل من تلك الوثاقات
غير انه ما استقرت بهِ الحال الّا قد كشف عن المصباح
وسار داخل الغار فلشدة هواجسه وحرارة مزاجه لم يهتدِ
الى مرقده بل ما زال سائرًا الى ان دخل اقصى المكان .
واذا بدوي قد دوى واجنحته تصفق في اعلاه فسرت
الرعدة في جميع اعضاه . وكاد يقع ملقيًا على قفاه . لشدة
ذلك الاهتيال . على ان الطيور الحالّة ذلك المكان لدى
مشاهدتها ضياء المصباح خافت وارتعدت وخفقت
اجنحتها وتطايرت فتلاطم بعضها ببعض وقد صادمتها
جدران الغار . وكانت ساعة تشيب الاطفال الصغار .

ولما كان الغلام قد اعلم جميلاً بما سوف يراه من هذا المشهد الهائل في خلوته . استفاق جميل من غفلته فطابت منه الاحوال . لدى وقوفه على حقيقة الحال

فرجع حينئذٍ الى الوراء واخذ يهتدي الى مكان مركن فاهتدى الى الشمعة فاشعلها وتقدم الى تلك العطفة فوجد ما يشعل النار فاشعلها فاستعرت ثم اخذ بعض الرماد من كيس كان الغلام وضعه هنالك وغطاها وذهب الى فراشه غب ان كان قد اخذ جرعة من الشراب ورقد راغبًا بالوسن

غير انه ما رقد الّا قد تراكمت عليه جيوش الهواجس فاستوحش لاهله والخلان وضاق صدره من ذلك المكان فاصبح على حالة من الكرب لم يذق مرارتها انسان

هذا وضوء الشمعة قد انعكس على جدران المغارة ولما كانت ذات عطفات كثيرة لم يخرقها الضوء لاح لديهِ ذلك الظلام اشباح تسطو عليه من الغار فارتعد وخاف واستولى عليهِ الارتجاف ولما كان على تلك الحال المشيّبة

الاطفال واذا قد تخيل لهُ ما يمكنهُ من حقيقة وجود
تلك الاشباح فانه كان في اعلى المغارة وعطفاتها كهوف
فانعكس نور الشمعة على بعض جوانبها فعاين داخلها
لمعانًا يقرب و يبعد يغيب ويحضر وسمع دويَّ اصوات
وعظامًا تقرقع وافواهًا تُفتح وتُغلق واشباحًا تختفي وتظهر
فتحقق في اذهانهِ وجود تلك الاشباح وانها لا محالة ذات
ارواح وان لابد لها من ان تسطو عليهِ ولاانيس يؤنسهُ ولا
مجير يجيره فبمن يستنجد واين المساعد والمنقذ . فانحلت
عزائمهُ وخارت قواه . هذا وامواج البحر تلاطم تلك
الصخور واذا ما تكسرت تصاعدت حتى باب الغار
فذاق من الرعدة امرّها ومن الكربة اشرّها . وما زال على
تلك الحال من لوعة واهتيال الى ان اهتدى الى امره
وعلم بان تلك الاشباح ان هي الاَّ جماهير طائر الليل قد
اوت تلك الكهوف فانعكست ضوء الشمعة على ماواها
فلمعت اجنحتها . وابهرت اعينها . فلذا رجعت تارةً الى
الوراء وتقدمت حينًا الى ما قدام فهذا من جميل الروح

من الارتجاف ولما كان قد اضنكه التعب وانهكه الوصب والليل قد مضى اكثره اذن للوسن ان يكحل جفونه فنام وهو يخوض بحور الاحلام

ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح استفاق جميل من رقاده وظن بنفسهِ انهُ داخل منزلهِ فما اهتدى الى حالتهِ الاَّ قد تدفقت الدموع من مقلتيهِ اذ راى نفسه داخل ذلك الغار الذي لا يدخله ضوء النهار فقال لعمري ما هذه الحال . وما ذا الوبال . اهل أُدفن حيًّا في لجة الظلام وقد احيت الشمس الكون بحرارتها واضاءته باشعتها فطرب الرعاة في مراعيهم . وضوء الفجر يضيء عليهم . وغرد الطائر على الاغصان . مسبحًا سيد الاكوان . والفجر بنوره قد جاء وسطع واضاء . فيا كوكبًا سيد النهار . افلا يخرق احد اشعتك سقف هذا الغار . فيحيا بهِ احد بني البشر . لحى الله حالة اصبحت فيها محفوفًا بجيوش الظلام وما انيسي الاَّ بحر عجاج . تتلاطم منهُ الامواج . وما نديمي الاَّ البوم فانَّى لي ان احيا اليوم

وفيما كان بهذه يتفكر . و بامره قد تحير . تذكر ما كانت قالته لهُ جليلة شقيقته حين الفراق اذ التفتت اليهِ والفواد منها قد احترق وقالت : يا جميل هذا اوان الصبر الجميل نشدتك برب العلاء الذي بسط الارض ورفع السماء . دونك ونصح نصوح : فارسم على صفحات فوادك بحروف لا تمحى كلمات بها قائم الانسان وهما الشجاعة والرجاء فارجُ ولا تقطع الرجاء واشجع ولا تجزع . فحينئذٍ تسلح جميل بالرجاء والشجاعة ونهض من فراشهِ في الحين والساعة وخلع عنهُ لباس النوم ولبس الثياب وكنس مركزه وطوى الفراش وما خطر وقتئذٍ اولاً في باله هو ان يفتقد مكان خلوته ليقف على حقيقة ما فيها و يطلع على ظاهرها وخافيها فنهض واخذ يجول في المكان فرآها مغارة كبيرة عالية السقف عريضة المساحة طويلة قد دخلها الهواء من نافذتين اصلحتا مناخها فلا رطوبة فيها ولا عفونة وعاين عطفات لاحت لديهِ في ليلتهِ الدابرة هوتاتٍ تودي الى عمق اللجة فسر فواده وابتهج لجودة مناخ ذلك المأوى

وما سار نحو اخرها الاَّ قد بانت لديه خلوتان اخربتان
وفيها تلك العصافير ولكل منهما نافذة تشرف على البحر
ومنهما خرقت اشعة الشمس بعض المكان فتمتع برؤياها
الحيوان فحياها جميل بالسلام . وقال حمدنا صانع
الاكوان . الذي اقامك كوكبًا للنهار. فضمحلت ادلهمام
الظلام . فحيت الطبيعة بحرارتك وانجلى الغم وزال الهم
بمرأى محياك البسام

قال هذا وذهب جائلاً تلك الخفايا واذا بهِ قد اشرف
على دهليز طويل غطته صخور تخللها نوافذ فسار داخله
طالبًا اخره واذا بهِ قد رأى صخورًا عالية سوَّرته لجهة البحر
وما بينها نوافذ كبيرة مكنت الناظر من مشاهدة ذلك
الافق الشاسع وما زال يقدم الخطوات حتى وصل الى
اخر الدهليز فكشف على بستان والده ورأى السفينة
راسية في الجون فطرب منهُ الفواد . واحتسب نفسه اسعد
العباد . واخذ يحقق النظر . وينزه اعينه بذلك المنظر .
فتهلل حبورًا . واوعب سرورًا . منعه من ان يرى مياهًا

كالزلال تجري في ناحية ذلك المكان . تروي غليل الظمآن . وقد طفح بها حوض حفرته ايدي الطبيعة الغريبة الصناعة فلما استفاق جميل من دهشته التفت فرأى ذلك المنهل الصافي فعمد اليهِ وسرح النظر فيهِ وذاق ماءهُ العذب فحمد المولى المنان . على هذه الاحسان . اذ لم يعد يحتاج الى ماء يحمله الخادم اليه

فعندها اسرع في الحال وجاء باناء ملأه من ذلك الينبوع الرائق ومضى طابخًا قهوة شربها ومال الى نحو الصندوق ففتحهُ فرأى فيهِ من الملابس والثياب ما كان كثير العدد وفتح صندوق الكتب فاخرج منهُ تآليف . هام بها غرامًا . فدق مسامير في جدران الغار وبسط فوقها اخشابًا صف فوقها تلك التاليف ونشر بجانبها خارطات تخطيط البلاد وجلس على مرتبة وقعد واخذ يقلب اوراق تلك التصانيف يطالع ما فيها ويستوعب معانيها

وكان جميل ذا قريحة جوادة ذكي العقل قوي الفاكرة غير انهُ لسوء الحظ لم يكن قد تعلم العلوم الصحيحة المبنية على مبادي

وثيقة تمكن العاقل من الوقوف على ينابيع الحق ومصدر الخير بل كان كأكثر شبان ذلك الزمان . وتلامذة العصر والاوان . قد درس العلوم في مدارس الكفر وتمسك بمبادي اوهن من بيت العنكبوت فلذا لم ترَ في كتب اصحبها الى خلوته الاَّ تآليف فولطير امام ايمة الكفر وتصانيف روسو وتعاليم فولني وغيرهم من اصحاب الاراء الوخيمة . والمبادي المفسودة . التي خربت نظام الاداب . وافسدت خصال الطلاَّب . فاستعاضوا عن الحق بالكذب . وعن الخير بالشر . وهلمَّ جرًّا من الخسارة والضير

فلو كان جميل تعلم في صغرهِ مبادي منطيقية صحيحة لما مال عن الحق ولا انطلى عليهِ الكذب فقد اعتمد مقال من لا يعرفون الصدق بل قد عمدوا على مبادي الشهوة والاطماع فخدعوا بها العقول وتستروا بلباس الحملان . وعلموا ما يذل الانسان . من علوم حطته عن مقامه الرفيع الشان . وجعلته بمنزلة ادنى الحيوان . فبدلاً من ان يرفع الحيوان الناطق عقله الثاقب الى العلا فيرى ما عظم وسما

غاص بحور الشهوات وبنى اراءه على مبادي اللذات فتاه
عن الصراط المستقيم . واصبح منهُ العقل ضعيفاً سقيم

فيما ان المبادي الصحيحة شأنها ان ترفعه الى غايتهِ
القصوى. وتنهضه الى حالته العليا. هبطت اليك من المحل
الارفع. وتنير بانوار اشعة شمس الحق فتستنير منهُ النيرة
الوقادة. ويستقيم القلب بحب الخير فلا يخبط خبط عشواء
على ما اتضح لنا من اقوام زعموا انارة الناس فاتوهم بتعاليم
الظلام وخدعوهم بفصاحة الكلام العاري عن الحجة والبرهان
فوبحاً ثم ويحاً للانسان . افما يكتفي شقاءً بحبس نفسه الناطقة
داخل جسم هاجت منهُ امواج الشهوات حتى استعان على
هذه البائسة المسجونة بفساد التعاليم وسوء التعلم والتعليم

ثم نهض جميل فوضع في عطفة يرى منها البحر العظيم ولا
تراه عين النظارة المعظمة واخذ نظارة اخرى يرقب فيها
الافلاك وسار حتى اخر الدهليز الذي يكشف على نواحي
قصر ابيهِ

فاجلس النظارة على دعائمها واخذ يعلل النفس بما

لذّ وطاب قائلاً : اذا ما كمنت في هذا المكان لحظت قصر والدي فرايت شقيقتي تنظر الى خلوتي من شباك مخدعها ولولا خوفي من ان يراني سكان قصر فاضل لصعدت فوق الصخرة وسرحت نظري في هذه الربى والمهاد. أفلا كانت فريدة تراني من داخل البستان. لعمري اهل تعرف من هذا الانسان وقد قيل لها اني ركبت البحر وسافرت الى اقطار بعيدة . ويلاه عليكِ يا فريدة الاسم والصفات . لاغرو ان دموعكِ تسكب العبرات على شقايق الوجنات . وما زالت منكِ الحدقات تسرح في الافاق وانتِ لا تعلمين ان جميل قريباً منكِ وقد احدق الحاظه بمسكنكِ . لا يهزاء بكَ يا جميلاً الخلي . ولا يعذلكَ العذول . فانك بشعائر فريدتك عليم . وان لم تكن من مصاف موسى الكليم

في حال جميل في وحدته

قلنا ان جميلا قد طرب فرحًا لتاكده بانهُ قد وجد طريقة يتمكن بها في خلوته من النظر الى قصر والده وقصر من احبتها نفسه وما احاط بهما من الربى والهضاب افتكر بذلك واخذ يسعى بما يحقق منهُ الامال فسار نحو اخر الدهليز واخذ يتامل مكانًا يرى فيهِ ما كان خارجًا ولا يراه انسان فالتفت في جميع اطراف المكان فراى في اخره صخرة علت جميع تلك الصخور وقد خرقها ضوء القمر لكنها عالية شامخة فحار بامره وارتبك وكاد يذهب فريسة القنوط والفشل لو لم يرَ في اعلى ذلك الصخر ثقبًا واسعًا مكنه من بلوغ المراد. فاخذ حبلاً ورماه في العلا فدخل في ذلك الثقب ونزل طرفه الاخر نحو الارض فتناوله جميل وربط الحبل ببعضه وصعد بهِ الى اعلى الصخرة فتامل تلك النافذة فكانت طبق المراد وحولها

مكان متسع يستطيع من اقام فيهِ ان يرفع قامته ويجول في اطرافه غير ان النافذة وان خرقها ضوء كوكبي الليل والنهار لم تمكنه من النظر الى ما كان يتمناه . فنزل في الحال واخذ زميلاً من خلوته ورجع يحفر بذلك الزميل جوانب النافذة الى ان كشف منها على تلك البطاح . فعندها اخذ بلورة عدسية غطى قفاها شمع اسود وركبها على تلك النافذة وسد ما حولها فحصر الضوء داخلها ورجع ملازمًا خلوته

ولما كان الصباح واخذت خلايق الله تسبح الله نهض جميل واصحب معهُ مرآة تكبر الاجسام وصعد بها الى حيث البلورة ووضعها وراءها واحناها قليلاً لتنعكس بها الصوَر واخذ يتاملها واذا بالبلورة العدسية قد ضربت اشعتها على المرآة فشخصت كل ما كان في تلك البطاح من قصر والده وقصر فريدة والربى والهضاب والحدائق والبساتين والمينا والبحر فطرب افراحًا وتهلل حبورًا وكانت ساعة مسرة كادت تجعله ان يغيب عن الحواس ولما

هذا اضطرابه اخذ يتامل ما في المرآة فراى قصر والده
واخذ ينتظر من يخرج خارج المخادع او يلتفت من
الشباك وفيما هو على تلك الحال واذا بكلب له كان
يصحبه في الصيد والقنص قد خرج من قاعة فوق سطح
القصر وهو عابس حزين كانه ذاب كمدًا على فراق جميل
مولاه فاخذ ذلك الكلب يلتفت يمينًا وشمالاً ويستنشق
رائحة الهواء ولا يهتدي الى مطلوبه. اخيرًا قام على رجليه
ورفع يديه في العلا والتفت نحو الصخرة ملجا جميل
مولاه ولم تبرح نصب عينيه وهو على تلك الحال كانه
استنشق هواء جاء برائحة مولاه

اما جميل فما زال ينتظر من يخرج من القصر فعيل
صبره وكل يلازم الجلوس داخل مخدعه اخيرًا اخذ
يخاطب جليلة في خلوته ويقول: يا شقيقة الفواد قد شقَّ
عليَّ فراقكِ وتفتتت الاكباد. أَلا من لحظة تنظرين بها
الى مأوى اخيكِ الذائب شوقًا اليكِ فاخرجي يا بهية
من خدركِ وانظري الى نحو جميل اخيك

ففيما كان يعلل نفسه بهذه الامال ويكلم الصخر الصم بهذا المقال . واذا بهِ قد امال طرفه الى ناحية المرآة فوقعت على صورة قصر فريدة وبساتينه وحدائقه وما احاط بهِ وبموقعه من الاودية والتلال

ولدى تامله ذلك المنظر البهي . والمشهد الزهي . وقعت الحاظه على بقعة خضراء احاطت وردها بحيرة كبيرة جميلة قامت في وسطها بركة على اربع زواياها حيتان كبار انفجرت المياه من افواهها واخذت تلعب في تلك البحيرة وفي وسط البركة حوض من البلاط السماقي الناصع الاحمرار قامت في وسطه نوفرة ذهبية عليها تمثال فتية بديعة الجمال . كاملة القد والاعتدال . وان هي الاَّ تمثال الزهرة اله الجمال . ومياه انفجرت من افواه الحيتان غسلت منها القوام والهام فعصرت شعرها بايديها وقد انعكست عليها اشعة شمس النهار فتساقط الدر والمرجان . والياقوت الساطع الالوان

وكانت على حافة البحيرة شقوف الزهور المختلفة الاجناس والمشكلة الالوان . ومن الاتفاقات الجميلة راى جميل ان تلك الورود قد حركتها ايدي قد تكسح منها الاغصان اليابسة او تقطف منها باقات الزهور لكنه لم يعلم ما تلك الايدي . اهل البستاني قد اعتنى بجنانهِ ام جاءت زوجته في ذلك الصباح تنظر الى تلك الاقاح ام ان صحت الاحلام كانت تلك انامل من هام جميل بحبها . فقلقت منه الافكار واضطرب . وصار بين فرح وكرب . فيروم ان يرى فريدة ويخشى من انها لا تكون هي التي قد حركت تلك الاغصان . ولما كانت البلورة ضعيفة من ان تمكنه من ذلك المنظر ذهب مهرولاً الى خلوته وجاء ببلورة اخرى ضمها الى الثانية فشخصت لناظريه هاماً جليلاً جميلاً لعب نسيم الصبا بذوائبه المسدولة على المناكب وثوباً طويلاً جميلاً يجر على الحضيض غير انه لم يعرف من ذا المتشح بهِ ولما كانت عين المحب ابت الآن ترى حبيبها ترجح لاذهانه ان تلك فريدة موضوع غرامه

واخذ يعلل نفسه بما ذهب اهل الغرام الى الهيام بهِ حتى انه انشغل عن الماكول والمشروب واكتفى بتلك الاحلام واغتذى بتلك الاوهام. الى ان استفاق لحظة وقد مضت عليه الاوقات فترك المكان ورجع الى خلوته يعد لنفسه الطعام

فمن جملة ما كان ينشغل بهِ جميل في وحدته تردده الى خلوات تلك العصافير فيرى ذلك الحمام الآوي تلك الاوكار يحنو على افراخه. فاذا ما ذهبت الام تجول الافاق لتاتي بما تقيت بهِ اولادها مكث الاب يلاحظها في عشها ومتى رجعت الام وقدمت طعامًا لافراخها طار الاب مبارحًا ذلك الغار وذهب جائلاً الاقفار فاتى لافراخه بالغذاء. وما برح جميل يلازم مثل هذا الترداد حتى الف عليه بعض ذلك الحمام فاخذه ازواجًا ازواجًا الى خلوته واقاته من فتات مائدته وعاد طائرًا اهليًا لا يجفل من جميل ولا ينفر من ملازمة حضرته بل وانه لشدة حبه لجايلة شقيقته ولفريدة موضوع محبته سمى باسمها حمامتين وناداهما

بهذين الاسمين الكريمين لديه

فيا لعظم سلطة ابن ادم على مخلوقات الله فما مضت ايام الّا عاد ذلك الطائر الوحشي مطيعًا خضوعًا لاشارة اشار بها جميل اليه فصفه تارة كجنود تعدّ للقتال وثب على القلاع الحصينة واذا ما هجمت الى تلك الحصون صفر بما حاكى صوت النفير فعاد ذلك الصف الوثاب الى الوراء . فهذه وما شاكلها من الترويض علم عليها ذلك السرب الكريم حتى كانت ذات ليلة مدلهمة الظلام انتهزها ابن عرس ودخل من احدى نوافذ الغار وسطى على اكثر سكان تلك الخلوات وامتص منها الدما ولما روى غليله رام مبارحة المكان فلم يستطع على الخروج اذ قد امتلاء جوفه والمخرج ضيق فالتزم ان ينزوي في ناحية الى ان يعود الى حالته السابقة فيبارح المكان غب ان كان قد سطى على السكان

فلما كان الصباح وقد استفاق جميل من رقاده وذهب يفتقد تلك العصافير راى ابن عرس قد فتك

بها وقد انزوى بناحية فبادر حالاً الى خلوته وجاء بحرام القاه فوق ذلك الفاتك وقبض على احدى رجليه واوثقها وعلقه في ثقب كان بجدران الغار وما زال يعالجه ويجوعه الى ان تروض وعاد من الحيوانات الاهلية لا يسطو على شيء من الطيور بل اصبح لاشارة جميل مرهون فائتلف مع الحمام حتى خلتهُ واياها من اخص الخلان . ياوي معها ذلك المكان كالاخوان

فمكّن جميل الحمام بعربية صنعها واقام ابن عرس عربيًا عليها فساقها في نواحي ذلك الغار وجميل يصرف الاوقات . فياليته كان من الانام العارفين بامور الله هائمًا بحب مولاه لكم كان استفاد في نفس خلوته اذا ما امعن النظر بعناية ربه الذي لا يغفل عن خليقته . فقد نظر الى الطائر في خلوته واعطاه القوت فاحياه . سبحان مدبر الاكوان على ما الفه من حب الوالدين الى البنين فطارت الحمام تسترزق مولاها . لتقيت ثمرة احشاها . وفيما كانت تطوف الاقفار لازم الاب مناظرة الافراخ داخل ذلك

الغار. يا اله الحكمة والاقتدار. ترى من لا يذهل من سلطة حبيتها للانسان. فاخضعت له طيور السماء وحيوانات البر. لكن واسفاه قد كان جميل تعلم في مدرسة اهل الفساد. الذين لم يلتفتوا الى رب العباد. الواحد الاحد الذي لم تغفل عين عنايته عن احد

ولما كان المتوحد لا يقف عند موضوع بل انتقلت مخيلته من شيء الى شيء حتى اذا ما تمكن من موضوع كان قد هام اليه انتقل الى اخر فحاكى بذلك طائرًا حام فوق الازهار ثم تطاير الى اعلى الاشجار فما استقر به الحال لحظة حتى رايته فوق الصخور او قد اوى الاوكار. هذه حالة مخيلة بني البشر فكثيرًا ما قد اضروا بانفسهم واضنكوا اجسامهم باوهام تخيلوها. او قد فرحوا وطربوا لتصورات تهيأوها. فخاض زيدٌ بحور الاوهام. وعللت هندٌ نفسها بالاحلام حتى تاثرا تاثيرًا لم تفعله بهما نفس الاسقام

فتبًا لمن هام غرامًا بمطالعة تاليف مجونية وتصانيف اوهامية قصد بها اشغال افكار الشبان والشبات فكانت

من اضر الافات. فقد تمكنت من القلوب. فكانت اشر الخطوب. فقد تهيات دعدُ موضوعًا لنفسها. ولما كان قلبها مفسودًا تمكن فيه موضوع الفساد فاسقمها وانهكها. بل قد كان سمًا قتالًا فاهلكها. وما ذاك الآن تلك الشابات لم يتعلمنَ مبادي صحيحة يميزن بها فاسد الامور القبيحة

فلا يطالع الحكيم مثل هذه الحكايا الوهمية والخرافات الخزعبلية. والاوهام المخيلية. والاحلام الصبيانية. مع ان الخطر اقل عليهِ اذ قد تمكن بالعلوم الحقيقية ووزن الكل بميزان الحق فميز بين الذهب الاحمر والزيوف

فشُلت يدٌ حركت يراعًا سطّر حكايا افسدت قلوب الشبان. والبست الشابات ثوب الهوان. فقد كانت سلمى صحيحة المزاج غضة المنظر بهية المحيا فقبضت على اساطير اهل الخلاعة ذات التمويه فاصبحت بعد قليل في ذبول واسقام فحارت امها وتعجبت ولم تعلم ما الذي حل بابنتها. وشقيقة مهجتها. فبالامس كانت تفرح وتطرب. وقد

بانت الان في غم وكرب . فقد اخطى كل الخطاء من نسب التقلب الى النساء فانهنَّ لاشد تعلقًا بامرٍ قد هُمن بهِ حتى ان اقامتهنَّ ضمن المنازل وملازمتهنَّ اشغالاً لا يقتضي لها الاَّ تحريك الايدي وامعان الناظر مكنت في فوادهنَّ الموضوعات . وهيهات ان تزاح من مخيلتهنَّ هيهات . فترى من ذا المواخذ بهذا والمطالب لا شك انه صاحب ذلك اليراع الذي حبًا بالخلاعة والاطماع قد شخص الاشباح . ذات ارواح . فهام بها القلب الولهان وراح . وشرب كاس السم الطفاح فذبل الورد ويبس . ودفن في لحده وهناك انحبس . فحذارِ ايها الشبان والشابات . حذارِ ثم حذارِ هذه الافات . واعلم يا صاح ان كل ما لا يُبنى على اس اللياقة والاداب ووطيد اركان الحق والخير قد اوقعك في ارتباك . وسقاك كاس الهلاك . فاعتنق الحق والخير . فتنجو من الشر والضير . وابعد عن الرذيلة والفساد . فتصبح اسعد العباد . في اخرتك ودنياك . فلذا نصحنك ان

تكون حكيمًا . فرأس الحكمة مخافة مولاك

ولما كان المساء وقد جلس جميل في اخر دهايز المنارة يتأمل البحر وشاطيه واذا بهِ قد وقعت الحاظه على سفينة خرجت من الجون الحاذي بستان فريدة وقد ركبت تلك السفينة فتية ذات جمال لعب الريح بذوائبها المسدولة فوق الترائب وهي قابضة على الدفة تدير مركبتها وغلام يضرب بالمجذاف لتسرع في سيرها وما خرجت السفينة من الجون الَّا وقد اخذت في الاباحة قاصدةً سفنًا اخرى راسية على بعد ميل من الشاطي وقد القى ركابها الاشباك يصطادون الاسماك

اما جميل فما برح يحدق الالحاظ بتلك السفينة التي قد هام الى معرفة راكبتها الى ان تاكد بانها فريدة موضوع غرامه فتبدلت منهُ الاحوال وتغيرت الالوان وعاد بين لوعة واشتياق فضاقت عليه وحدته وسأم خلوته ولايعلم ما يفعل ومع هذا قد سرَّ فواده وطرب لحصولهِ على تلك التعزية اذ انه مذ كان قد دخل خلوته والف وحدته لم يرَ منظرًا

اشهى لديه ولا صورة احلى لعينيه من مشاهدته فريدته في ذلك الان . ولما كان يروم كل التمكن من روياها هرول حالاً الى مخدعه وجاء بالنظارة المعظمة ووجهها الى حيث كانت المياه تحمل مركبة فريدة ليتمكن من مرآها وقابل محياها وحازت النفس مشتهاها . غير انه في نفس ذلك الحين وقد دنت فريدة من سفن الصيادين لاح في الافق مركب كبير وقد اخذ يرفع الاعلام فكانت رايات انكليزية فخاف جميل وارتاع واستولى عليهِ كل الجزع اذ كان الانكليز قد سيروا مراكبهم في تلك الايام في الابحار ليقبضوا على السفن الحاملة الذخائر للجيوش الفرنساوية فيستولون عليها وعلى ركبها ومحمولها ويستاقونها حيثما شاؤا

فيالعظم لوعة جميل فانّى لهُ الصبر الجميل فقد طار منهُ العقل وسهي عن كونهِ مسجوناً داخل تلك الكهوف فصرخ وصاح يافريدة ارجعي الى الوراء والاّ ذهبتِ فريسة الاعداء وضرب الارض برجليهِ وطارت الشرار من عينيهِ وعلا الاحمرار وجنتيهِ وما تشخصت حالته الاّ وقد تفتتت اكبادك

حزنًا عليهِ

وما زاده اهتيالاً تاكده لدى امعان النظر واحداق البصر بان ذلك المركب لم يكن من مراكب الانكليز بل قد ركبه القرصان من المغاربة او اليونان ولم يرفعوا اعلام الانكليز الاَّ اخداعًا لتلك الاوطان فبادر اولئك اللصوص في الحال الى المدافع فركبوها لجهة الشواطي وانزلوا فلوكة في البحر ركبها رجال جردوا السيوف ونقلوا البواريد قاصدين شن الغارات والقبض على من رمته بايديهم النكبات

غير انه بتدبير العناية الصمدانية لم يعلم بحال اولئك الاقوام جميل وحده بل قد كان في جون قريب سفينة مشحونة زيتًا ومؤنة بقصد السفر الى المين الفرنساوية ولما كانت على همة الاقلاع وقد اخذ بحريتها يشرعون القلوع واذا بهم قد وقعت الحاظهم على مركب القرصان فاستعوذوا بالله من الشيطان فاطلقوا المدافع ورفعوا الاعلام انذارًا للاهلين بان يخرجوا الى البر في الحين

فلما سمع صيادوا الاسماك طلق المدافع وتاكدوا الاخطار التفتوا نحو تمثال نجمة الابحار السائدة على تلك الاقطار وقبضوا على المجاذيف مهرولين نحو الرصيف ولما كانوا كثيروا العدد وشديدوا الذراع ما مضت لحظة الاَّ حلت سفنهم اقصى الجون فصعدوا الى البر طالبين المفر

اما الوبال فقد احاق بسفينة فريدة ذات الدلال اذ قد اصبحت تخوض الاباحة وحدها والعدو يطاردها ولا من يسوقها الاَّ ذلك الغلام. فلما رأت فريدة نفسها على تلك الحال من شدة الاخطار وحلول الاجال رفعت الحاظها نحو الاله المتعال واخذت المجذاف وضربت به اليم وقالت قد توكلت عليك يامزيل الغم والهم. فطارت السفينة سيرًا ولاحت لديك بانها لا تنال ضيرًا غير ان اولئك القرصان الاشبه بالجان قد شددوا القوى وبالغوا بضرب المجاذيف فخلتها في شقها البحر حرابًا تشق فواد جميل. هذا وقد التفتت فريدة الى الوراء لتطلع على حالة الاعداء واذا بها قد

راتهم منها على بعض خطوات فصاحت انقذني يارافع
الضربات والتفتت الى الغلام وقد انكشف منها الهام
ولعب النسيم بتلك الذوائب والعرق كلل روض الوجنات
واشارت اليه ان هذا يافتى وقتًا تضاعف فيه الحركات وفيما
كانا على تلك الحال يعاركان البحار وقد حاقت بهما
الاخطار ولا مناص لهما ولا فرار وسفينة القرصان اوشكت
منهما الدنو اذ سار مقدمها في خطٍ شقته سفينتهما واذا
بهما قد دخلا عطفة واخفتهما صخور قامت هنالك
فانقض عليهما فلك الاعداء انقضاض الباز على طائر
الحمام . فعندها تذكر جميل بان قد قام فوق خلوته
تمثال نجمة الابحار فصاح وكانت هذه المرة الاولى من حياته
وقال: سيدتي انقذيها من الاخطار. وتنهد الحسرات وسكب
العبرات وما ردّ طرفك اليك الّا كانت كلتا السفينتين
قد توارتا عن عيانهِ وتركته في اشجانهِ وقد ايقن حلول
الآفات بفريدته خير الحبيبات

ولما كان جميل على تلك الحال من الهواجس وقطع

الامال صعد في الحال الى حيث البلورة العدسية مؤملاً ان يكتشف على ذلك الجون ليرى ما يكون . فاحدق النظر وتبصر فلم يرَ ما كان وراء تلك الصخور ولم يعلم هل فريدة ما زالت في الحيوة ام قد صارت من سكان القبور . فهرول في الحال الى خلوتهِ وجاء باعظم نظارة معظمة حواها في وحدته وحولها نحو موقع الواقعة التي مزقت منهُ الكبد واذابت الجسد

قلنا ان ذلك المركب الذي كان في الجون وقد صار على همة السفر الى المين الفرنساوية لما عاين مركب القرصان اطلق المدافع ورفع الاعلام انذاراً الركاب الابحار ان يسرعوا الى البر فيأمنون الاخطار لما رأى اولئك المغاربة لم يرتدعوا ولم يخافوا بل ما زالوا مصرين على العدوان وقد طافت سفينتهم تلك الاباحة تجد من تفترسه انزل حالاً فلكاً من فلائكهِ فركبه سباع الرجال وقد دكوا البواريد وسحبوا السيوف وساقوا فلكهم من جون الى جون الى ان كمنوا وراء تلك الصخور التي تركنا فيها سفينة فريدة

فما نهض هولاء الفاتكون ليرووا غليل اطاعهم الأ وقد انقض عليهم اولئك الرجال الكامنين لهم في ذلك المكان فاطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا بعضهم وجرحوا البعض ثم اطلقوا ثانيةً وجردوا السيوف فاصابت ضربتهم وفتكوا بفريستهم فالقوا الكلاليب لسفينة القرصان وضموها الى فلكهم ونزلوها فغللوا اولئك اللصوص بالاغلال وهم ينادون الامان

اما فريدة فكانت والنار تتطاير الشرار بين اولئك الاقوام . وقد برقت البيض الصفاح فعالجت الهام . وقطعت الاجسام . قد القت من ايديها المجذاف واستولت عليها الرعدة والارتجاف فقامت داخل السفينة . فلما انتهى الامر على ما تقدم والمغاربة موثوقون بالاغلال . نهضت في الحال . واشارت الى الغلام ان سربنا يا فتى الى مرسى السفينة وفي لحظة عين رايتها قد داست ارجلها البر وفتحت باب البستان . ودخلت حدايق الورد والريحان ،

هذا ولما كان جميل قد تسلح بنظارته وقد راى السفينة دخلت الجون حمد الرحمن . على نجاة فريدته من اشد المحن . فقالت فريدة لفتاها امرتك يا غلام الاَّ يعلم بامرنا الاَّ العليم العلاَّم . الشاكرته على جزيل النعم واكبر الانعام . وذهبت الى مخدعها في الحال . وقلبها في خفوق واضطراب لما ذاقتهُ من مرّ الاهوال . ولم تشاء ان تعلم بحالتها انسان . من اهلها والسكان . مخافة ان تسبب الاحزان لوالدها الراغب بسلامتها ولئلا يكثر القيل والقال لاسيما وقد انشغل الناس وقتئذٍ بامر جميل واخذ كلٌّ يؤول هجره الاوطان على ما شاء . ولم يكن من يرثي الى حاله ويشفق على بلواه اكثر من فريدة خلوصة الوداد الصافي الموارد . فلم تمضِ ساعة الاَّ وقد افتكرت واخذت تخمن على حالته فلم تعرف لهُ اين . وهل حيّ هو ام جرع كاس الحين . ولما كانت على هذه الحال . من الهواجس والانشغال . اخذت تتبصر بطريقة تتوصل بها الى مبتغاها وتنال من الوقوف على حقيقة الواقعة مناها

في ما احتالت بهِ كلٌّ من جليلة وفريدة على الاخرى

ولما كانت جليلة شقيقة جميل قد لازمت في تلك الاثناء الاقامة في الدار . ولم تخرج منهُ ليلاً ولا نهار . خشيةً من ان يسالها المعارف عن امر اخيها وكيف . قد بارح الاوطان وما فيها واين قرت بهِ الاحوال وهل هو في راحةٍ وسلام . اما يقاسي ما يقاسيه شبان ذلك الزمان من الفرار الى الاكام والوديان هربًا من مكايد الظلام غير ان هذه جليلتنا لما علمت ان اقامتها داخل الدار كانت مما يزيد الوسواس في قلوب الناس عولت على الخروج خارجًا احيانًا ثم تعود الى مسكنها باذلة المجهود بمجانبة الناس لئلا يستانسوا من حديثها معهم باشارات دلتهم على الافكار . فيكتشفون على الاسرار فتنهتك الاستار

ولما كان صباح احد الايام خرجت جليلة من

خدرها وسارت الى الهيكل تعبد ربها . واذا بفريدة قد رقبتها من شباك القصر فطارت حالاً طيران النسر قاصدة ذلك المعبد لتسجد لله واياه تعبد . وفي اثناء قيام الصلوة لاحت من جليلة التفاتة الى الوراء فوقعت الحاظها على ناحية اقامت فيها فريدة ترفع الادعية لله وتلتمس مواهب الله . فعندها ارتبكت من جليلة الافكار . واخذت بامرها تتبصر . وهل لدى ختام الصلوة تهرول الى منزلها في الحال . ام تصرف مع فريدة لحظة بالسلام . وتبادل الكلام . فغب امعان النظر عولت على ان تخاطب فريدة لمح البصر واخذت تخترع في عقلها طرقًا تتخلص بها لئلا تسالها عن جميل وتطلب عن احواله تفاصيل . وفيما كانت بذلك تتفكر . كانت فريدة بنفس هذا الامر تمعن النظر . مشغلة الاذهان بحيلة تحتال بها على جليلة املاً بان تطلع على احوال جميل بعد مبارحته الاوطان . وما حاله والزمان الجائر على العبد والسلطان . وهل ما زال مقيمًا في الاوطان .

ام قد ركب متون الاخطار وسافر الى اقصى البلدان

وفيما كانت على تلك الحال . من البحث في طرق الاحتيال . التفت ذابح ذبيحة الخلاص غب ان كان قد اتم الاحتفال . ورفع الادعية نحو اله الجلال . واشار الى تلك الجماعة وقال: امضوا بالسلام ببركة اله السلام . وكان اول من شق تلك الصفوف تطلب الباب جليلة وليس بكلامي ارتياب . فما قرت بها الخطوات . في تلك الفلوات . الّا كانت فريدة قد سبقتها الى هنالك . فعندها التفتت الى فريدة وقابلتها بابتسام . وحيتها بالسلام . وقبلت منها المحيا . وقالت لها هيا بنا هيا . فابتسمت لها فريدة عن مبسم الدرّ . وقالت في نفسها اين المفر

غير ان جليلة مدت يدها الى جعبة الدهاء والتفتت الى فريدة وقالت لها : اهل بلغكِ يامهجة الفواد رجوع خليلتنا بديعة من الاسفار . غب ان كانت قدجالت الاقطار . وسرحت الحاظها في البراري والقفار .

وطافت اكثر المدن الشهيرة التي توقع قاصدها باعظم حيرة لما فيها من الاثار الغريبة والبنايات العجيبة وقد حدثتني بديعتنا الكريمة بما عليهِ نساء تلك المدن من الغوى في الملابس . والعظمة في المجالس . وانهُ لا يصبح نهار . الاَّ قد تسربلنَ بملابس ابهرت الابصار . وقد تعلمت بديعة كل ما لتلك النساء من الاصطلاحات زيًا ومحادثات فاذهلني عقلها وحيرني امرها كيف انها في برهة يسيرة قد وعت في اذهانها اموراً شتى بل وانها اذا ما رامت تقليد سيدات تلك الاقطار صنعت لنفسها ملابس حاكت منهنَّ الملابس وتحدثت على ما يتحدثنَ في المجالس

قالت فريدة حمدت المولى على رجوع خليلتنا بالسلامة وقد شاقني ما ذكرتهِ لي من بدائع تلك البلدان . وعوائد رجالها والنسوان . واذا ما قابلتِ بديعة اقريها مني السلام . واكدي لها باني الى رؤيا محياها في وجد وهيام . واني اذا ما سنحت الفرص قصدت مقابلتها في هذه الايام

اجابت جاليلة اني ابلغ خليلتنا ما شئتِ . واوضحت لها عما رغبتِ . وانها لعمري من البنات الكريمات وقد نجحت معارف وتهذيب . وانها اديبة بنت اديب

اما فريدة فقد عيل منها الصبر ولم تستطع احتمال ذلك الاحتيال . وانتقال جاليلة من مقال الى مقال . فالتفتت اليها في الحال . وقالت : ياشقيقة الروح لِمَ غيرتِ العادات واحتلتِ بهذه الافادات والمراد معلوم . والقصد مفهوم . لِمَ لا تحدثينا عن جميل . وقد ذقنا لاجلهِ مرّ الصبر الجميل . فدعي المحاولات واصدقي في المقال واتركي الخزعبلات واخلعي عنكِ ثوب الاحتيال . فاين جميل الان . هل قصد الاقطار البعيدة ام هو باقٍ داخل الاوطان . وكيف حاله صحةً وسلامةً . فعن هذا ان اجبتِ كنت لكِ على غاية الامتنان . واعددتها منةً فاقت كل احسان

فارتبكت جاليلة وحارت . فان سكتت تاكدت فريدة احتيالها وان اجابت خشيت من انها تستانس بشيء من مقالها فقالت جوزي بالكلام لنعلم ما عندكِ بهذا الشأن

قالت فريدة قد حار الاقوام بامر جميل واخذوا بالتأول والاقاويل فقال بعضهم قد ذهب جميل الى جينوا فقصد منتزهاتها وطاف شوارعها وطرقاتها وطاب قلبه بمفترجاتها ولما كان في محلات الملاهي وقد حضر تشخيص روايات تشخصت لديه فتاة من اجمل الجمالات بديعة الحسن والصفات فسبت فواده بلطف حركاتها واذابت كبده برخيم نغماتها فهام بها حبًا واصبح مغرمًا صبًا

وزعم غيرهم بانه لما كان احد تجار البلدان البعيدة حضر الى جينوا لاشغال استدعته الى هناك وقد اصحب معه بنتًا له بديعة الجمال ذات قدٍ واعتدال تخجل غصن البان. وقد وقعت الحاظ جميل عليها فسلبت فواده ببهاء محياها فذهب قتيل الهوا ومال عن السوا. وما قلع ذلك الرجل التاجر من جينوا وركب متون الاسفار الَّا قد ذهب عقل جميل بحب ابنته وطار فركب الابحار الى ابعد الاقطار الى ان اجتمع شمله بتلك الفتاة

وذهب قومٌ بان جميلاً كان سائرًا في ازقة المدينة فصادفه رجل شرس الاخلاق غليظ الحركات فما كان منه الّا وصفعه صفعة اذاقته مر الالام فوثب الرجل على جميل ورام الاخذ بالثار. فما كان من المارين هنالك الّا قد بادروا اليهما وراموا مسالمتهما. فابى جميل ورفض متعللاً بان ذلك الجاهل قد خرق شأنه وعمد الاخر على الاخذ بالثار اما سيفًا او بضرب النار ولما لم يكن لمسالمتهما من سبيل اخذ جميلاً اصحابه وذهبوا بهِ الى اماكن بعيدة الى ان تروق منه الافكار ويزول الاعتكار. ويمحي ما بينه وبين خصمه الاغبرار

وقال غيرهم انه لما كان والدكِ والفرنسيس على احسن حال من المودة . ويعتمدونه في الرخاء والشدة . صدر امر نابليون ان يرسل اليه جميلاً في الحال ليبعث بهِ معتمدًا اصلاحًا لبعض الاحوال . ولما امتثل جميل بحضرة ذي السلطان لقّنه ما يخابر بهِ احد ذوات ايطاليا

وقال جماعة انه لما كان احد الفرسان المشاهير قد

نزل ميادين الحروب واحاقت بهِ الخطوب وقد جهلت عايلته احواله وانشغل منها البال وهي مع عايلتكم ذات مودة شديدة الوثاق قد بعث والدك بجميل اليها ليقريها السلام ٠ ويعلمها بامر فارسها المقدام ٠ ومن المضحكات وغريب الحكايات ما توهمهُ قوم من ان جميلاً قد ذهب الى جينوا ومنها الى جون قريب حيثما ركب احد السفن الانكليزية فرارًا من قرعة الجندية ومما يوافق هذا الزعم ما توهمهُ غيرهم اذ قالوا ان جميلاً في ذهابه الى جينوا قابل نسيبًا لهُ وسارا معًا الى الجهات فركبا سفينة شقت بهما مياه اليم الى ان اوصلتهما الى احدى الجزائر البعيدة فرارًا من الجندية ٠ فكيف حملتهما سفينة الى تلك الاقطار وقد خاضوا المياه ليلاً ونهارًا ولم يخشيا سفن الاعدا وسطوات القرصان ٠ فضلاً عن تكبدهما الجوع الفاضح ومقاساتهما اهوال البحر ٠ فهذا لعمري ما لا يقنع انسان فمع ذلك اكده الاكثرون ومن جملتهم والدي ٠ فانه ان ساله سائل اوحدثه محدث بامر جميل ٠ اجابهُ في الحال بدون

تردد ولا مطال ان جميلاً قد اوى الان الجزائر البعيدة فرارًا من القرعة العسكرية . فهذه وما حاكاها من الحكايا اشغل الناس بها افكارهم بامر جميل والهجت السنتهم وتناقلوها في المجالس وتحدثوا بها في الشوارع

اما جاليلة فكانت كلما سمعت فريدة تقص عليها قصة ضحكت حصة . فقالت لها ما بالك تضحكين اهل بي تستهزأين . نشدتك بالله الحق ان تقولي لي الصدق. ثقي بمودتي الصدوقة فان ما تقولينه بهذا الشان كان القلب له مدفن

فاجابتها جاليلة : لم يعد ذا من الاسرار عندنا اي عندي وعند حضرة والديَّ لانهُ معلوم لديكِ ان الخدم لا يعرفون شيئًا من امرنا ولا نطلعهم على متعلقاتنا

قالت فريدة : وكيف علمتم ذلك . هل سمعتموه من الناس ام وردت لكم كتابات من جميل توضح لكم حقيقة الحال

اجابت جاليلة : لا قوم اخبرونا . ولا كتابة وردت

الينا من مهجة فوادنا

قالت : فاذاً كيف اطلعتم على حقيقة امرٍ

اجابت : انهُ منذ امدٍ ليس بقريب خاطبت والدتي جميلاً اخي قائلةً : يامهجة الفواد قد بلغك ما حل بشبان هذا الزمان . من الظلم والعدوان . فطافوا البراري واوا كهوف الجبال هرباً من الجندية اذ لم ينزل شاب الميدان . ورجع الى الاوطان . بل قد ترك والديه والخلان . يقاسون على فقدهِ مر الاحزان . والابلغ من ذلك ان ملك الفرنسيس قد اصدر متأخراً امراً حتم بهِ على جميع الشبان من سن الثماني عشرة سنة وما فوق ان يدخلوا الجندية ولا يقبل منهم بدلاً ولا يرتضي بالمال بل ان يذهب كلٌّ منهم مقتحماً اهوال الحرب بنفسهِ . وها قد بلغت يا ولدي السن المعلوم وكلما اصبح نهار كان حربة طعنت فوادي . هل يليق بك يا جميل ان تولي والدتك ملء الاحزان وتذيقها كأس الحمام . انما نرثي لحالي وتذهب قاصداً الاقطار البعيدة عساك تنجو من هذه الاخطار . نشدتك باحشاء

حملتك . وثدي ارضعتك . وحب فواد والدة ربتك . ان تصبح سمعًا لمقالي . وترثي لاحوالي . فاذهب يا ولدي الى جزائر كثر فيها اقاربي وخلاني فاذا ما وطئت ارضهم وحللت بينهم تلقوك بالترحاب وكنت لديهم من اخص الاحباب

قالت فريدة : وما الذي كان يجيبها بهِ جميل هل قد صغى لمقالها و وعي كلامها

اجابت : انكِ تعهدين جميلاً واخلاقه فقد اتصف بجسارة غريبة . وشجاعة عجيبة . فرغب باقتحام ميادين الحروب . وهجوم الخطوب . من ان يذعن لكلام والدتي فقال انهُ خير بالفتى ان يقتحم المنايا وان الشجاعة من احسن المزايا من ان يفر هربًا فيجلب على نفسهِ العار . فما برحت والدتي تراجعهُ بالمقال وتريه الاهوال وان لا حيوة لها اذا ما اقتحم الاخطار الى ان سكتت ولم نعلم هل كان سكوته عن اقتناع ام قصد بهِ الاخداع هربًا من الالحاح . ولما كان ذات يوم سأل والدي الاجازة ان يذهب

الى جينوا فذهب ولم تمضِ ايام الَّا كتب لنا انهُ قد قابل هنالك احد اقاربنا وذهب واياه الى جهات خارجًا عن المدينة والى الان لم نقف لهُ على حقيقة حال ولهذا كثر عنهُ القيل والقال

فما اتمت جليلة كلامها . وفريدة تسمع مقالها . الَّا قد علا وجه فريدتنا الاصفرار وتبدلت منها الاحوال . لانها لم تعلم شيئًا من حقيقة الحال . وهل جميل في راحة وسلام ام ذهب مقتحمًا بحور الاهوال . فلما لحظت جليلة حالتها قالت يافريدة الاوصاف . متى بلغني ما يطمئنني عن جميل وعلمت صحة الاحوال انباءتكِ بذلك بدون مطال . لكني قد طلبت منكِ ما تبالغين بحفظهِ من الاسرار وانتِ بكتمانهِ اجدر

قالت جليلة هذا ولخليلتها ودعت وللمنازل قصدت ولم تفتر هذه الدرة المصونة تسهر على راحة اخيها ولم تعلم بحالته انسان . حتى ولاسكان المكان . فقد افهمت الخدام ان احد الفقراء المساكين لما كان قد اعتراه مرض عضال ولم يذق طعامًا الزمتها محبة القريب بان تعدَّ لهُ

طعامًا مخصوصًا تبعثه يوميًا اليه مع الغلام . فوثق بمقاله
اولئك الغلمان واخذت من ثمَّ يوميًا تعدّ لاخيها الماكول
وتاهب المشروب حتى اذا اسدل الظلام الاستار قالت
للغلام بدار بدار. فحمل ذلك المحمول وركبا السفينة فسارت
بهما الى اسفل المغارة فالقى في الحين المعهود جميل الحبال
وقد علق بها زنبيلاً وضع فيهِ ما تبقى عنده من الكسر
وفضلات الماكل فتناولا الزنبيل وعلقا بالحبال زنبيلاً
اخر داخله الماكول والمشروب فكان على قلب جميل
اشهى مطلوب فاكل وشرب وازاد عليهِ حمامًا شواه في
داخل الغار. وفي كل ليلة في الحين المعلوم انزل بالحبل
الفضلات والحقها بكتابة طويلة قص بها على جليلة كل ما
جرى لهُ في بحر النهار داخل الغار وما خطر لاذهانه من
الافكار بل ومن الاوهام ومحض الاحلام

فيما كتبهُ لها تمرينه الحمام وابن عرس وانهُ قد اكتشف
بالامس على وكر من الفار فاخذ بعضها ورتب لها قفصًا
وافناتها بالفستق والبندق وفتات تتساقط عن المائدة وانها

اذا ما تروضت الحقها بما عنده من الحيوانات الاهلية فانشغل حينًا بمثل هذه الحركات وصرف الاوقات وقد الح عليها بالطلب ان تاتيه بما يلزم لاتقان تلك الالات المعظمة لتلقي على المرآة صورة تلك الشواطي والاقطار فيتمكن من رؤيا ما يجري في تلك الديار. ولما كانت تسبق رغبته وتستدرك بغيته جاته في الليل المقبل بمطلوبه فكان وفاقًا لمرغوبه تقص عليها بكتابته عن صور التيت على المرآة من جملتها قصر فاضل وما حوله من الحدائق والبساتين ومن الاشجار اليانعة الاثمار وانه كثيرًا ما يرى والشمس قد بزغت فريدته قائمة حول تلك البحيرة تكشف على الورود وتقطف باقات الزهور وتاخذ تارةً كتابًا تقرأه واحيانًا تنقي الاعشاب الغريبة

فرسمت له المرآة كل المناظر الشهية فنقلها على قماش وصورها فجاءت وفق المطلوب. فمثلت له قصر فريدة وما احاط بهِ من الجنائن وقد قامت فريدة على شاطي تلك المياه والزهور حولها والاقاح وقد جرّت اذيال

ملابسها على الارض وسارت في تلك الجنينة طولاً وعرض

وكانت جليلة كل ما جاءته بالماكول والمشروب تصحب ذلك بكتابة انبأته بما جرى وصار في تلك الديار وما شاع من الاخبار واعلمتهُ بمقابلتها فريدة وكيف سلكت عليها الحيلة واعربت لهُ عن مودة خليلاته وكيف انها متكدرة لبعاده وقد قلقت منها الافكار لتقف لهُ على حقيقة الخبر

فتأثر جميل كل التاثير لما تقاسيهِ فريدته لفراقهِ والبعاد وكيف قد امتنع عليهِ ان يعلمها بحالهِ مع انه قريب منها وقد توهمت سفره الى الاقطار البعيدة وانه يقاسي الاخطار بعيداً عن الديار. ومما ازاده اكداراً واوعب فؤاده احزاناً هو ان جليلة لبثت اياماً في الدار. ولم تاتِ اليهِ ولم تبعث لهُ بكتابة تطمئن بها افكاره. ويهدا بلباله. ولما طالت عليه الايام وقد استولت على مخيلته الاوهام. واشتدت احزانه وخاف على صحة والده كتب الى جليلة يستحلفها

بحبها له الشديد ان تخبر حالاً بما جار وتعلمه لماذا قطعت عنه الكتابات وهل قد حلّت بعائلته الافات

ففي ليلة اشتد ظلامها وكثرت اهوالها القى الحبال الى اسفل وقد علق بها الغلام زنبيل الماكول والمشروب فما ادخلها جميل الغار الاَّ والعقل منه قد طار فرمى الماكول والمشروب وبحث ليجد كتابة يتلوها فيطلع على حقيقة الحال فيروق منه البال. واذا بهِ قد وقعت الحاظه على كتابة خطتها يد جليلة ففك الختام وقابلها مقابلة مستهام وما القى الحاظه عليها الاَّ قد سر منه الفواد. اذ كثيرًا ما كان انتظر الاخبار وهام الى الاعلام لكنه لما اجال الالحاظ وتلا بعض ما فيها وعلم من الامور ظاهرها وخافيها سرت الرعدة في كل اعضاءه. وخارت قواه واصفرت منه الالوان فوقع على الفراش مغشيًا عليه ولا من يناجيه او من يعزيه ويسليه

في الحمام الرسل

اما فريدة فقد حارت منها الافكار . وذهب العقل وطار . ولم تعلم كيف تتوصل لتعرف مقرّ جميل واحواله فصرفت الليل والنهار . وهي بهذا الامر تتبصر . فما اولاها تفكرها . وازادها تبصرها الّا حيرة واضطراب حتى قلت ضاق بها المجال . وقاست مرّ الاهوال . والجسم منها قد انحل فقالت : هل اثق بهذه الاشاعات . وان هي الّا محض الحكايات . كيف يذهب جميل الى اقطار بعيدة خائضاً الابحار . وقد احاقت بهِ الاخطار . فها قد طافت مراكب القرصان مياه هذا البحر العظيم وخاصتهُ سفن فرنسا فهذه تحافظ على المين وتلك تخوض الاباحة طالبةً من يفرّ من العسكرية . فكيف ينجو جميل من هذه التدابير . اذا ما حلت بهِ التقادير . وقد خاض البحر بسفينة صغيرة لا تمكنهُ من الابتعاد عن شواطيهِ . اهل يلقي نفسهُ ونسيبه في مثل هذه

السفينة ويسافران ليالي وايام قاصدين الجزائر البعيدة. انما
ينفذ زادهما وتنكسر بهما السفينة الضعيفة الاخشاب. فكيف
ينجيان اذا ما قصفت العواصف وهبت الارياح وتلاطمت
الامواج . وهاج البحر العجاج . كلاَّ ثم كلاَّ . لم اكن لاثق
بكلام من اخترع هذه الاوهام . وهي ضرب من الاحلام

ولما كان قد تغلب عليها الحب واشتدت الاميال .
ورامت ان تقف على حقيقة الاحوال . اخذت تبالغ
بالبحث وقصدت دار جليل لتقابل جليلة خليلتها علها
تطلع على بعض العلامات . وتستنتج بعض الاستنتاجات .
من الحركات والاشارات . غير انها كانت تخاف من
ان يعلم والدها بترددها على جليلة لانهُ وان كان من اخص
المحبين لجميل ويروم لهُ كل الخير لكونه كان قد انقذه
وكريمته من الاخطار . التي احاقت بهما في يوم تلك الامطار .
على ما تقدم المقال . غير انهُ لم يكن الاَّ شديد التعصب .
بشرف اصلهِ والحسب . وكثير الازدراء بشرفاء لم يعاصروا
اجداده . ولما كان جليل من شرفاء جينوا الحديثين . كان له

فاضل من اكبر المبغضين . لاسيما لتوادده مع الفرنسيس
واستقباله ايـاهم في منازلهِ واتصالياته مع ملكهم وقد سطى
هذا على حبر الاحبار. واذاقهُ مرّ الوبال فنفاه من المدينة
المؤبدة القرار. الى شاسع الاقطار. وسجنهُ في صافونا. ولما
شاعت الاخبار عن هرب جميل ولد جليل شمت بهِ
فاضل وقال : انك تستوجب اكثر من هذه يا من تركت
رأس الدين. وانحزت الى حزب المفسدين . وقبلت في
منازلك اعداءه من الفرنسيس الذين كافوك كل المكافاة
وقابلوك باحسن المواقاة . ارأيت اثمار صحبة مثل هولاء
الاقوام يامن بالغت باكرامهم فقد سلبوا مهجة فوادك وشتتوا
شمل عائلتك وذهب وحيدك فريسة الاخطار. وفرّ الى اقصى
الاقطار. فاين الوفاء وانّى تطلب الوداد. انما كان الاولى
بك الاعتزال. وترك الاحتيال. لكن ما العمل ان الذين
مثلك قد انتحلوا الشرف ما زالوا يطلبون مـا توهموا بهِ
الشرف فتراهم متسولين الشرف تسولاً . فهذا يلصق بقائد
جيوش وذاك يخدم احد الزعماء فليس الشرف بالتسول

فانما الشرف لاهلهِ اي لعائلات استحقت الشرف بفضلها وفضائلها. وكلما زادت عليها الاعوام. ارتفع شأنها والمقام. فافٍ لشرفاء جينوا المحدثين وهل يليق بنا ان نعدّهم من النبلاء. فاين كان ابن هذا الحمَّال . لما كان اجدادنا قد ركبوا متون الافضال . وامتازوا بين الكرام . فهذه وما شاكلها من الاقوال كثيرًا ما فاه بها فاضل فصدع فواد فريدة ولم يعلم. اما هي فكانت تسمع هذا الكلام والقلب منها كليم مؤلم وقد لازمت السكوت الدائم

ولما كان صباح احد الايام قصدت زيارة جليلة خليلتها فطرقت الباب ففقهت جليلة من داخل المخدع لاسيما لانها كانت تتلو وقتئذٍ كتابات جميل ففتحت الباب واذا بفريدة قد دخلت فاضطربت جميلة وارتبكت وحاولت ان لا تظهر على نفسها الارتباك فتقدمت اليها . وقبلتها بين عينيها . واخذت كل منهما تعتذر اما فريدة فلكونها جاءت غلسًا ولا وقت للزيارة واما جميلة فلكونها استقبلتها على تلك الحالة . غير ان هذه قد قبضت على يد

فريدة وجاءت بها نحو الشباك واشغلتها بالكلام وبمنظر ذلك البستان لكن قد فات ما فات . لان فريدة منذ دخولها المخدع رأت كتابات جميل ومما اذهلها كل الانذهال انها قد رأت بين تلك الكتابات صورتها مرسومة على قماش كأنها ساعتئذٍ قد خرجت من تحت يد مصور صورها على ما كانت عليهِ في صباح الايام الماضية من الزينة والملبوس تطوف حول تلك البحيرة تقطف الازهار

ولما اسهبتا بالكلام وتناهيتا بالمقال وقد علمت جليلة بان فريدة انما قد اتت تسألها عن جميل التفتت اليها وقالت يا حبيبة القلب ما لنا وهذه الانشغالات افما تروميين استماع ما تعلق بجميل وانتِ من اخص المحبات

اجابت كيف لا وقد هممت لاستماع الاخبار عنهُ لاقف على حقيقة احواله

قالت قد وردت لوالدتي كتابة رمت ان اطلعكِ ومالت في الحال نحو صندوقة فتحتها واخرجت الكتابة

منها وقدمتها الى فريدة تتلوها

فقالت لها فريدة ان حسن لديكِ اتليها على سماعي فانكِ على تلاوتها اقدر

فاستجابت سوالها وقرأتها وكان هذا منطوقها

سيدتي الوالدة المحترمة

غب قبلة اياديكِ والتماس الرضا . سألت حبكِ العفو عما اسأت بهِ اذ قد بارحتكِ ولم اعلمكِ بذهابي لكن لما كانت الغاية وفاقًا لمرغوبكِ . املت العفو من حنوكِ

قد خرجت من الدار قاصدًا جينوا فالتقاني بها نسيبي المعلوم منكِ فعولنا على السفر الى الجزائر لدى اقاربكِ ومعارفكِ فلاجل ان لا يعلم بنا انسان خرجنا من جينوا بقصد الدوران في نواحيها ولما وصلنا الى جون ركبنا سفينة ساقها رجلان يقذفانها بالمقاذيف مدة اربعة ايام متوالية ليلاً ونهارًا . اما ما قاسيناه من الاخطار . واستولى على قلوبنا من الاحزان والاكدار . فانه من الامور التي

لا تخطر على قلب بشر . فما خضنا الاباحة وسارت بنا السفينة غلوات الّا قد راينا في الافق سفينة كبيرة تشق الامواج وان ركبها الّا قرصان مغاربة . هذا والشمس قد توارت والظلام اخذ بالانسدال فنكسنا القلوع وانحزنا الى ناحية وعلى هذه الصورة كانت نجاتنا من ايدي الظالمين . غير اننا لم ننجُ من تهلكة الّا قد وقعنا باعظم منها فهاج البحر واضطرب واصبحت خشبة ركبناها العوبة الامواج . فقذف القذافون . وبذل كل العناية هولاء الملاحون . وما نحن الّا طعمة المنون . فكم قد قاسينا من الاهوال . وكم ذقنا مر الوبال . فعن ايضاح ذلك قصر اللسان . ولما كان رابع الايام وقد اكتشفنا على البر واذا بسحابة ظللت الافاق فهبت الارياح وتلاطمت الامواج فانكسرت الدفة وتاهت السفينة فلم نعلم هل يمينًا نسير ام شمالًا حملتنا التقادير . ولما كنا على تلك الحال . من مقاساة الاهوال . قذفت المياه سفينتنا الى الشواطي فكسرتها الصخور . ونفذ المقدور . فالقيت نفسي في اليم .

عليّ اريح نفسي من الهم والغم . فما رد طرفك اليك الاّ كنت على اليابسة فالتفت واذا بارفاقي امامي

فان رعاة يرعون مواشيهم كانوا قد راوا سفينتنا وما حل بنا من الاخطار فبادروا الينا واستاقونا الى خيامهم واوقدوا النار وقدموا لنا الطعام فشربنا الحليب وصرفنا عندهم اياماً الى ان مرّت من هنالك سفينة ركبناها ولم تمض ساعات الاّ قد حللنا مينا تلك الجزيرة فارسلنا كتابانكِ لاصحابها واخذت اتحدث مع بعض الرجال واذا بمن قد دنا مني وقال : افما انت جميل نجل جليل وجميلة . فقلت وما قصدك بهذا السوال : يا خير الرجال . فلما علم بما في فوادي وتاكد اني لا اريد ان يعرف انسان بحالي اراني كتابتي فتبسمت . فعندها ضمني اليه واخذ يقبلني قبلة المحبين وسارت بي المواكب الى منازل تعهدينها فجاء الاحباب والاقارب وقابلوني بعظم الترحاب وعن هذه لا استطيع الايضاح فانكِ تعلمين حسن شيم هولاء الكرام . فكوني براحة بال . لاني على احسن حال . وطمئني

والدي وشقيقتي وعن قريب اعرفكم ما يجد والثم ايديكِ

ولدكِ

جميل

فكانت جليلة تتلو هذه الاساطير وفريدة تمعن النظر بمعانيها والمقال وتلاحظ ما تبديه جليلة من الحركات علَّها تعلم السرّ المكنون . فقالت لها جليلة : لا اقتضاء لان ابسط لديكِ الرجاء بان تكتمي ما قد سمعتِ

اجابت : قد كتمته فكانني لم اسمعه . لقد صدقت فريدة بما قالت : اهل يخطر لاذهانكِ يا جليلة بانكِ قد اقنعتِ فريدة بهذا الاحتيال . فذا من المحال . فان النساء قديرات ان يخدعنَ الرجال . لكن قد عسر على امرأة ان تخدع اخرى اذا ما كانت كلتاهما ذات نيرة

اهل تدعي ياهذا ان الرجال احذق من النساء . فدع عنك الوهم فانك لم تعلم ما تقول . ولم تفهم ما تدعي . فللنساء من العقل ذكاء ومن النيرة توقد ومن الحذاقة ما يحير الافكار . ولم يتوصل اليه رجل من الرجال . فان الامرأة

الذكية تفهم من غمزة عين ورفة حاجب ونقل قدم وابتسام مبسم وتحويل نظرة وانقباض جفون ما لا يدركه حكيم . ولا يعلمه الاّ العلاّم العليم . فبذا قد اعترف عظماء الرجال . وارباب سياسة الدول . حتى انك لم ترَ حادثة الاّ قد قبض على ذمام دفة حركتها احدى النساء وبيدها قد تعلق امر تدابير الامم وحظ اقوام من البشر

فلم تثق فريدة بما سمعته في تلك الكتابة بل لدى اول لفظة نطقت بها جليلة التي تلتها علمت بانها كتابة مخترعة قصد بها اطمئنان جميلة والدة جميل وبها ايضاً رامت جليلة التخلص مما تسألها عنه فريدة . فقالت هذه في نفسها : اهذه كتابة من قد افترق من اهله والخلان اين الشعائر الفوادية اين ما يدل على مقاساته الاخطار . فان نفساً القت ذاتها في اهوال البحار . واصبحت العوبة الامواج واوشكت الهلاك تعبر عن احوالها بعبارات شخصت لناظريك ما تقاسيه من شرّ الوبال . كلاّ ثم كلاّ . ان هذه الاّ كتابة زورية . اين ما اعهده في جميل من

الحماسة . اين حركات فواده المضطرم حبًّا . والمتوقد هيامًا .
دعك عما رايته من التحارير فوق هذا الفراش . فما هذه
الكتابة التي كأنها قد وصلت الآن ولم تتلُ منها جليلة الاَّ
بعضها لما دخلت مخدعها . اما اني رايت الدموع قد
غسلتها . فمن ذا الذي اذرفها . اما انها جليلة . واينك عن
تلك الصورة المرسوم بها قصر والدي والحدائق والبحيرة
وما حولها من الزهور وانا اجول في اطرافها اقطف
الازهار . اما ان هذا ثوبي ولم البسه الامن آن قريب فكيف
علم به جميل وقد صورني على هذه الهيئة . فهذه جميعها اكدت
بان كتابة تلتها جليلة على سماعي ان هي الاَّ كاذبة وما رايته
من الكتابات والصورة ورامت جليلة تحويلي عنه
فمالت بي نحو الشباك وقد القت عينها الواحدة على
الكتابات والاخرى عليَّ ان هي الاَّ كتابات صادقة . فمع
ذلك لم تظهر فريدة على نفسها الارتياب بل ارت جليلة
بانها قد اقتنعت بكلامها وغب ان تحدثتا برهة رامت فريدة
الوداع فقبلتها جليلة وقالت لها السر يا بنت الحلال

فاجابتها فريدة : ان كتبتِ لجميل اقريه مني السلام .
قالت هذا وخرجت في الحال طالبة المنازل غير انه قد هاجت بها الشجون . ولم تعلم السر المكنون . ولم ترَ لنفسها تعزية ولا سلوى الَّا بالتوحد والخلوة . فكانت كل يوم والشمس على زوال تصعد فوق ربى عالٍ داخل البستان تكشف على البحر وتلازم القرأة واذا ما توارت بالحجاب سجدت لربها وصلت واستودعته جميل . والتمست على فراقه الصبر الجميل

ولما كان مساء احد الايام وفريدة في ركوع وسجود فوق ذلك الربى العالي ولج الليل وانار البدر في الافاق وهي تلازم الابتهال التفتت نحو الجنوب وكانت تود الالتفات الى هذه الجهة اذا ان جزائر قيل ان جميلاً وطيء اراضيها تقع فيها واذا بها قد رات سفينة في الجون القريب تحل مراسيها وقد ركبتها فتاة وساقها غلام فرغبت فريدة ان تعرف من هذه الفتاة ومن ذا الغلام فنزلت حالاً الى البستان وقصدت طاقة في جدرانه فلم تتمكن من

النظر الى تلك السفينة التي بدلاً من انها تخوض الاباحة قد دنت من صخور الشاطي ورامت الاختفاء لئلا ينظرها انسان فعندها زاد القلق في فؤاد فريدة وابت الّا ان تقف على واقعة الحال ففتحت باباً يكشف على البحر فرات سفينة صارت في البعد وقد ركبتها جليلة وليس بهذا اشكال وعرفت فريدة ذاك الغلام فقالت ما هذا وما المقصود لِمَ قد ركبت جليلة البحار في هذه الليال . ومع هذا تراها قد حاولت الاختفاء اذ انها لم تشق الاباحة بل قد تسترت في ظل الصخور. لعمري ان في ذا سر من الاسرار لا بد لي من ان اقف عليهِ وان ركبت متون الاخطار

فما ابتعدت سفينة جليلة غلوات وتوارت في عطفة الّا قد نزلت فريدة الى الجون وحلت مراسي سفينتها وسارت فيها الى ان وقفت الى حيثما اكتشفت على سفينة جليلة فرأتها قد استقرّت بها الاحوال عند سفح تلك الصخرة العالية المرتفع فوقها تمثال سيدة الابحار

فاخذت فريدة ترقب ما تبديه جليلة . غير ان جنح

الظلام لم يمكنها من بلوغ مآربها فارتبكت وقالت في نفسها ما هذا اهل قصدت جليلة صيداً في هذا الليل وهل يمكنها المكان من بلوغ المآرب فكيف التوصل الى الاسماك والجة هنالك عديمة القرار حتى ولا يستطيع الغلام الغطس فيخرج من البحر ما انطوى عليهِ من انواع الصفد فان ذا لعمري مما يحير الفكر. وفيما كانت على تلك الحال من حيرة واندهال واذا بها قد رات ما ارتفع من السفينة نحو اعلى الصخرة فقالت ان ذا شيئاً قد ارتفع الى العلو فما هذا الشيء انما ان ذي اضغاث احلام

ولما كانت راصدة في ذلك المكان واذا بها قد رأت سفينة جليلة قد بارحت مكانها وقصدت الرجوع فضربت فريدة المجذاف وفي لحظة عين ارست سفينتها في الجون وما دخلت البستان والتفتت الى الوراء الاَّ كانت جليلة قد رجعت فحققت فريدة النظر ووقفت على حقيقة الخبر وارتفع عنها كل ارتياب من ان راكبة السفينة هي جليلة والغلام

فبئس ليلة صرفتها فريدة وقد داهمتها جيوش القلق
وهاجمتها جحافل الاكدار وقد انتظرت بزوغ فجر النهار
لتتروى في امرها وتتبصر . فما ابتسم ثغر مشرق الاقطار
الاّ قد ركبت سفينتها وقصدت مكانًا قصدته جليلة
البارحة واخذت تتأمل اللجة وتمعن النظر بتلك
الصخرة العالية لترى ما تستأنس بهِ فتطلع على ما قصدتهُ
جليلة بالمجيء الى هنالك . فقالت لا البحر يمكن من الصيد
ولا المكان مما تلذ فيهِ الاقامة . اي نعم انها قد رأت بعض
قشور الاثمار من الفستق والبندق وهلمّ جرًّا تطوف
عند اسفل الصخرة فقالت ان هذه الاّ قد قذفها البحر الى
الشاطي ولما عيل صبرها ولم تهتدِ الى امرها رجعت تشق
الاباحة ومع هذا ما برحت اعينها تحدق بتلك الصخرة
فرأت حينئذٍ نافذتين في جبينها ولم تكن سابقًا التفتت
اليهما . هذا وقد خرج الحمام من داخل تلك الغار ايتطاير
في الجو فهذه تقصد رزقًا تأتي بهِ افراخها وتلك ترجع الى
ماواها غب ان كانت قد اجتنت من فضل مولاها .

فسر من فريدة الفواد بمنظر تلك الطيور وقد رشقتها اشعة الشمس فتلونت بسائر الالوان وهي تغرد بنغمات تهيج الاشجان وتسبح الرحمن

فلما تأملت فريدة ما تاملت ولحظت ما لحظت ادارت الدفة وضربت المياه فرجعت السفينة الى مرساها ودخلت فريدة محل سكناها وهي تتقلب على نار الغضاء وقد ضاقت بها الحيلة اذ لم يكن لها للاطلاع على ماتبتغيه من وسيلة . فصرفت نهارها على ما كانت صرفت ليلها وهي تنازل جيوش الهواجس وتقاتل كتائب الوساوس ولما كان النهار قد شاخ وقد مالت شمسهُ الى الزوال صعدت ذلك الربى العالي الذي يشرف على البحر واخذت كتاباً تقلب صفحاته بقصد تقطيع الاوقات تخفيفاً لما في فوادها من الحرقات وما نازع ذلك الشيخ القديم الايام وقد حسب دقائقهُ اعواماً واجيالاً الاَّ قد نازع الفواد بنزاعه وكاد ينزع منها الحيوة بنزع حياته . فلما سبلت الدياجي استارها . سجدت فريدة لمولاها .

وحمدته على ما نالته من الآئه في نهارها . واخذت تقدم الادعية وترفع اكف الابتهال شاكرة المولى على كل الاحوال . وفيما كانت لربها تسجد . واياه تعبد . واذا بسفينة قد شقت مياهًا كانت قد شقتها البارحة في مثل ذلك الآن فامعنت فريدة النظر بركبها فرأت جليلة والغلام . وقد انتهزا فرصة الظلام . وسارا نحو ذلك المكان فما غابا عن الحاظها الاَّ قد سمت باسم الرحمن وفتحت ابواب البستان وركبت سفينتها واخذت تطارد امواج البحر الى ان اوقفتها في ناحية تنظر منها ما تبديه جليلة والغلام عند اسفل ذلك الصخر

فما مضت دقائق والامواج ترفع تارةً سفينة جليلة الى العلو وتحطها اخرى الى قعر اللجة وركبها يحاول تقديمها من الصخر الاَّ قد رأت فريدة ما كانت قد رأتهُ البارحة وهو شيئًا تعلق فارتفع من السفينة الى العلو ولم يكن ذلك الاَّ ما قدمنا عنهُ الكلام اعني بها سلة الماكول والمشروب

فعندها ارتفع كل ريب من اذهان فريدة وقالت ما هذا الاَّ من الاكيدات فقد اتضحت لديَّ المبهمات وما كنت احتسبهُ البارحة ضربًا من الاحلام . ان هو الاَّ حقيقة جلية لدى اولي الافهام

قالت هذا وساقت سفينتها الى الجون وبينها وبين سفينة جليلة بون . فصعدت البستان . واخذت ترقب من وراء الجدران . الى ان مرَّت سفينة كانت تركتها وراءها فرأت جليلة والغلام . يسيران في جناح الظلام

فدخلت فريدة مخدعًا هجرته الراحة وحلت بساحتهِ الهواجس . واخذت تتفكر . وبالامر تتبصر . وتقول ان شيئًا ارتفع من السفينة نحو العلو ليس من الاوهام

فلا شك قد اوى تلك الكهوف انسان قصدته جليلة ليلاً بما اليهِ يحتاج . فمن هذا الرجل وكيف قد دخل تلك الكهوف فلا غرو انهُ لم يدخلها الاَّ بانحدارهِ من العلو فلو كان للكهف مدخل اخر لما اقتضى كل هذا الاعتناء . فان كان انسان هنالك فترى من هذا الانسان .

فكيف نزل الى هذا المكان . وهو قد تعلق بين الجو الاعلى . والقعر الاقصى . أهل هذا جميل . فما قالت هذا الاّ قد اشتد خوفها على موضوع حبها

ولما كان الصباح وقد هدأ روعها ركبت سفينتها ولم تستقر بها الحال الى ان وصلت الى اسفل الصخر واخذت تجدد التامل بكل جهات المكان فرأت ما كانت رأته البارحة وعاينت ما كانت داينتهُ من تلك النوافذ وعلو الصخر وعمق اللجة وعدم امكانية الدخول الى ذلك الماوى الاّ بحبال يتعلق بها الانسان فيقبض عليها الارفاق . فكلما تفكرت بهذه الحالة وقد ترجح في اذهانها ان جميلاً قد ركب متون هذه الاخطار ليدخل ذلك الغار . طار منها العقل وحار . فشقت الاباحة راجعة الى الوراء وهي تتأمل ذلك المشهد الشهي . والمنظر البهي . من طيران الحمام والشمس قد شكلت منهُ الالوان . فغرد وحرك من فوادها الاشجان . ولما كان لا بد من الرجوع الى المنازل ضربت المياه فرجعت بها السفينة فارستها

مرساها وذهبت الى مخدعها واخذت تحشر الاذهان في كيف نتوصل الى كشف الاسرار. على انها قد تاكدت بان انسانًا سكن تلك الكهوف وان جليلة تاتيهِ ليلاً بما اليهِ يحتاج وقد لا يكون هذا الرجل الاَّ جميلاً فمن الذي يطلعها على حقيقة الحال . هل جليلة ام الغلام . فلن يطلعها احدهما على شيء من ذلك وهذا لديها من المحققات واوكد الموكدات

لكن لا شيء يعسر على من احب و يصعب على من رغب . فالحب مبدع المبدعات ومخترع المستغربات ومبدي اعظم المعجزات فلا تصده المصاعب . ولا توقفهُ المتاعب . ولا تكبح هجمات جواده الوثاب الحصون المنيعة فقد تسلح ببسالة الابطال وتقلد سيف شجاعة الشجعان . واعتقل رماح همة الفرسان . فهجم الهجمات ووثب الوثبات . واقتحم ميادين الضربات . ولم يبالِ بالجراحات . ولم يرجع الى الوراء فيركب مطايا القهقرى بل قد شمر على ساعد الهمة والنشاط وسار نحو الغرض وقد اوجد

المهمات واعد الاسلحة واكثر الذخائر فابى الاَّ ان يظفر وينتصر

ولقد يقول الخليُّ كيف نتوصل فريدة الى ان تعرف من ذاك الانسان الذي اوى ذلك الغار واحتجب عن ضياء النهار. فانها لا تثق بنسيب ولا بقريب. ولا بوطني او بغريب. ولا تستطيع حتى لو افترضنا المحال ان نتوصل الى ذلك الغار. فهل ياتي ملاك يخبرها او ينزل على قلبها وحي يلهمها. فدع الخليَّ يتعلل بما شاء فقد صدق من قال ليس الخليُّ كالشجيّ

اسمع يا ايها الخليّ كيف مكن الحب فريدة من التوصل الى مبتغاها. وباية الطرق قد نالت مناها. فانها استنجدت طيور السماء فجاءت لمساعدتها من العلاء. فان كنت على ريب من هذا المقال فهاك واقعة الحال

كان على سطح باب البستان الموصل الى البحر مقصورة شاهقة عالية ودائرها رواق انبسطت قدامهُ من كل جهاتهِ فسحة تبلطت بالرخام المختلف الالوان وفي

ليالي الصيف المقمرة صعدها فاضل وفريدته مع الخلان من درج احاق بهِ نبات تضوع منهُ شذا الازهار . والاشجار حملت افخر الاثمار . وصرفوا ليلهم متأملين البحر الصافي المياه وقد لعب النسيم من كل الجهات

ولما كانت فريدة بقصدها مكانًا استقرت فيهِ في الليالي الماضية سفينة جليلة قد رأت طيورًا تخرج من نوافذ ذلك الغار . وتجول الاقطار . لتأتي افراخها بالقوت . عولت على اكتساب ذلك الحمام وقد كان اكثر يقصد اراضي والدها والبستان . فلما خطر باذهانها هذا الخاطر صعدت الى المقصورة واخذت معها بلغة من الحبوب والقتها على ذلك البلاط واذا بالحمام المتطاير من تلك الكهوف حام فوق ذلك البلاط والتقط تلك الحبوب وفريدة تتأملهُ وقد سر منها الفواد لبلوغها المطلوب . وكانت كلما قلت الحبوب القت بلغة اخرى . هذا والحمام يتناول حاجته ويذهب الى مأواه يقيت بهِ الافراخ وما بارح سربٌ ذلك البلاط قاصدًا الغار الا كان قد حضر

سرب اخر وانشغل بالتقاط الحبوب . هذا وفريدة لاتمل من اقامتها في ذلك المكان ومراعاتها تلك الضيوف الجوية

ولما اعتاد الطائر وايتلف اخذت فريدة تدنو منهُ فينفر ثم اليها يعود الى ان استانس بها ولم يعد يخشى حضرتها . فعندها اخذت تلقي الحبوب داخل الرواق والطائر يقصد قوته وما زالت على هذه الحال الى ان عاد الطائر الوحشي اهليًا ولم ينفر من دخول المقصورة حيثما كانت فريدة تلاطفه فيدنو منها وتلاعبهُ وهي بالقاء القوت لاتبخل والطائر لايخاف ولا يجفل الى ان قبضت على حمامةٍ وعلقت جرصًا صغيرًا فضيًا في عنقها وربطت شريطًا طويلاً في رجلها وشريطًا اخر التف حول جسمها وعلقت فيهِ تذكرة واطلقت سبيلها فطارت في الجو قاصدة افراخها داخل الغار

اما جميل فكان اذ ذاك جالسًا فوق كرسي يتصفح صفحات كتاب يطالعهُ فلما سمع جرصًا قد رنَّ داخل

الغار انذهل وبامره احتار . فنهض سائرًا نحو مأوى الحمام فرأى الحمامة حاملة التذكرة تنشغل بتقويت افراخها فقبض على الشريط وجرها اليهِ ورجع بها الى ماواه ففك الجرص من عنقها والشريطة من رجلها وحل شريطًا اخر احاط بجسمها فوجد تذكرة تعلقت بهِ ففتحها واذا بهِ قد رأى مكتوبًا فيها هذه الكلمات

أهل انت في الغار . فقد اكد لي حبي اقامتك فيهِ . اعلمني بحقيقة الحال . ولا تخشَ ولا تفشل فريدة

فما تلا جميل هذه العبارة الَّا قد اشتد بهِ الانذهال وارتبك بامره واحتار . واخذ بامر الجواب يتبصر . ومما ازاده قلقًا انشغال فريدته بامره فعلم كم قد قاست من مر الفراق وكم داست من المصاعب حتى توصلت الى هذه الحيلة

فلما هدأ منهُ البال . وراق الحال . قبض على اليراع وكتب ما فيهِ يقول: قد اصبتِ ظنًا . فاتينا والظلام قد سدل استاره ومتى بلغتِ اسفل الصخر هزّي حبلاً ثلثًا

وعلقي بهِ الاساطير فاننا نرده اليكِ وقد علقنا بهِ طرسنا .
والسلام من الشجي المستهام

فعلق جميل التذكرة في عنق الحمامة غب ان كان رفع الجرص منه والشريطة من رجلها واطلق سبيلها . هذا وفريدة قائمة فوق ذلك البلاط والشمس رأد الضحى وقد اشتدت الهجيرة وهي كأنها في ظل اشجار لعب بها نسيم الصبا وغرد طائرها على الاغصان وجرت امامها الانهار . وفيما كانت بالانتظار . واذا بالحمامة قد حامت وغطت على البلاط تلتقط القوت . هذا وفريدة تلقي حبوبًا وترجع الى الوراء الى ان دخلت المقصورة والحمامة تتبعها فعندها قبضت على رسولها وعلمت بان جميلاً قد رفع الجرص سترًا للحال والشريط من رجلها لئلا بشجرة رجلها تتعرقل فاخذت التذكرة المعلقة في عنقها وقبلتها ونزلت حالاً الى البستان فما تلت ما في طي ذلك الطرس الى قد تحركت بها الاشجان فجلست في ظل الاشجار الآن مضى اكثر النهار فلما استفاقت على حالها وقد هجمت جيوش الهواجس

في افكارها واخذت تنتقل من راي الى اخر الى ان عولت رأياً بانها بدخولها الدار تقصد مخدعها فتقفل منهُ الباب وتاخذ تتأمل ما بهِ جميلاً تكتب . لكن من داب التقادير ان تجري خلافاً للتدابير على ان فيما كانت فريدة بما قدمناه تتفكر . وبتلك الكتابة تتبصر دخلت الدار واذا باصوات جماهير قد دوت فهذا يحيي بالسلام وتلك تضحك وتتبسم . وقد هرول الجميع لملاقاتها فقبض هذا على يدها وتلك قبلت وجنتيها وجميعهم يعربون عن شدة حبهم والاشتياق . وكان القوم رجالاً ونساء وشابات من اقارب فريدة جاءُوا من جينوا بقصد زيارة هيكل السيدة عليها اشرف السلام في صافونا فعولوا رأياً اولاً بالمجيء الى منزل فاضل فيؤدّون نحوهُ الواجبات ويقابلون فريدة وغب ان يصرفوا ليلهم في القصر يصحبونها معهم في الغد ويذهبون علناً فيتممون تلك الزيارة الكريمة فسلمت فريدة على اقاربها وترحبت ببنات عمها واخذت تلاطفهم بالمقال وتسايرهم بالكلام وتضحك وتتبسم لكن الفكر بانشغال

والذهن في بلبال . فما عادت الفرصة تمكنها من الاختلاء داخل مخدعها لتكتب الى جميل . بل وان احدى بنات عمها كانت تخشى الرقاد في مخدع وحدها فالتمست الى فريدة وقالت سألتكِ ياحبيبة القلب ان تاذني لي بالرقاد هذه الليلة في مخدعكِ فاجابتها فريدة قد ضاق عليَّ المخدع كاني ناسكٌ اوي كهفًا في الجبال وذلك الكهف لا يسع احدًا سواه فقالت لها ان كان ذلك فارقدي معي في مخدعي فاجابتها على هذا عولت كوني براحة بال الى ان يداهمنا ظلام الليال

فقد خابت من فريدة الامال . وحبطت الاعمال . فلا تستطيع ان تكتب لجميل ولا ان تذهب الى اسفل الغار ليلاً . فما العمل وكيف التدبير . فدونكِ يا فريدة ان تسلمي امركِ لرب الامور وان تتسلحي بالصبر الجميل . فبالصبر الفرج . فان من صبر قدر ومن لجَّ فقد كفر

فخطر لاذهان فريدة في ذلك اليوم . بحضرة ذلك القوم . ان تكلف جليلة عندها وتسر بحضرتها بين ذلك

الجمهور الحافل . والافراح والمحافل . فاخذت تنتهز فرصة تخاطب فيها والدها فاضلاً بهذا الشان علّه ياذن لها بان تدعو اليها خليلتها بتلك الاوان فاعرضت لديه رغبتها و بينت عن عظم بغيتها . غير انها ما ختمت كلامها وانهت مقالها الاَّ قد نهض ذلك الشيخ القديم الايام عن كرسيه وقد اشتدت الحماسة الاعيانية فيهِ والتفت الى فريدتهِ شذرًا .وصاح بها زجرًا وقال

قد صدعتِ مني الخواطر واوقدتِ في فوادي نيران الغضب الشديد . ولا يردعكِ عن غيكِ وعد ولا وعيد . اذ لا تبرحين في كل فرصة وآن ان تخاطبيني عن خاصتكِ من الخلان . فكثيرًا ما حملني حبي نحوكِ المتفاقم ان اسمح لكِ بالترداد على ابنة جليل وان تدخل منازلنا والاطلال . افما كفاكِ هذا الانعام . وافما ان ذي من اخص النعم . على ابنة هذا الحمال ابن الحمال . افما يكفيها شرفًا باني اذنتكِ ان تخاطبيها وتترددي عليها وان تدخل منازلنا ونحن من اكابر الناس واعيان البلاد . فنحن شرفاء

جينوا الاولون واعيانها اولوا الفضل الجميل . نحن الذين ازدانت صفحات التاريخ باعمالنا الغراء . وترنمت بصفاتنا الشعراء . فاضاءت شموس محامدنا في الافاق . وفاضت ابحر مكارمنا وخفقت اعلامنا في الجو وسطعت لوامع سيوفنا في الهيجاء . سلي عنا الرفيع والوضيع . هل ترين من ينكر فضلنا وفضائلنا . او يرتاب بشرف اصلنا وفصلنا . فمن هذه التي تدعينها اليكِ فتجالس اقربائي هولاء الكرام . اولاد الكرام . وانّى لها ان تتشرف بخدمتهم كعبدة ذليلة . وامة دنية . فما طلبكِ هذا الّا ضرب من الجنون وقد استوجبتِ بذا ان تتغللي باغلال المجانين فتاوين اماكن اعدت لمن عروا عن العقل . اغربي عني في الحال . ولا تريني وجهكِ مدى الاجيال . ان عدتِ وخاطبتيني عن بنت هذا الحمال ابن الحمال . دعيها تجالس اولئك الفرنساويين الذين على دار ابيها يترددون . وهم لراس الدين يحاربون . ولرياسته يقاومون . دعيها واباها يزدانان باكليل الحرم للامسهم المحرومين . ومجالسهم

المرذولين . دعيها واباها نطلب الشرف ونتسوله من الحديثين مثلها . فاني لمثل هؤلاء جميعًا الشرف فان الشرف قد اختص بنا . وبمن كان مثلنا . الذين قد انطوت عليهم الاحقاب العديدة . والاجيال المديدة . لا على الذين مثل خلانكِ الراكضين وراء الشرف وقد بسطوا يد التسول فأُعطوا منهُ كسرة بالامس

ولما كانت فريدة قد ابتلعت على هذا الكلام . واعتادت على هذا المقال . سكتت ولم يقلق منها البال . غير انها اخذت تتبصر كيف تستطيع الاختلاء وحدها . لتبيح لنفسها ما في طي سرها . فبادرت حالاً الى انسبائها وسالتهم عن حالهم وهل قد ارتاحوا ولو بعض الراحة من مشقات السفر واتعاب الطريق

ثم انها اعدت لهم الماكول وروقت المشروب وجاءت بهم الى قاعة كبيرة حيثما جلسوا ووالدها يتناولون الطعام ويشربون المدام ويتفاكهون باطائب الكلام حتى خاضوا بحور الافراح وسر منهم الفواد والصدر انشرح

ولما كان يوم طاب هواؤُهُ . وراق صفاؤُهُ . وقد رامت فريدة الاختلاء وحدها . والابتعاد عن نسيباتها . اخذت ترغبهنَّ بالبحر وتقول ان لا لذة تحاكي ركوب السفن والمياه كانها في زرق وقد لعب النسيم وطابت الريح لاسيما اذا ما انشغل الراكب بالصيد وراى الاسماك تلعب في اليم وتتراكض كانها في محفل الملاهي . واخبرتهم بانها كثيرًا ما تخوض الاباحة والشمس قد مالت للغروب فسرحت الحاظها برًا وبحرًا فسرت منها الخواطر بمرآى تلك الربى والهضاب وقد اينعت منها الاثمار . وتلالات الازهار . هذا وقد مارست صناعة الصيد فاقتنصت من سكان المياه اشكالاً وانواعًا . فما برحت تجوز بالمقال وتغري نسيباتها على نزول البحر حتى همنَ الى ذلك والتمسنَ منها ما يلزم لبلوغ هذا المأرب . فاشارت الى الغلام فلباها في الحال وما اعد السفينة وتأهب الاَّ كان ذلك السرب قد هاجر البر وركب البحر فعندها اومأت فريدة الى قائدها ان سر بالركب خائضًا الاباحة واذا حللتم مكانًا كثرت

فيهِ الاسماك القوا الشباك وايتونا بسائر انواع الصيد والاشكال والّا ما ذقتم طعاماً ولا اويتكم عندي في هذا الليل

فقالت لها نسيباتها أَفما تسيرين معنا وهل وحدنا تتركينا ولا نعلم ما ركب البحور

قالت: فلتطب منكم النفس فان الغلام خبير بمثل هذه الاسفار. فلا تخفنَ الاخطار

قالت هذا ورجعت الى الدار وقصدت مخدعها في الحال وعندها اباحت للنفس بما عليهِ الفواد قد انطوى وما يكابد من مر الجوى ولما راقت منها الاحوال اخذت طرساً وكتبت الى جميل قائلةً: حمدت الله على سلامتك وسررت لعلمي بمحل مآواك فاعلمني كيف اكاتبك ولا تخشى الغوائل ونوقظ الافكار فاني اخاف عليك الضرر وطوت الطرس واخفته في صدرها لئلا يعلم احد بامرها وخرجت تطلب رجوع نسيباتها وفيما كانت تسير في البستان قاصدة ذلك الجون حضر اليها احد الاتباع

وقال : مولاتي . امر مولاي ان تحضري اليهِ . وتمثلي بين يديه . وها بهِ جالس ونسيبكِ علام عند البحيرة داخل البستان . فما سمعت منهُ هذا الكلام الّا قد رجعت الى الوراء في الحال . وخضعت لامر والدها بدون مطال . ولما بحضرته اقامت حيّتهُ وعلامًا بالسلام . ولثمت ايديهما بالاحترام فامرها والدها بالجلوس فجلست . ولامرهِ امتثلت فعندها التفت اليها وقال

ايتها الكريمة انكِ تعلمين شدة حبي لكِ وكم اهيم لراحتكِ وها قد مالت بي الايام وقصرت مني الامال وعن قريب اذهب الى اجدادي فتصبحين وحدكِ في هذه الاقطار بعيدة عن الاهل والاقارب

فالآن قد حضر الينا ابن عمكِ وهو ذو عقل ثاقب يحسب للعواقب ولما كان يحبكِ محبة الاب للبنين قد رقب فرصة فيها يسعى بامر مستقبلكِ حبًا براحتكِ فها بهِ قد جاء الآن واخبرني بان احد ابناء الاعيان رام بكِ الاقتران . وهو شاب مجمل بالصفات الحميدة

والمزايا الكريمة فضلاً عن انه اغنى اهل جينوا مالاً وعقارًا من المداخيل السنوية لا الوف وكرات بل ربوات في ربوات وقد هام الى مصاهرتهِ الاكابر وقدموا له سيدات كريمات بالعقل والاداب مجملات غير انهُ لما سمع بكِ هام بصفاتكِ فحمدته تعالى على هذا التوفيق وهنأتكِ بهذا الحظ السعيد سالته تعالى ان تقري بهِ عينًا وتطيبي نفسًا ويقرن تعالى اقترانكما بحسن التوفيق ولما كانت هذه ارادتي وبذلك كمال رغبتي املت ان تجيبي على طلبي ايجابًا

فما فاه والدها بهذا الكلام . واوضح بالمقال . الاّ قد اجابته بالحال

مولاي انك لراحتي تبتغي . ولسعدي تشتهي . فانما حظي قائم بالاقامة لديك . فلا تذكر لي اقترانًا فاني لا ابارحك لحظة فكيف يطيب عيشي وقد اكدت باني ان غبت عنك لحظة . اورثت فوادك غصة . فالبعاد تنغيص عيش لكلانا فلنطوينَّ السجل على هذا المقال فاني

لا اترك المنازل وافارق والدي اذ بالقرب منهُ قائم تمام سعدي . قالت هذا ونهضت من مكانها وقد اذرفت عيناها الدموع وسارت تطلب نسيباتها

اما ذينك الشيخان اعني بهما فاضل وعلام فقد تأثرا كل التأثير من كلام فريدة فتحركت شعائر الحنو الابوي في فواد فاضل ابيها لظنهِ انها لم ترفض هذا البخت الجميل الّا حبًّا بهِ ولاجل ان لا تفترق منهُ اما علام فكان من الرجال الاذكياء فعلم ما في ضميرها وان كلامها الّا محاولة قصدت بهِ التخلص منهما

فالتفت فاضل الى نسيبهِ وقال أرأيت حب هذه الابنة الحبيبة الى اين توصل بها حتى انها فضلت راحتي على سعادتها . فديتها بروحي فمثلي يحق ان يفتخر بمثلها

فعندها اجابه علام وقد كظم امارات الغضب وقال خليلي انك قد اسأت لنفسك بتعليمك هذه ولدك فانك سلمتها لمعلمة قديرة علمًا فتعلمت منها ولدك دهاء اضافته على دهاء فطرتها وهذه اثمار قطفها من لم يكن يكتفي بما

عند النساء من الدهاء بل قد وشحته بثوب العلوم وناهيك عن هذا الكاهن الفرنساوي الذي حوته عندك فانهُ جاء بافكار حرية نؤدّي بها في اوطانهِ وسلمتهُ ارشاد فريدة فاقترنت دهاء النساء مع دهاء معلماتها مع اراء الحرية فحبذا المتعلمة والمتعلمين

فالتفت اليهِ فاضل شذرًا وقال : لا تطلق عنان لسانك على هذا الكاهن الجليل فما حلولهُ في منازلنا الاَّ منة من كرم المولى الكريم فهذا رجل قاسى مر الاضطهاد من لدن اهل مذهب الحرية ولم تطرده فرنسا من احضانها الاَّ لمضادته مبادي الخلاعة والفساد وما نحن الاَّ بغاية الامتنان لاحسانه وقاصرون عن وصف كمالاتهِ

فاجابه علام وقال واعجبًا من اخلاقك الشاذة فانك متى ملت الى جهة تدهورت الى قعر اللجة فويلاً لمن ارشدك وويحًا لمن ايقظك اما انا فاني لا اغير حكمي بولدك ومعلميها واذا ما حضرت نساؤُنا سلمتهنَّ امرها فانها لا تستطيع محاولة على ان النساء دابها الاحتيال على الرجال

لكن قد عسر على احداهنَّ ان تلعب على الاخرى واعلم باني لا اترك هذه الابنة المتعنتة على غيها وان نساءنا يصرفنَ الليل كله ليعلمنَ ما في باطنها بل انهنَّ يسددنَ عليها جميع الابواب ويختلسنَ رضاها رغمًا عن انفها

فقال لهُ فاضل حبذا صحت الاحلام فانك تجهل فريدة واخلاقها اما انا فاني قد تاكدت بانهُ لا انت ولا انا ولا النساء قديرون ان نقنعها بما ليس تقنع بهِ نفسها

وفيما كانا على تلك الحال من مشاحنة وجدال رجع ذلك السرب ودخل البستان وكلٌّ قد سر منها الفواد وجاءت تحمل بعض الاسماك فالقتهُ امام ذينك الشيخين وقصت كل منهنَّ قصتها وما ذاقته من لذة ركوب السفينة . اما فريدة فقابلتهنَّ بكل مسرة وحبور واخذت معهنَّ تلاعب تلك الاسماك ونشترك معهنَّ بالافراح وسارت والشابات الى المطبخ مشتغلات باعداد الطعام . اما النساء فكان قد اوما اليهنَّ علام بان يلبثنَ لديه ويتركنَ فريدة والشابات يتنحين جانبًا اذ رام

المشورة بامرها وكيف يبلغهنَّ ما يقتضي عليهنَّ مباشرته اقناعًا لها بالزواج

فعقدت المشورة واخذ فاضل وعلاَّم يتداولان مع تلك السيدات بشان ما تقدم واتفقوا الجميع رايًا على بذل المجهود بامالة فريدة الى اعتناق رايهم. فانى لكِ التخلص يافريدة من ايدي هذه الدواهي وكيف يمكنكِ ان تحاوليهنَّ فلسنَ شيخًا قديم الايام تخدعينه باظهار التعلق ولسنَ دونكِ دهاءً فتفلتين من الاشراك. فانى لكِ ان تذهبي في الميعاد الى اسفل ذلك الغار وتعلقين كتابتكِ فيتمناولها جميل ويحدر اليكِ كتابة وهب قد مكنتكِ الفرصة أفما تخشين ركوب البحار والليل حالك وكيف تنجين من التهالك. هذا وهل يليق بكِ ان تسيري خلافًا لرضاء والدكِ فها قد اقنعتيه بالمحال ورفضتِ طلبه هل ترومين ان تزيدي على ذنبكِ ذنبًا اخر وهو مع ذلك يركن اليكِ ويثق بفطنتكِ. لاغرو ان ما تقصدينه من الممدوحات اذ انكِ ترومين بموادة جميل ارتداده الى الله تعالى واتخذتِ فرصة

ميلهُ نحوكِ لتميليه عن طريقهِ وتجذبيه الى الطريق القويم نعم غاية تقصدينها لكن هل نصنع السيئات لتاتينا الخيرات لعمري ان احسن الاميال واشرف المقاصد ان لم يدبرها حكيم مالت بصاحبها عن طريق الهدى ودهورته في لجة الضلال واجلبت عليهِ سوء العواقب

في ما اجرته الحكومة من التفتيش على جميل في قصر ابيه ونواحيه

فلنرجع الان بالكلام الى ما حمل جليلة على مقاطعة اخيها وعدم مكاتبتها لهُ على ما تقدم ذكره انفًا فلما وصلت كتابة جليلة الى اخيها غب ان كانت قد مضت ايام ولم تاتِ اليه وتواصله بالاعلام تلا الكتابة واستولت عليه الاحزان وتركناه يغوص في بحر الاكدار . ولا غرو ما كانت ذكرته لهُ اخته شانه ان يجعله فريسة الهواجس على ان جليلة كانت قد اخبرته بما جرى في تلك الاثناء

من التفتيش عليه في جميع النواحي والجهات فلاجل ان لا توقظ الافكار عولت على الاقامة داخل الدار ولم تخرج خارجًا لا ليلاً ولا نهار

فقد كان حضر الى تلك الاطراف رجال اغراب واخذوا يطوفون الربى والهضاب وكثيرًا ما كانوا يجلسون فوق ربى يشرف على قصر جليل فحارت الناس بامر هولاء الاجانب ولم يعلموا مقصدهم ولم يكتشفوا على خافي امرهم فاخذ سكان القصر يخمنون التخمينات ويحسبون التحسبات ويرشقون اولئك الاجانب بسوء الظن ويفوهون ضدهم بالتقولات

اما الرجال المذكورون فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة يقصدون القهاوي ومحلات اجتمع فيها محبوا البطالة من اهل تلك القرى وقد كثر ترددهم على قهاوي تفتح ليلاً يجتمع فيها كل عطيل. فلما كانت احدى الليال وقد انشغل قاصدوا ذلك المكان بالسكر واللعب اخذ احد اولئك الاغراب يثني على حسن موقع تلك الجهات

وما فيها من الحدايق والبساتين. ومن القصور الجميلة التي يصرف فيها شرفاء جينوا احسن فصول السنة الى ان ذكروا قصر جليل وبدأوا يصفون حسن موقعه واتقان بنائه ويسالون عن صاحبه هل هو ممن يستحقون امتلاك مثل هذه الاملاك الغالية القيمة فما كان من احد الموجودين الاَّ قد نهض حالاً واجاب قائلاً

ان مولانا جليلاً صاحب هذا القصر الجليل والاراضي الغالية الاثمان من احسن الرجال فضلاً ولهُ اليد البيضا على جميعنا وكثيرًا ما يسعى براحتنا ويقدم لنا اشغالاً ننتفع بها . فقاطعه نديمه في الكلام وقال

اينك عن ابنته جليلة ذات الفضل والفضيلة التي تبادر الى سد احتياجاتنا بمساعيها الخيرية . فتراها تقصد منازل الفقراء والضعفاء وتغيث المصاب وتسخى بالعطا وتربي اولادنا وتساعد نساءنا فسقيًا لوالدين انعم عليهما المولى بمثل هذه الدرة المكنونة فانها قد اخذت عن والدتها ففاقت عليها فضلاً وازدانت ادابًا وامتازت شهامة

وغيرة . فما اتم هذا الكلام الا قاطعه جليسه الاخر وقال

حبذا لو كانت مولاتنا على ما قل من التورع المتفاوت الحدود وخففت ما عندها من عظمة النفس . واجمل من هذا كله حبذا انشغلت بامورها الخاصة وما تداخلت بامور غيرها افما انها بوشاياتها لخوري المكان لا نستطيع نحن دخول القهاوي في اوقات الصلوة والارشاد . فكم قد سعت ضدنا فاكسبتنا مر التوبيخ والتونيب فكانك بنا تحت امر ملكات استعبدنَ حريتنا

فعندها صاح اخر وقال . اسكت يا نذل الانذال . اهكذا تتكلم ضد احسن السيدات واكرم المحسنات. افاتك ما نالته عائلتك من افضال مولاتنا افما انها قد استجابت رجاء امراتك بشانك لماسطوت على املاك مولانا ودخلت البستان وقطفت منه الاثمار . افما تذكر ما كنت تاخذه من الدراهم من جميل ابنها

فعندها التفت احد اولئك الاجانب وقال لعمري لا اقبح من مجالسة السكارى فقد توصل بهم سكرهم على

ان لا يميزوا بين الذكر والانثى فيسمون الابنة ابنًا
والتفت نحو قرينه والقدح بيده طفاح وقال شربناها
حبًّا براسك يا احسن الخلان

اما ذلك الطاعن بحق جليلة ابنة جليل ما زال
يقذف بحقها المنكرات ويقول لعمري لم ينقص مثل
هولاء النساء الّا ان يكنَّ رجالاً على انهنَّ قد اختلسن
سلطة الرجال فحكمنَ برقاب عباد الله فكيف اذا ما كنَّ
حقًّا رجالاً لا شك كنَّ خربنَ الدنيا وقلبنَ نظامها

فالتفت اليه ذلك الغريب وقال لهُ : الآن قد فهمت
مقالك كانك تروم القول بان لمولاكم ولدًا ذكرًا خلا
ابنته التي وصفتها

فاجابه نعم ان لهُ ولدًا ذكرًا يدعي جميل لكن لا ذكر
لهُ كانه ليس بالوجود

فساله الرجل لِمَ ذلك . اهل هو معتوه العقل اما
اصابه داء قتال فلا يستحق ان يذكر بين الاحياء

فاجابه المسئول قائلاً : لرب هذه الاملاك ولد حاكى

فارة استنشقت رائحة فريسة فسارت نحوها واذا بها قد شعرت برائحة طعم في فخ نصب لها فرجعت حالاً الى الوراء واوت وكرها خوفًا على نفسها من الاخطار. فان جميلاً ولد جليل استنشق رائحة القرعة فشعر برائحة البارود والرصاص والسيف والرماح ففر هاربًا

فقال له الرجل هل صدقًا تكلمت ترى الى اين يفر الهارب من ايدي ملك الفرنسيس فلقد يحط عصا الترحال داخل اقطار المغرب

فلما كان الغد هجر اولئك الرجال تلك النواحي ولم يعد يراهم انسان غير انهُ قد جاء غيرهم وحذوا حذوهم واخذوا يجولون تلك الاطراف فالقوا الهواجس في الافكار. فقلق الكبار والصغار. ولم تمضِ ايام الَّا وسمعت في ليلة ادلهم ظلامها وكثرت اهوالها قد طرق باب قصر جليل وقد ارعدت وابرقت. وميازيب السما قد انفتحت. وهاج البحر وجاش. وتلاطمت منهُ الامواج. فعوى الكلاب الحرس فقلق النائم من الناس وهو اذ ذاك

في اول هجعة ولما كان مخدع جليلة فوق الباب استفاقت من رقادها وقد استولى عليها الخوف من الطارق في ذلك الليل المدلهم فنهضت من فراشها . وتوشحت بملابسها . وفتحت طاقة المخدع لتقف على حقيقة الحال وفي الوقت نفسهِ كان البواب قد استفاق فقيل لهُ افتح في الحال فاجاب مهلاً يا خير الرجال . الى ان اكون نهضت من فراشي وتوشحت باثوابي . فقالوا افتح فاننا ضابطة الحكومة افتح عن امرها السامي والاَّ ... هذا وكانت جميلة تسمع هذه الاقوال . فاستولت على قلبها الاهوال . وقالت في نفسها ما مقصد الضابطة من دخول منازلنا والليل قد مضى ثلثاه والامطار قد غرقت الاقطار . لعمري قد حارت مني الافكار . وكأنك بي قد حاقت الاخطار . ولا مناص ولا فرار . من وقوع القضاء والقدر

لكنها لما كانت من النساء القديرات الشجيعات الصابرات على المحن والافات لبست حالاً ملابسها وانحدرت من مخدعها وقصدت المنزول وكان قد رقد

فيهِ تلك الليلة احد قواد الجيوش الفرنساوية في رجوعه من صافونا فلما قامت امام الباب قرعت خفيفًا فاستفاق القائد وقال من القارع الباب

اجابته جاريتك ياًمولاي افتح الباب ولا تخف فقد استدعت الضرورة ايقاظك في هذا الآن . عفوًا يا مولاي فالعفو من شئم الكرام

فنهض القائد واتشح بوشاحه وفتح الباب وسأَلها ما الداعي لقلق افكارها

فاجابته مولاي ان الضابطة قد طرقوا باب القصر وطلبوا الدخول ولا غرو انهم قد جآوا يقبضون على والدي بسبب هرب اخي فان حسن لديك وجئت بابي اليك فاتخذه تحت اكناف حمايتك. فقال لها ايتِ بهِ في الحال

فذهبت جليلة الى ابيها وقالت لهُ : ابتِ لا تجزع ولا تقلق . اتشح بوشاحك واتبع مني الخطوات

فاجابها ولمَ ذلك وما الذي جرى اخبريني هل

والدتكِ قد استيقظت وهل جزعت وقلقت

فقالت ابتِ لا . اعطني يدك فسرتُ بك الى مخدع القائد فالبث هنالك بمعزل عن الاخطار . لان جنود الحكومة داخل الدار . فذهبت بوالدها لدى القائد ورجعت الى مخدعه فرتبته ترتيبًا اوهم الداخله ان لم يرقد فيهِ انسان تلك الليلة وهرولت حالاً الى مخدع والدتها

وفي تلك الاثناء كان البواب قد استدعى الخدامين وفتح الباب ودخلت الضابطة وقد غرقتهم الامطار فقال لهم سادتي انَّ لحالتكم كئيبة أتؤذنون ان نشعل لكم النار ونأتيكم بالمشروب الى ان ...

فاجابوهُ اصنع ما انت صانع بدون مطال

فادخلهم الى قاعة اضرم فيها النار وجاءهم بالخمرة والمشروبات المسكرات وقال سرًّا لاحد الخدام اذهب الى مولانا واعلمه بالحال

لعمري كم من الحوادث الهائلة رأينا فيها نساءً فقنَ شجاعة على الرجال . وزدنَ بسالةً على الابطال وقد ابدت فتاة

من حسن التدبير ما لم يخطر لعقل عاقل خبير. فان جليلة ذهبت حالاً الى والدتها وايقظتها وقالت لها

يا اماه لا تقلقي ولا تجزعي فان الضابطة قد دخلوا المنازل قاصدين القبض على جميل وقد زعموا انه موجود داخل الدار لعمري انهم يصرفون الليالي والايام ولا يقفون منهُ على اثر. فاني استدعي تلكِ الجارية في الحال فاذا ما جاء الشرط وسالوا عن جميل فلتقل لهم ان جميلاً ليس هنا بل قد سافر الى اقطار بعيدة وان والدي قد ذهب الى اشغال تستدعيه خارجاً عن المنازل وكوني لنحوه براحة بال على اني قد ادخلته مخدع القائد حيثما اصبح في امان اما انتِ فلا تخافي بل توكلي على الرحمن واستشفعي بسيدة الاكوان فانها الملجأ في حال الاحزان

قالت هذه وذهبت تطلب الجارية فامرتها بالجلوس لدى مولاتها ثم انحدرت الى حيثما كان الشرط وفي مرورها افهمت الاتباع ان قولوا ان مولانا ليس في الدار فيقولوا لكم اين هو. فقولوا لهم لا نعلم

قالت هذا ودخلت القاعة فنهض الضابطة وحيوها بالسلام فاشارت اليهم ان اشربوا المشروب واصطلوا على النار فاجابوها قد تكرم الخدم علينا بالمشروب فشربنا واننا لافضالكم شاكرون غير ان مأموريتنا تجبرنا على اجراء ما لاجلهِ لهذه المنازل قصدنا

فقالت ولِمَ تطلبون

اجابوا اننا لهذه المنازل داخلون واياها مفتشون

قالت اجروا ما انتم قاصدون فلا غرو ان المنازل مفتوحة لاوامر الحكومة وما نحن الّا خاضعون لما بهِ العدل لكن من ايّا مكان تبتدأون ايها الفرسان

اجابوا من هذه المخادع

قالت دونكم والشروع

فدخلوا مخدع البواب ومخادع الخدم فسالوا من الراقد ههنا اننا نرى الفرش معد

فاجاب الخدم هذه مخادعنا ونحن فيها الراقدون

وساروا الى ما قدام فرأوا قاعة المنزول وجنديًا واقفًا

بالرسميات على الباب سالوه فاجابهم ان ههنا قائدنا

فعندها خرج القائد بالملابس الرسمية وسألهم ايتوني بالاوامر فقدموها له فقال سيروا مكملين ما بهِ امرتم ورجع الى مخدعه اما هم فساروا الى ان وصلوا امام مخدع جليل فسألوا من الراقد ههنا

فاجابتهم جليلة في الحال ان ذا مخدع والدي ولا يرقد فيهِ انسان لان صاحب المخدع خارجاً عن الدار

فسألوها اين هو والى اين قد ذهب

اجابتهم لا يلتزم والدي بان يطلعني على اعماله ولست رئيسة امره لاعرف اين يذهب

فقالوا لا بد لنا من دخول هذا المخدع

فاجابت اصنعوا ما انتم صانعون

فدخلوا وفحصوا ولم يروا احداً فخرجوا طالبين سائر المخادع الى ان وصلوا الى مخدع جميل فقالوا من الراقد ههنا

اجابت لا يرقد فيهِ انسان فان ذا مخدع اخي جميل

وهو خارجًا عن الاوطان فدخلوا وقالوا لابد لنا من القبض على اوراقهِ

اجابت للحكومة حق بذلك غير اني لا اسلمكم الاوراق الّا بختمنا وختم الحكومة معًا فهاك ظرفًا ضعوها فيهِ واختموه وعن ذالك مسئولية كلية

فجمعوا الاوراق وختموها وساروا في سبيلهم فما وصلوا الى احد المخادع الّا قامت جاليلة على الباب وحذرتهم من الدخول وقالت هذا مخدع والدتي ولا تأذن الحكومة بهتك حرمة خدر المخدرات قولوا لي لمن تطلبون فاجيبكم على سوالكم

قالوا اننا نطلب والدكِ واخاكِ

اجابت لا والدي ههنا ولا اخي بل امي وحدها ثقوا بكلامي الصادق فاني اثبته بيمين اقسمتها براس من عز لديَّ

فكان من احد الضابطة وهو رجل متوحش شرس الاخلاق ان حاول الهجوم على المخدع فما كان من رئيس

الضابطة الا قد التفت اليه شذرا فعندها بسطت جميلة يدها الى الرئيس كانها تشكره عن حسن ملحوظه وسلمتهُ خاتمًا من الالماس كانت قد وجدته في خزانة والدها ففهم رئيس الضابطة بهذه اللغة وعلم ما هو المقصد فاشار لجماعته ان سيروا من ههنا فقد وثقنا بكلام هذه السيدة الكريمة بنت الكرام

فما فاه بهذا الكلام الا كان الباب قد انفتح وخرجت جميلة والدة جليل وحيت اولئك الرجال بالسلام وقالت لهم ادخلوا المخدع وسيروا بموجب اوامر روساءكم فان ابنتي قد راعت حرمة الاخدار اما انا فاني اراعي حرمة اوامر الحكومة

فالتفت الرئيس وقال ايتها السيدة المصونة لا اقتضاء للدخول الى داخل فاني ورفقائي قد شاهدنا داخل المخدع فالقوا الالحاظ على ذلك المكان ورجعت خطواتهم الى الوراء. وكان في تلك الاثناء قد بزغ الفجر فسارت جليلة بالقوم الى القاعة وقدمت لهم الماكول والمشروب وغب

ان خرجوا من الدار رجع السكان كلٌ الى مخدعه

اما جاليلة فذهبت الى مخدع القائد فرأت والدها جالسًا وقد غاص بحور الافتكار فاخذت تشجعهُ وتعزيه ثم ذهبت الى والدتها و بذلت نحوها العناية وشجعتها غب ذلك صعدت على السطح وسرحت الحاظها في جهات القصر فرأت الشرط قد تفرقوا في كل تلك النواحي مفتشين داخل البستان والحدائق فتاكدت شدة الاخطار فلذا قطعت المكاتبة مع جميل ولم تركب البحر فتحضر اليهِ ليلاً على ما كان من عادتها

وكان ذلك النهار نهارًا كثر فيهِ القيل والقال فلهج قوم ان جميلاً كان داخل القصر فقبض عليهِ الشرط واوثقوهُ بالقيود وذهبوا بهِ الى مركز الجندية واشاع غيرهم ان ليس المقبوض عليهِ جميل فقط بل رجل اخر عاصي الحكومة وقد اختفى داخل القصر منذ اكثر من عشر سنوات متوالية ولما اغربت شمس النهار وولج الظلام قرع باب القصر فسأل البواب من القارع

فاجابهُ افتح يا هذا ففتح فكان الداخل رئيس الضابطة فالتفت الى البواب وقال لهُ اعلمني يا هذا هل كريمة مولاك ما برحت مكحولة الاعين بالسهاد

اجاب البواب نعم ما زالت مولاتي جالسة في مخدعها

فقال لهُ سألتك ان تدعوها الى ههنا ولا تدع انساناً يشعر بك

فاجابه البواب ان ذا لا يكون لقد نرتعب مولاتي ولقد تحاول انت القبض عليها

فقال لهُ لاتخف يا هذا ان خوفك واقع في غير محلهِ فبالعكس فان عندي ما اقولهُ لها وهو مما يتعلق بصوالحها

فذهب البواب في الحال واستدعى مولاته جليلة فحضرت فما وقعت الحاظها على رجل الحكومة الّا قد سرت الرعدة في اعضائها

فقال لها رئيس الضابطة لا تقلقي . ولا تجزعي . انما قد اتيت الى ههنا لاطمئن افكاركِ فاعلمي ايتها السيدة المصونة ان الحكومة قد بذلت المجهود بطلب اخيكِ واجرت

التفتيش عليهِ حتى وفي اقصى الجزائر البعيدة ولما لم نقف له على اثر حكمت بكونه لم يخرج من الدار . وانه ما زال مختفيًا داخل هذه الاقطار . فلذا حضرنا الليلة البارحة نطلبهُ في القصر وما زلنا نطوف الجهات والخبايا والخلوات بقصد القبض عليهِ فجئت الآن اوقظكِ لتكوني على بصيرة وتأخذي الاحتياطات اللازمة اذ قد رثيت لحالكِ عليهِ ولستِ ممن لا تستحق مراعاة الخاطر وحبذا كان في وسعي اراحة بالكِ وانقاذكِ وعائلتكِ من هذا الخطر المريع على ان ما اظهرته البارحة من الانسانية جعلني عبد رق لالطافكِ ولمثلكِ تجب كل الملاحظات فضلاً عن اني بكر عائلة امتازت بين اعيان ايطاليا فقبضت حكومة هذا الزمان عليَّ وادخلتني الجندية غصب ان عكرت كاس راحة عائلتي البائسة فمات والدي غمًا وهمًا على فراقي وما برحت والدتي تقاسي اشر الاهوال لغربتي هذا واني قبل مبارحتي الديار كنت مزمعًا على الاقتران بفتاة جمعت بين المحاسن الطبيعية . واجمل المزايا

الادية . ففرق البين شملنا . ولعبت ايدي سبا بنا . وما برحت والدتي تعتني بتلك التي احببتها نفسي واني على فراقها بمعزلٍ عن كل سلوى فلذا رثيت لكل عائلة اصابتها مصيبتي

فما ارسلتني الحكومة لاقبض على احد الاَّ قد تمزقت احشائي كمدًا على اهلهِ . أفما شاهدتني البارحة ابذل العناية بما بهِ مرضاة خاطركِ واعلمي باني كل مرة وجدت مع الضابطة بذلت مجهودي بما يأول لمسرة عائلتكِ فقد جعلني حبي لوالدتي ان لا اكسر بخاطر والدة وميلي لمن احببتها نفسي صدني عن تكدير خاطر كل فتاة فارسلت لها الخاتم الذي تكرمتِ بهِ البارحة واعلمتها بحالتكِ .

فما اتم رئيس الضابطة كلامهُ الاَّ قد التفتت اليهِ جليلة تعرب عن شعائر الامتنان عما ابداه نحو عائلتها من الاحسان وانهُ قد تحقق عندها حسن شمائله وان ما كان قد ابداه الليلة البارحة من مراعاة الخاطر اكد لها كريم شيمه . غير انها قالت لهُ اعلم يافارس الفرسان ان اخي قد

بارح الاوطان . وفارق الاقارب والخلان ولا نعلم لهُ مكان . فان كانت الحكومة قد اجرت الفحص والتدقيق في الجزائر البعيدة وفي الجهات القريبة فلها ان تجري ما شأت اما نحن فلا نعلم لهُ مقر وعلى كل فليكن مؤكدًا لدى كل عاقل اديب ان اخي بعيد عن الدار ولا يعلم الاهلون اين توجه ولا كيف استقرت بهِ الاحوال

فاجابها مولاتي قصدت اعلامكِ بما نقدم ايقاظًا لافكاركِ فاصنعي الان ما شئتِ

قالت ايها الفارس الهمام شكرت افضالك عن هذا الاحسان . واني لك بغاية الامتنان . فما غيرتك الاَّ قد نشات عن علو الهمة وسمو الغيرة فقد عاملتنا بالرفق فاقبل عن ذلك جزيل الثناء وفي كل فرصة لا تغرب عنايتك عنا

قال مولاتي ان راعيت الخواطر فقد وقعت مراعاتي في محلها واني بهذا الاستعداد عولت الان على الانصراف سا لته تعالى راحة افكارك فكوني في سلام وظللكِ المولى

بظل الامان ونهض طالبًا الانصراف وجليلة تثني على الطافه وتشكر احسانه هذا ما كان من امر جليلة واحوال عائلتها

فليرجع الان الكلام الى فريدة فان نسيباتها ما برحن ينتهزنَ فرصة بها يجرينَ ما امرهنَّ بهِ فاضل وعلام اما هي فدخلت مخدعها واستدعت جاريتها وقالت لها: اذهبي الان ياجوهرة الى مخدع ترقد فيهِ ابنة عمي هذه الليلة واجعلي لي فراشًا بالقرب من الباب حتى اذا ما رقدتْ هي ورقدتُ انا اتيتِ انتِ اليَّ فنهضتُ ورقدتِ في فراشي لانكِ تعلمين كثرة اشغالي ولا يمكنني ان اصرف الليل كله ساهرة عليها

قالت مولاتي هب استفاقت ليلاً ونادتكِ فما الذي افعلهُ

اجابت لا تخافي انها لا تستفيق ليلاً وانها استفاقت غدًا والشمس راد الضحى

قالت هب اننا اخطاءنا ظنًا ونادتكِ ليلاً لعمري

ان ذا مما يوقعني في حيرة

اجابت قلت لك انها لن تستفيق لاسيما بعد مقاساتها مشقة السفر

فذهبت الجارية واعدت الفراش على ما امرتها مولاتها اما فريدة فاخذت تهتم باعداد الماكول والمشروب ولما حان الاوان مد السماط وجلس الجلاس ودارت الكاس وسر فواد كل وطرب واخذت فريدة تعتني بنسيباتها وتراعي خواطر اقربائها غب ذلك ذهبت بنسيباتها الى البرية وكانت اذ ذاك نساء ذلك المكان وشاباته قد خرجن عند المساء قاصدات البرية لاستنشاق الهواء ثم ذهبن زائرات هيكل العذراء الجليلة عليها اشرف السلام فسارت فريدة وخليلاتها مع تلك الفيئات الكريمة ولما دخلن الهيكل اخذت شابات ذلك المكان تترنم بالتسابيح الالهية وتنشد المدائح تكريمًا لسلطانة البرية وحبذا المكان وحبذا تلك الالحان فان عبادة والدة الاله قد تاصلت في قلوب سكان تلك الاقطار حتى انها رغمًا عن

انف اهل الكفر الذين افرغوا المجهود باستئصالها من القلوب ما برحت تنمو وتزهر وقد سادت سيدة العالمين على افئدة الاهلين المسيحيين الصادقين

وكان يوم مباركًا على نسيبات فريدة واقربائها اذ قد انشرحت منهم الصدور . وطفح كاس الحبور . لما شاهدوا من الجمالات الطبيعية ومناخ البرية غب ان كنَّ قد بارحن جينوا ومساكنها الملتصقة ببعضها ولم يكنَّ ينظرنَ فيها الّا بعض ضوء النهار ولم يخرجنَ من المنازل الّا ما قل وندر . فلدى رجوعهنَّ الى قصر فاضل اشارت النساء الى الشابات ان اذهبنَ الى مخادعكنَّ فقد حان اوان الرقاد فصخنَ سمعًا لاوامرهنَّ وذهبنَ يكحلنَ الاعين بالوسن اما تلك النساء الدواهي لما كان فاضل وعلام قد اوعزا اليهنَّ ان يبذلنَ المساعي سلبًا لرضاء فريدة التفتنَ اليها وقلنَ ايتها الحبيبة افما تلبثين معنا حصة فاننا لرؤياكِ باشتياق شديد ما عليهِ مزيد

اجابتهنَّ كيف لا وقد هامت نفسي الى الاقامة

لديكنَّ فهذا جارية امتثلت بحضرة سيداتي الكريمات فحبذا مثل هذه الاوقات

فعندها اخذت النساء تغريها على الاقتران بذلك الشاب الحسيب النسيب الذي تقدم الكلام عنهُ ويبالغن بغناه وحسن مزاياه وانها لمغبوطة من تاق اليها ورام الاقتران بها وقصاري الامر قد مددنَ لفريدة جميع الاشراك اما هي فسدت بوجوههنَّ كل الابواب فقابلت دهاء باعظم دهاء فخاب السعي وحبطت الاعمال فعندها اخذنَ يجاهرنَ بالخصام ويصفنها بالتعنت والعناد

فقالت سيادتي لِمَ هذا المقال . ولِمَ الاحتيال . فان كان ذلك الشاب الذي عنهُ تعنينَ على ما تصفنَ فدونكنَّ وان تقرننهُ ببناتكنَّ فاني لحظهنَّ راغبة وعلى غبطتي مفضلة

فاجبنها اما هو فانه لا يريد الاّكِ

فقالت واما انا فاني لا اريده قريناً لي . فاهمت بهذا والتفتت اليهنَّ وقالت كاني اسمع صوت ابنة عمي تستدعيني

اليها اذ قد حان اوان رقادها فكنَّ ايتها السيدات على اتم الراحة والانشراح ونساله تعالى ان ترقدنَ ليلتكنَّ بكل راحة واننا نشاهد بعضنا متى اصبح الصباح

قالت هذا وذهبت في الحال الى نسيبتها فراتها ختمت صلاتها فقالت لها اخلعي يأحبيبة عنكِ الملابس وهاك ما بهِ تتشحين وارقدي بسلام واعلمي اني اسير بحسب مرضاتكِ نهارًا وانادمكِ واتحدث اما ليلاً فكوني ساكتة صامتة ولا تكلميني لفظة والاَّ تركتكِ وحدكِ داخل المخدع

اجابتها واذا ما استفقت فكيف اصنع

قالت اسكتي واستكني الى ان يكون اصبح الصباح فمنذ الان قلت لكِ ان وعدتني بملازمة السكوت رقدت عندكِ والاَّ تركتكِ وحدكِ

اجابت قد وعدتكِ بذلك

قالت فارقدي الان بسلام وها اني انا ايضًا اخذت بقيام الصلوة وغب ذلك ارقد وانام ومنذ الساعة دعوت لكِ بالراحة والسلام

الفصل التاسع

في العاصفة القاصفة

اما فريدة فتركت نسيبتها تخوض بحر الرقاد . وخرجت تطلب الجون . وكان الليل اذ ذاك قد قارب الانتصاف فركبت السفينة وضربت المجذاف وهي تخاف من خوض الاباحة خشية الرقيب . فساقتها غير بعيد عن الشاطي الى ان وصلت الى اسفل الغار . فرفعت الحاظها الى العلا فرأت خيطًا قد تعلق فيهِ شيئًا ابيض . فمدت يدها اليه وعلقت بهِ كتابتها . فرفعها جميل اليه . وفيما كان ينشغل بتعليق كتابته فيحدرها واذا بالريح قد هبت . فلطمت الامواج السفينة فابعدتها الى الوراء . فاخذت فريدة تعالج سفينتها وتدنيها من اسفل الغار . لكن قد خابت منها الامال . على انها كلما دنت ابتعدت وكلما قاومت موجًا صدتها امواج الى ان خارت منها القوى وسرت

الرعدة في جميع اعضائها هذا والامطار تسكب . فصارت ملابسها ثوبًا مبلولاً . فلما كانت على تلك الحال . وقد حبطت منها الاعمال . ولا بد لها من اخذ الكتابة شددت من نفسها القوى وجدت في مصارعة المياه فاوصلت السفينة الى حيثما تتمكن من القبض على ذلك السلك المنحدر من العلا واذا بامواج تكسر على الصخور رجعت الى الوراء فصدمت السفينة فقذفتها الى مكان اقصى . هذا والى حين ذلك كانت فريدة تستطيع ان ترى السلك غير انه في لحظة اشتد الظلام واخذ الجو بالادلهمام فلم يفرق الناظر بين المنظورات . فايست فريدة وقطعت الامال . وقد وقعت في شر الاحوال . فمع ذلك ابدت من العزم ما كان غريبًا . ومن البأس ما كان عجيبًا . فعالجت مركبتها بالمقذاف وساقتها الى حيثما كانت تروم الوقوف فعندها ابرقت فمدت يدها لتقبض على ذلك السلك فولى الرعد القاصف واشتد الظلام الحالك فخشيت فريدة الضهالك . فعندها رفعت الحاظها الى تمثال

نجمة الابحار . المرتفع فوق ذلك الصخر السائد على تلك الاقطار . وصاحت من فواد مجروح كاد يسلم الروح قائلة : يا مريم يا مريم انتِ رجائي الاعظم

فلا يدرك ما وقعت فيهِ فريدة من سوء الاحوال وقاسته من الاهوال . الاّ من قد ذاق ما ذاقت واحتمل ما احتملت في تلك الليلة الليلاء . والبلية النكباء . وقد ركب متون الابحار . ووقع بمثل هذه الاخطار . والامواج تلاطم الامواج . وقد اشتدت الريح وقصفت العواصف فاين الخلاص . الاّ من لدن اله الخلاص . وفيما كانت فريدتنا على هذه الحال وقد رفعت الحاظها نحو الاله المجيب سكنت الريح قليلاً وهدأ البحر فاهتدت الى السلك فقبضت عليهِ واخذت الكتابة المعلقة فيهِ ووضعتها على صدرها وادارت الدفة ورجعت الى الوراء فما قطعت مسافة عن ذلك الصخر الشامخ الاّ قد ابرقت وارعدت واظلمت وامطرت فانفتحت ميازيب السماء وهبت الريح بالسفينة فلطمتها على صخر فارتجت فريدة

ووقعت وكان من الاتفاقات الجميلة انها لم تبرح قابضة
على المقذاف مع ان قد التطم رأسها بجانب السفينة فانفجرت
ينابيع الدماء من انفها فاستغاثت برب القوات ونهضت
من سقطتها وهي تقبض على المجذاف وضربت المياه
فسارت السفينة باسم الاله فاوصلتها الى الجون وقد غرقت
ملابسها بالدم السائل والمطر المتراكم فارست مركبتها
ودخلت البستان وما وصلت الى مخدعها الّا وقد اوشك
الصبح على الانفجار وهي على اخر نسمة من الضنك والتعب
والكدر والنصب . هذا والدم لا ينقطع فاخذت تعالجه
بالمياه وتغسل ايديها والجنات . الى ان اذن رب الحيوة
فملكت من الراحة بعضها فخلعت عنها ثيابها ولبست
ملابس النوم ورقدت لحظة في فراشها واذا بالجارية قد
دخلت عليها فلما رأتها على تلك الحال . خامرها عظم
الانذهال . فصاحت : مولاتي ما هذه الحال

فاستفاقت فريدة وقالت لا تقلقي ياجوهرة ولا تجزعي
فلا باس مما قد شاهدتِ

قالت ماذا تقولين وماذا تزعمين

اجابت قد خرج الدم سيلاً من انفي فلطخ ثيابي

قالت ما هذه ولِمَ ملابسكِ قد تغرقت بالمياه

اجابت لما كنت قد افرغت جهدي وما زال الدم يخرج من انفي قصدت البستان عليّ استنشق الهواء وكانت اذ ذاك الامطار قد غرقت الاقطار . فهطلت فوقي فصار ما قد صار بملابسي

قالت لعمري انكِ منذ امد مديد تستسيرين سيرة الفرسان . لا سيرة بنات الاعيان

اجابت كفي الملام . ولا تكثري الكلام . فقد جرى ما قد جرى وها نحن بامن وسلام . فدونكِ ان تاتي بالملابس وتساعديني على القيام

فصخت الجارية سمعاً . وخضعت طاعةً فنهضت فريدة من الفراش ولبست ملابسها وتبدلت وقالت لجوهرة هل استفاقت نسيبتي ليلاً وخاطبتكِ بامر

اجابت قد تتحرك الصخور الصلدة ولا تتحرك نسيبتكِ

في فراشها وها قد نهض القوم كلهم الّا ها

قالت سيري بنا الآن نحيي الاقارب بالسلام فخرجت من مخدعها تطلب نسيباتها فكنَّ قد خرجنَ الى القاعة فصاح بهنَّ الرجال وقالوا

هلمَّ بنا نرحل في الحال فقد اعدت الخيول والمسافة بعيدة فلا نعلم متى نصل الى هيكل سيدة صافونا لعمري ما داب النساء الّا الابطاء ومن رافقهنَّ سفرًا قد اخطئ

قالت فريدة سادتي الكرام . لا سفر قبل مناولة الطعام . فاشارت للخدم ان اعدوا الماكول في الحال فجلس القوم وتناولوا الماكول والخيول تصهل في ساحة القصر فركب الركب مودعين فريدة وهي تدعو لهم بالتوفيق فقالوا لها أَنما تصحبين اقاربكِ وتسيرين مع خلانكِ

اجابت حبذا صحت الاحلام ان في الواجبات تفاوتًا فلا شيء يتقدم على خدمة الوالدين كيف اباشر السفر واترك والدي وحده في خلوتهِ فاذهبوا الآن بالسلام

استودعنكم اله السلام فان شاء الله صباحًا اشاهدكم في خير

قالت هذا وذهبت حالاً لدى ابيها فقالت سيدي قد حان

اوان الصلوة هل ادعو الكاهن فيقدم ذبيحة الخلاص

اجاب اراكِ ضعيفة وقد علا وجهكِ الاصفرار

كأن الرعود والعواصف لم تدعكِ تاخذي راحتكِ

الليلة البارحة فاذهبي حالاً الى مخدعكِ وارقدي برهةً

فيتجدد قواكِ

اجابت مولاي امرك مطاع غير ان قيام الصلوة

اولى فصاحت بالخادم ان اذهب يافتى وادعُ الكاهن

فكان على ما امرت غير انها ما حضرت الذبيحة المقدسة

الاَّ قد شعرت بزيادة سوء حالها فخرجت حالاً تطلب

مخدعها والجارية قائمة عند فراشها واذا بها قد استولى

عليها بعض السبات غب ذلك الم بها السرسام فاخذت

تخلط بالكلام وتقول

لابد لي من اخذها . لا اذهب من هنا الاَّ بها . دعي

الامواج تلاطم السفينة فان عزمي اقوى . مولاي ما هذه

العاصفة . يا نجمة البحار نجيني من هذه الاخطار . لعمري ما هذه الغيوم وما ذي الامطار . ها قد اسدل الظلام الاستار . فكيف الفرار . دونك يافتى والنجاة اضرب المجذاف ها قد دنا منا القرصان . ويلاه قد طغى البحر وقلب السفينة. هذا وما شاكلها من الكلام اخذت تقذفه في حال السرسام فاستدعت الجارية مولاها فحضر بدون مطال . فلما رأى فريدته على هذه الحال قلق وضجر واشار الى الاتباع ان ايتونا بالطبيب على جناح السرعة فما وضع الآسي كفه الاَّ قد حكم باحتقان الدم في دماغها فامر حالاً باخراجه فصداً

فليرجع الان الكلام الى جميل الذي ما برح ليلته يكابد مر الاهوال على انه لما كان قد رفع السلك واخذ كتابة فريدة المعلقة فيه التفت الى الافق فرأى عاصفة قوية قد تكونت . وامواج البحر قد جاشت وهاجت . فخاف على فريدة وسرت الرعدة في كل اعضاه وما علق كتابته في السلك واحدره الى الاسفل الاَّ كانت قد اصبحت السفينة

العوبة المياه العجاجة فاسبلت استار الظلام وهطلت الامطار ولم يعد يرى ما حل بالسفينة الى ان ابرقت فرأى فريدتهُ تقاوم جبال الامواج . ولم تتمكن من القبض على السلك المنحدر من العلا فهاج وجاش . ورام منادداتها لكي تسعى بالنجاة لكن كانت الرعدة قد استولت عليهِ فلم يستطع صراخًا

فلما كان جميل على هذه الحال من روع واهتيال تراكمت سيول الامطار وهجمت جيوش الظلام على كل الاقطار فلم يهتدِ الى ما جرى وصار عند اسفل ذلك الغار فرجع مرتميًا على الفراش وقد كحل اعينهُ السهاد قلقًا واضطرابًا على حال من احبتها نفسه

فما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح الاَّ قد قصد جميل المحل الذي يشرف على قصر فريدة ونواحيهِ عله يرى سفينتها راسية في الجون فاحدق النظر والتفت يمينًا وشمالاً وغيَّر النظارة وبدَّل وحقق الحافظه في كل الجهات فلم يقف للسفينة على اثر ولما كان عن شعائر الدينية خاليًا

وليس من عادتهِ ان يرفع الحافظه الى رب العلا متى وقع البلا اخذ يخدش وجناتهِ لطماً ويضرب رجليهِ في الارض ضرباً فايس وفشل واستولى عليهِ الخبل. واذ لم يكن لهُ من طريقة يبلغ بها المارب ولم يشاء ان يعلم جايلة شقيقته بالحال اخذ يتبصر كيف يستعلم منها استعلاماً يستانس بهِ ولو بعض الاستئناس عن حال فريدته

فلما جاء الحين المعلوم وقد استقرت سفينة جايلة ليلاً عند اسفل الغار. كان قد علق في السلك كتابة قال فيها: ايتها الحبيبة قد جاش ليلة البارحة البحر وهاج وتلاطمت منهُ الامواج وانها لعاصفة تذكر في بحر الاجيال لما ابدته من الاهوال أفما تعلمين بما نشأ عنها من الاضرار في هذه الاقطار وهل تكسرت سفن الابحار. وقاسى ركبها الاخطار. افيديني بما صار. لانني انقلى على مقالي النار. فدونكِ وان ترىحي مني الافكار

ففي مساء ثواني الايام لما كانت قد استولت جيوش الظلام جاءت جايلة بالماكول والمشروب لجميل فريسة

الخطوب . وما استقرت السفينة في المكان المعلوم الاَّ قد بادر لسحب المطلوب . فاخذ الكتابة ففض منها الختام وما القى الحاظه عليها وتلا اول السطور الاَّ خالته قد اصبح من سكان القبور اذ قد تغيرت منهُ الاحوال . وتشكلت الالوان . اما فاتحة الكتاب فكانت بعد اهداء التحيات : اعلم يا مهجة الفواد ان اقصى مرادي والهيام ان اتيك عن حبيبتنا فريدة باحسن الاعلام . لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن فما زادني تكديرًا انبائي اياك بالاكدار . فهذا المطلع الكئيب . جعل القلب مذيب . غير انهُ لشدة تشوقه للوقوف على واقعة الحال شدد من نفسهِ القوى وضبط على القرطاس ولبث يرتجف ارتجاف واخذ يتلو ما اودع فيها فاطلع على خوافي الامور . وعلم بالمقدور فقالت اخي لما كنت قد هممت الى مقابلة فريدة الفرائد . وخريدة الخرائد . ذهبت الى قصرها والقوم رقود وما دخلت الباب واخذت اصعد سلمًا يوصل الى مخدعها الاَّ وقد جاءَت الجارية لملاقاتي وقالت مولاتي قد ساءَت

منا الاحوال . وكادت تحبط منا الاعمال وتخيب الامال لما نابنا من مر الاهوال . فلما كانت قد جاءت نسيبات مولاتي وبعض الاقارب الى هذه الدار قاصد بن زيارة هيكل العذراء عليها السلام خاطبوا مولاتي بامر الزواج فانكرت فبالغوا بالالحاح وهي تبالغ بعدم القبول الى ان فرّت من ايديهم وقد انزوت في مخدعها فما مضت لحظة الاَّ قد جرى الدم من انفها ولما لم يكن حيلة لقطعه ولم يعلم اذ ذاك بحالها انسان لكوني بت ليلتي في مخدع احدى نسيباتها فنزلت الى البستان تستنشق الهواء وسيول الامطار قد غرقت الاقطار . فنابها ما نابها فجئت اليها غلساً فهالني منظرها ولم تلبث برهة الاَّ قد استولى عليها السرسام فاحضرنا الطبيب وها اننا في رابع الايام وقد قاست مر الاهوال الى ان اذن العلي العلام . بانخفاض الاسقام . فدخلت على فريدة فرأيتها على حال من السقم تكل عن وصفها الاقلام غير انها قد نجت من التهلكة واخذت بالتعافي فالله وحده الآسي الشافي فقد ابتدات بما يكدر

وختمته بما بالخير ينذر فقر عيناً وطب بالاً

فما لبثت عندها حصة الاّ قد رجعت الى المنازل غير ان شدة حبي لها وزيادة قلقي عليها حملتني على عودتها بعد انتصاف النهار فلما شاهدتها وقد اخذت احوالها بالتحسين حمدت رب العالمين . على هذا الفضل الثمين . فحدثتها عنك فاطمأنت منها الافكار واكدت لها بانك على احسن حال فاحدقت بي الالحاظ ولا غرو انها تحبك غاية المحبة هذه الحمامة الكريمة . اما نسيباتها والاقارب لما رجعوا من زيارة الهيكل وراوها على تلك الحال تبدلت افراحهم بالاحزان فلبثوا عندها الى ان زالت الاخطار . فعندها هجروا هذه الاقطار . طالبين الديار

فيا بحير الافكار هواني اخبرت البارحة غلامنا عن انحراف مزاج فريدة فقال لي مولاتي قد قابلت اليوم غلام فريدة فاخبرني بانهُ في هذا الاسبوع نهض صباح يوم ولي ليلة ليلاء كثرت امطارها وهطلت سيولها وقد قصد الجون لينزح من السفينة مياهاً دخلتها فرأى حافتها

ومتذافها غائصاً بالدماء فحار منهُ العقل وارتبك وما خرج منها الاَّ ورأى دماً على الشاطي ففتح باب البستان فرأى من الدم قطرات فسار داخلهُ وقد انتشرت قطرات الدماء في كل طريقهِ حتى داخل القصر . هذا ما علمهُ غلامنا من غلامهم ففي ذلك سر عجيب وانهُ لسر لا يستحسنهُ العقل فما هذا الدم حتى القصر وما هذا الدم المستغرقة بهِ ملابس فريدة فذا لعمري مما يريعني وقد حير افكاري

فما حير افكار جليلة زاد قلاقل جميل ولم يعلم ما هذا الدم وما هي علتهُ اي نعم قد علم بان فريدته قد حاربت الامواج العجاجة غير انه قال في نفسه لو كانت السفينة طرقت بصخر فتكسرت لكانت فريدة تجرحت فاعلمتني بذلك جليلة وها انها لم تزد شيئاً . فلبث الامر مشكلاً عليهِ ولم يعلم خافيهُ لكنهُ اخذ يثني على عزم فريدته وانها لم تجنح الى طلب نسيباتها بل انها ما برحت متعلقة بحبهِ هذا وقد هاجت نيران الغيرة في فوادهِ بل استعرت نيران البغضة نحو من طلب فريدته بقصد الاقتران بها فبغضه بدون

ان يعرفهُ ومع كونه قد تحقق عزم حبيبته ما برح فريسة الخوف من ان تكون تلك النساء الدواهي قد لعبنَ بعقلها وسرقنَ رضاها احتيالاً وهذا داء دفين اخذ يقرض فواد جميل

الفصل العاشر

في ما جرى من المراسلة بين فريدة وجميل

اما فريدة فكانت قد هاجرتها الاسقام واخذت في التعافي تتقدم الى ما قدام فهجرت الفراش وطاب لها بعض الانشغال بالاشغال ففتحت خزانة الاوراق واخذت كتابة جميل المعهودة فما واقعت عليها الالحاظ ورأت ما خضبها من قطرات الدماء الاَّ قد تهيات لاذهانها تلك الليلة الليلاء والبلية الدهماء التي كادت تلقيها طعاماً لحيتان البحور وتلك الحمى الشديدة التي كادت تسكنها القبور فحمدت الالهَ المنان . على ما اولاها من

الاحسان . ودفع عن فواد والدها جيوش الاحزان . غير انهُ قد قلق منها الفواد واضطرب . لما لابد ان يكون قد استولى على فواد جميل من الكرب . لتاخرها عن الجواب . وانقطاعها عن قصد المكان المعلوم . في الآن المحتوم . ومما زادها اكدارًا تاكدها ان جميلاً قد شاهدها تصارع الامواج . وتقاوم البحر العجاج . ولا علم لهُ كيف آلت بها الاحوال وهل قد نجت من الاهوال ام ذهبت فريسة الوبال

فاخذت تطلب فرصةً تكتب فيها الى جميل وتعلمهُ بما جرى لها وصار . وما قاسته من الاخطار . فكررت تلاوة الكتابة وامعنت بها النظر فرأتها كتابة غراء غير انها قد جبلت بوحول الكفر واوخام الضلال ففيها من الشعائر الفوادية ما علا . ومن السجايا السنية ما سما . غير ان عقل منشيها قد حجبت انواره تعاليم الكفر . واظلمتهُ مبادىء الدهر . فحارت بامر موضوع حبها وارتبكت . وعلى احوالهِ ارتعدت . وخسائره تاسفت

فقالت واحسرتاه على تلك الفطرة الجليلة كيف قد افسدها الكفر واحادها عن طريق الهدى . واسفاه على نفس هبطت من العلا . وما زالت تتجه نحو العلا . وهي غائصة في وحول التعاليم المفسودة. والمبادي الممقوتة. كيف ان نفس جميل الجميلة العالية الهمة والسامية الغيرة والمتوقدة حبًا قد تلطخت باوخام الاضاليل . واقتنصت باشراك المحتالين . ربي ما هذه الحال . وكيف التخلص من هذا الوبال . مولاي سالتك بحبك للبشر وبدمك المهراق لاجل خلاص البشر. سالتك مولاي بحب احشاء حللتها. وثدى رضعتها . اما ان ترد حبيب قلبي اليك فيحيا بك واما ان تنزع من قلبي محبته فلا يخط قلب قد هام حبًا بك بحب من اسرت فواده الاميال العالمية . وافسدت افكاره الاراء الدهرية

قالت هذا وطوت القرطاس وتركته الى ان تسنح الفرص ولما كان والدها قد كره الاقامة داخل الدار . وقد طاب ذلك النهار . ركب متون الجواد . واخذ

يستنشق الهواء في تلك البطاح والمهاد. فانت فريدة مخدعها وقفلت منهُ الابواب واشارت الى جواريها ان لايقلقنَ راحتها في خلوتها وقبضت على اليراع تجاوب جميلاً على كتابتهِ فقالت

لقد هالك مشهد شاهدته وفريدة تصارع الامواج واحزنك قطع وصال نشاء عن شدة ما نابني من الانزعاج اذ قد امسيت طريحة الفراش ولم اهتدِ لسوء احوالي اما الآن فحمدت المولى المنان . على ما اولاني من الاحسان اذ قد نجوت من كل الاخطار وملكت من الصحة اكثرها والعافية اوفرها فطب نفساً وقرعيناً من هذا القبيل. فليس لقلق الافكار من سبيل

اما حبك لي وتعلقك بي فاوضح من نار على علم غير اني لما كنت اعهدك من العقلاء . واعلمك من النبلاء . تاكدت ان حبك قد بني على الصواب . وهذه سمات الاحباب . ولما كنتَ ممن يتعمقون في الامور وعلى الحق اعمالهم يبنون . ولاميالهم المنحرفة يكبحون . واذا ما تعلقوا

بحب حبيبهم لم يكونوا من اهل الغرام الاعمى والهيام الحائد
عن الاستوا وقد قابلتُ حبك بمحبة ضارعته ومودة شاكلتهُ
افصحت بالتبيان وجئتك باوضح بيان باني قد هاجمت
الاخطار . وقاومت عزم الابحار . لاقبض على قرطاس
علقته في سلك احدرته لا على ما يستسير اهل الغرام . بل
خوفًا عليك من ان تذهب فريسة الهواجس والعوبة
الوساوس ان كنت لم اتناول الكتابة واتمم اشارة كان عليها
الاتفاق . لعمري ما الذي كان يخامر فواد محب احبته
نفسي لو لم اقاوم الاخطار واكد له اني قد اخذت كتابته
ونجوت من جور الابحار انما كان قد توهم باني قد ذهبت
طعام الاسماك في ذلك الليل الحالك

فما تلا جميل هذه الكلمات وذاق لذات هذه العبارات
الّا قد جاش صدره غرامًا وهام فواده حبًا وقال فديتك
بروحي ياروح روحي فاني لكِ عبد رق لم يطق عتقًا
واسير حب لم يبغِ انعتاقًا . فحبذا التقيد باغلال حب من
سمت بسامي السمات . وعلت بعالي الصفات . انما قد

راق الاستعباد لمن امتازت بين العباد بعلو نفسها العلية . وبسمو محبتها السنية . فلكِ قد خضعت . ولامركِ قد اطعت. فاحكمي بهذا العبد الرقيق. المحب لكِ على التحقيق. فمري مولاتي بما شئتِ وبالخضوع لكِ سمو وارتفاع . فقد ارتقى علوًّا من لاوامركِ قد اطاع

فقد اصاب جميل بهذا المقال لان فريدته قد تربت تربية حقًّا مسيحية تليق بنفس هبطت من العلا . فسقيًا لمن ملك فوادًا جبل بالشعائر الدينية . وبني على المزايا السنية. فلما كانت فريدة قد علمت من كتابة جميل انه عالي النفس غير انه قد انحط عن مقامه العلي بخلاعة الافكار مقتت الاقتران بمن اقترن بالكفر والفساد . فهذه لعمري سيمة النفس الابية . والتربية المسيحية . فعلى من تربت بهذه التربية الجليلة واتصفت بصفاتها السنية اما ان تعدل عن محبة من عرى عنها . واما ان تسعى بان تميله اليها . اذ لا سعادة في الاقتران ما لم يكن مبنيًا على اس الايمان . ولا محبة صادقة في الاقتران . ان كان عن ميل

حيوان . لا عن محبة انسان . استنار بنور الايمان . وسار بطريق الرحمن . فعاش وقرينته لامر مولاها خاضعين . ولمشيئتهِ الالهية مطيعين . وعلى السراء والضراء لامر عنايته مسلمين . وعلى بلايا الدنيا ومحنها صابرين . فمن حيي بالله . لله قد حيي . فهب ان فريدة كان فوادها خليًا من حب جميل وقد عهدته على تلك الحال العارية عن المبادي الدينية لكانت حملتها المحبة المسيحية على ان تسعى بارتداده الى مولاه . واستفاقته من غرور دنياه . فبناءً على هذا الميل الحميد . شرعت بهذا المشروع المجيد . وعولت على ان تخاطبه بهذا الشان . فاخذت قرطاسًا ومداد . وتوكلت على رب العباد . واعربت عما استكن في فوادها من الرغائب . مؤملة بلوغ المآرب . بحول العلي القدير . فخاطبت جميلاً خطابًا ارق من النسيم . وبينت لهُ طرق الهدى تبيانًا يقشع الحجاب عن البصائر . بدون ان يمس الشعائر . فلم تدخل معه بالمشاحنة والجدال . ولم تتخذ طرق الاحتيال . بل قد اوضحت لهُ كل الايضاح

ان كل محبة لم تكن محبة الله ركنها كانت فارغة باطلة . وواهية غير ثابتة . وان اخص سمات المحبة بنيانها على محبة اله الحب فلم يلتحم قلبان التحامًا صحيحًا ولم ينضم فوادان انضمامًا خلوصًا ما لم يكونا مفعمين بحب الخالق وقد بنيا على محبته حبهما الخلائق . واخذت تعرب عن هذا المبدا الصحيح باساليب لطيفة . وعبارات شريفة وفصاحة عجيبة . وبلاغة غريبة . وقعت في فواد جميل احسن موقع . فانقشع البرقع عن عينيهِ فمال قلبه الى ذلك الكلام . وخرج عن دائرة الاحلام . فشعر بما كرهه بحالته الماضية واولاه حالةً طابت لديه . وراقت لناظريه . فسار وراء ذلك الدليل الجذّاب . وكرر تلاوة الكتاب . فاطلع على ما سبق من جهاله وتقدم من غيه وخضع لصوت يدعوه ولم يكن قد علم حقيقة ذلك الصوت فسلم نفسه لقوة جذبته واميالٍ جديدة استولت عليه فخلته كمن قد استفاق من سبات النوم . فلم يكن من الراقدين لكونه قد استفاق ولا من المستيقظين لكون الرقاد ما زال متغلبًا عليه

فبينما كان على تلك الحال بين نائم ويقظان قبض على
اليراع وكتب الى فريدته كتابة قد شكلتها اراء قديمة
امتزجت باراء جديدة فكانها قد تطرزت بمبادي الباطل
وتعاليم الحق معًا ونقشت باشواك الخلاعة وزهور الاداب
وزبلت باوخام الاميال الخلاعية وسقيت بقطر الشعائر
الدينية معًا. وبالاجمال لما اطلعت فريدة على تلك الالوكة
وعلمت انها قد نشأت عن فواد من قد تاصلت فيهِ التعاليم
الكفرية والمبادي الخلاعية بين شعائر رفيعة جليلة
استيقظت في نفس علية وصخت سمعًا لصوت يناديها
ولا تعلم ما ذلك الصوت فرامت الانعتاق من اشراكها
القديمة ولم تتمكن وترغب في اتباع مناديها فلم تعرف. غير
انها قد قطعت اكثر الاشراك وبسطت اجنحتها تحاول
الطيران نحو الصوت المناديها لشدة ميلها اليه ورغبتها فيه
فلما اطلعت فريدة على هذه الحال تحاشت طرق
الجدال وجاوبت جميل بدون مطال . وكان الفتى
الغائص بحور اراء العصر والتائه في اقفار مبادي

الدهر ينتظر من فريدة براهين سديدة وادلة قاطعة وايضاحات جلية. اما هي فقد خاطبته بهذا المقال واشارت اليه ان دونك وهذه الحال

فقالت: ارفع يا جميل الحاظك الى العلا وتوسل لاله السماء والتمس الانوار من لدن ابى الانوار واستشفع بام الرجاء وعليها ضع كل الاتكال فبهذه تتوصل الى احسن حال فحيها صباحًا ومساء وفي ابتداء اعمالك وانتهائها بالسلام فاصغَ لمشورتي استودعتك اله السلام وحماية ام السلام: وهاك طي هذا الكتاب ايقونة ام الرجاء فضع عليها كل الرجاء واعلم انها لايقونة كريمة لديَّ فكثيرًا ما مثّلتها امام ناظري وقبلتها بنيّ فانها ايقونة ام الاحزان الكليمة القلب حبًّا بالانسان فكم قد بكيت امامها واذرفت الدموع وكم قد تضرعت بملء الخشوع فاقبلها تذكرة الحب الصادق وارفع الحاظكِ نحو ممثلها. فاني قبل أن ارسلها اليك رفعت نحوها الالحاظ وقلت يا ام الرجاء قد ارسلت ايقونتكِ هذه

الى من احبته نفسي واضعة عليكِ كل الرجاء فاميلي به الى فادي الخلاص وانيريه بتعاليمه الغراء وشجّعيه على الكفر بالكفر والسير بطريق الهدى. هذا وتضرع ايها الحبيب لاجل حبيبتك لانها بغاية الاحتياج للدعا عساه تعالى يصلحها فتكون امة لا ائقة بهِ

فما قرأ جميل هذه الكلمات الاَّ قد صاح وقال: ما الذي تقولين يافريدة الشمائل هل انا المتوسل لاجلكِ اهل تعلمين ما هو جميل وما هي احواله الشقية ومزاياه الردية لعمري كيف اتجاسر وارفع الحاظي نحو ام الطهارة وانا متدنس بالاثام. افما تعلم ملكة السماء حالي الكئيبة وقبائحي الغريبة ومع هذا تلتمسين يافريدتي الجليلة ان اتوسل لاجلكِ. غير انه لما كان جميل يفوه بهذه الكلمات وقد بانت لديه حالته الشقية وغاص في عمق لجة عدمه خجل من ذاته وانطرح من ذاته على الارض ورفع اعينه الى تلك الايقونة الكريمة وصرخ هاتفًا: منكِ الغوث يامريم

فما فاه بهذه الكلمات وخاض بحر التامل الّا تغيرت منه الاحوال وهدا البال ونال راحة لم يذقها فيما سلف من الايام فنشاءت التعزية في فواده وسرت المسرة في سائر اعضائهِ فوضع الايقونة في مكان امامه واخذ يتامل تارة ام الخلاص وقد طعنت فوادها سيوف الاحزان واحذق الحاظه لحظة في جنب فادي البشر المنفجر حبًّا بخلاص البشر واخذ يطلب خلاصه من ذلك الجنب الطاهر ينبوع مياه الحيوة ويتامل ايقونة البتول فيتولد الرجاء داخل احشائه

فغب ان صرف برهة على هذه الحال من اندهاش واندهال وقد تغيرت منه الاحوال حاول الرقاد غير ان الحاظه ما برحت تتجه نحو تلك الايقونة الجليلة فتذكر ما كانت سالته فريدة من ان يحيي ام السلام بالسلام فجثى على ركبتيه وصاح من اقصى الفواد محييًا البتول الطاهرة بالسلام الملائكي

ولما كان الغد نهض من فراشهِ وكتب الى فريدة

يشكر الطافها عما اولته من الاحسان ويعرب عن شعائر الامتنان شكرَ غريقٍ قد خاض لجة الهلاك فخلصته ذراع قوية من الهلاك وذكر اموراً نشات عن ذلك التغيير اهدت فريدة على ما استولى على قلب جميل من حسن الشعائر فحمدت الاله المنان على هذا الاحسان شاكرة احسان سيدة الاكوان الشفيعة المشفَّعة بالانسان

غير ان هذه الشابة الحكيمة لعلمها ان لابد من التسلح في هذه الحيوة ضد حيل المحال وان الارتداد وحده غير كافٍ للانسان اذا ما داهمته جيوش الامتحان. اخذت تتبصر بما يمكّن جميلاً من حب الفضيلة ويبعده من الرذيلة . فكتبت اليه تهنئه على حاله المبتغاة وقالت ان لمثل قلبك الشهم هذا الاقدام واني اشكر المولى على سعدي واحمده على عظم حظي اذ قد وقعت مودتي موقعها فصادفت قلباً كريماً اتصف بالمزايا الجليلة على اني ما طلبت منك ان ترفع الحاظك نحو والدة الاله الاَّ قد جاوبت على طلبي فجاوبت البتول على رغبتي فانارت

فوادك بانوار مخلص البشر وازاحت عن اعينك برفع الاضاليل فيحق لك ان تطلب مني ما لاق بقلب انفطر على الخير . سلني فاني مستعدة لامرك غير انني لما كنت إطلب واريد الاجابة طلبت الان منك نعمةً . ياترى هل تستجيب طلبي ام ترفضه . هل تجاوبني قائلاً : اطلبي يافريدة شيئًا اخر على ان ما طلبتيه محال . اهكذا يكون الجواب وهل تنكر ياجميل الطلب استودعتك الله

(فريدة

فض جميل من الرسالة الختام . واخذ يتلوها تلاوة مستهام . غير انهُ لما وقعت الحاظه على كلمات كان بها الختام . حارت منهُ الافكار ولم يعلم ما مراد فريدته والمقصود اذ قد اودعت الكلام ولم تبن ما تطلب . وتبح بما ترغب . فانَّى لجميل ان يعرف ما انطوت عليهِ افكارها وما استكن في بالها . فاخذ يراجع الكتابة من اولها الى اخرها ويمعن النظر بمعانيها علَّهُ يستدل من القرائن على ما تشاه فريدته وتتمناه وكلما وصل الى قولها هل تنكر

ياجميل الطلب استودعتك الله ازدادت بي الحيرة والارتباك واخذ يخاطب ذاته بذاته قائلاً

لعمري ما مراد فريدتنا بهذا الكلام الذي اكثر في عقلي الاوهام . فاعددته ضرباً من الاحلام . ترى ما الذي تطلبهُ فريدة هل تروم الاستيلاء على فوادي لعمري أفما انها ملكة وقد جلست على هذا العرش ومولاة وقد ملكت هذا العبد الرق هل يستطيع غير حبها دخول هذا الحصن المنيع . هل تروم ان اقتصر عن مكاتبتها واقطع مراسلاتها لعمري لم تشر الى ذلك أفما كانت الاشارة امرًا قاطعًا لكن كيف تطلب ذلك ولا دليل استأنس بهِ تحقيقًا لما يطرق اذهاني من الافكار كيف يمكن انها تطلب قطع المراسلات وقد اجابت بالفاظ ارق من النسيم وعبارات اعذب من السلسبيل فلم تلم ولم توبخ ولم تنتقد ولم تبكت . اي نعم اني قد كتبت لها ما يعبر عن معاني تشناها نفس نقية وقد بنيت على مبادي ترفضها نفس ابية غير انها لم تعلن نفورًا وتظهر تكديرًا

بل انها اجابتني وقد نصت رسالتها اخلاق الحمامة الوديعة وقالت لي دونك ياجميل والصلوة فخضعت واطعت . ولامرها امتثلت . فصليت وتضرعت . ودعوت وابتهلت . ففاضت بحور السلوى في فوادي وهطلت عليهِ امطار التعزية فحمدت مولاي وشكرت احسان مولاتي فوعدتها قائلاً يافريدة الفرائد اني ادعو واتوسل واطلب وابتهل واسير في طريق طابت لديكِ وراقت لناظريكِ حتى اصبح شبيهًا بكِ بل كفوءًا لكِ مولاتي . تري ما تتمنين وما الذي ترومين ولم تملكيهِ . أفما ان العبد وما ملكت يداه لسيداه فاجلسي مولاتي على عرش فوادي واحكمي بما ملكت يداكِ واستولي على الشعائر والافكار ودبري الاميال والاعمال واهدي سبلي في كل الاحوال . قال هذا وقبض على اليراع وكتب لفريدتهِ كتابة عاقل انارته الحكمة ومحب دبرته الفطنة

الفصل الحادي عشر

في هدية من نفائس التحف وهي خير مصحف

فغب ان تصفحت فريدة رسالة جميل وقابلتها بالتبجيل كتبت اليهِ تقول: ياخير الخلان وقدوة الشبان قد اوعبتني رسالتك سرورًا واملأتني حبورًا فاكدت لي حبك الصادق وانه لحب اوكد لديَّ من عين وجودي فلم ارتَب قط بصحته ولم يخامرني شك بحقيقته

وها اني الآن ابوح بما انطوت عليه الافكار واعلن ما استكن فيه من الاسرار فان ما اطلبه منك انما هو من عظم المستصعبات فلن ينالهُ انسان الأَّ من سخا فواد جميل لاسيما وقد اتقد هذا الفواد حبًّا نحو فريدته المتفردة بمحبته. هاك ياجميلي ما تمنيت واشتهيت وابتغيت فانهُ متى مالت شمس النهار وحجزت عنا انوارها الابحار وسدلت من الظلام الاستار واستقرت السفينة بفريدتك عند اسفل الغار دونك وان تحدر اليَّ كل ما عندك من

المصاحف . ان لاق ان نسميها مصاحف . اي لاتبطؤ
من ان تحدر اليَّ تلك الاساطير . الاشد سوادًا من القير .
فاجمعها جميعًا وانزلها ولا تتردد . بل تشجع على ذلك وتشدد .
لا غرو ان طلبي هذا عظيم لو كنت طلبتهُ من غيرك
يا جميل . ترى انما قد علمت فريدتك ان الكتاب خير
جليس . واكرم انيس . لاسيما اذا ما خلا المرء في خلوتهِ .
واعتزل في وحدتهِ . لكن من جميلي قد طلبت هذا المطلوب .
ومن خليلي التمستهُ فامالي لا تخيب . وان ما بين تلك
الاساطير مصاحف رقيقة المعاني افادت العقل انوارًا .
والقلب تهذيبًا . فمنها تاليف السياحة في الاقطار . وسفر
الابحار . ومنها تصانيف الايجادات العجيبة والاكتشافات
الغريبة التي لاباس من تصفح صفحاتها . غير انهُ من
الصواب ان تضمها الى ما سواها وتلقيها اليَّ . على انهُ قد
وجب الآن ان تسوح سياحة وانت داخل الغار .
تطوف بها الاقطار . وتخوض لجج الابحار . فتكتشف
على عوالم كثيرة . واقطار شاسعة . وهي داخل فوادك .

وقد انطوى عليها صدرك

انما انك ما برحت منذ نعومة اظفارك تركض طالبًا الحق والخير. وما خطوات زعمت بها التقدم الى ما قدام الّا قد ارجعتك الى الوراء مسافة ايام واعوام. هل يطلب المرء الحق والخير خارجًا عن فؤاده الذي اذا ما استنار باحد اشعة شمس الحكمة الالهية. اكتشف على غوامض اسرارها الخفية. واطلع على اسرارها السنية

لا غرو انك بهذا البحث الحميد تكتشف على اقطار فسيحة. وبلدانٍ وسيعة. كثر خيرها. وقل ضيرها. ووفر غناها. فسقيًا لمن ركض وراءها. فانك لواجد عوالم لا تحدها حدود بل قد استغرقت في بحر واجب الوجود ولما كان لكل سياحة دليل. ولكل طريق هادٍ امين. بعثت اليك بمصحف من نفائس التحف وازى حرف احدى كلماته جميع ما عندك من الاساطير وان كانت ذات عدد وفير فتصفحنَّ من هذا المصحف الصفحات فانهُ لخير مساعد على اكتشاف الاكتشافات. وايجاد الايجادات

فنعم التاليف مصحف الاعترافات

فان كان جميلي قد تاه في اقفار الجهل وخاض بحور المنكرات فلا شك انهُ هو ليس بنقطة من بحر صاحب كتاب الاعترافات وان كانت فربدتك قد سكبت الدموع السخينة على حالتك السقيمة فلم تعادل بحور دموعها قطرة اذرفتها ام صاحب ذلك الكتاب وهي تنوح ملتمسة من العلي ارتداد ثمرة احشاءها الى الطريق القويم والصراط المستقيم واين دموع هذه الام عن حسرات بيعة الله ام جميع المؤمنين الصادقين على هلاك ذلك السيف البتار القاطع وقتيئذٍ عضب لسانه متن جواد الافكار فنادت ام ابناء الدين الحق بانيها والدموع تجري من مآقيها وقالت : ربي ومولاي من لسان اغستينوس نجني وآبائي وخلصني وابنائي

فقد اهديتك ياجميل كتاب الاعترافات فدونك وان تتاملها ولاغرو انك لافضالي من الشاكرين فهي منارة تنير فوادك وتبدد عن اعينك دياجي الظلام وتشتت

جيوش الاوهام وتهديك الى الحق بعد ان تهت في فيافي الاحلام فطلبت ماء فكان محض الآل

فاتئدْ وتأملنَّ وجدَّ ولا تفترنَّ فتجد عوالم جديدة وتكتشف على اقطار بديعة وتجني اثمارًا يانعة . فدونك والخوض في لجة ابحر فوادك فتلقط الدرر الساطعة وبالاجمال لما كنت للحق قد خُلقت . وللخير قد جُبلت . فانك بهذا البحث الى الحق سائر . فاياه واجد . ووراء الخير راكض . فعليه قابض . ولامعارض يعارض

فلما تلا جميل الكتاب ولمعانيهِ استوعب بادر في الحال وبدون ادنى مطال بجمع تلك الاساطير غير انهُ قد اشتد عليهِ الحياء والخجل فكيف يلقي بايدي فريدة الكمال اوراقًا دنست ايادي نقية لمستها فراوده عقلهُ ان يلقيها في اليم ويريح قلبهِ من الغم والهم . لكن كانت فريدته قد امرتهُ بالقائها اليها فكيف يخالف اوامرها فحزمها وانتظر الحين المعلوم فينزلها وفاقًا للامر المحتوم وكتب الى فريدتهِ وقد استولت شعائر الندم على فوادهِ لتاطخهِ

باوخام تلك الاساطير في ماضي حياته وصرح لها وقال قد شكرت احسانكِ اذ قد سلبت من جميع يدي سلاحًا كدت اقتل بهِ نفسي واهلك ذاتي

لا غرو قد استوجبت فريدة الكمال الشكر على مساعيها الجليلة لاسيما من لدن جليلة شقيقة جميل التي كثيرًا ما قد اذرفت الدموع السخينة على ضلال اخيها فكم قد صلت وصامت طالبة ارتداده عن غيهِ وانارته بانوار ربهِ وما برحت تراه يومًا فيومًا يزداد غيًا وينمو ضلالًا وجهلًا

فختم جميل رسالته وقد اقسم يمينًا مبرمة وعد بها فريدته قائلًا : قد وعدتكِ يافريدة الكمال ان لا اعدت اقبض على اوراق مست حرمة الدين او اورثت الانسان ادنى ما يشين وكل ما سوف اجتنيهِ من اثمار مصحف بهِ تكرمتِ عرفتكِ عنهُ مفصلًا

فما وقعت الحاظ فريدة على تلك الرسالة الَّا قد احنت الرقاب لرب العباد وقالت حمدتك مولاي على

هذه المنة العظيمة والنعمة الكريمة فاني اصبحت من السعداء المغبوطين لاكتسابي نفساً عادت لك من المحبين وما برحت تشكر المولى على هذه النعم وتتقدم من مائدة الخلاص وان يلبث على ما اصبح عليهِ من الصلاح ويفوز بحقيقة الفلاح

اما جميل فاخذ يتلو كتاب الاعترافات فاكتشف على اجلّ الاكتشافات فرأى فيهِ صفحتهِ وكان قد تصورت فيهِ صورته لاسيما بما علمهُ من امر اغسئينوس وهو في عنفوان الشباب من توغلهِ في اقفار الاوهام وتيهه بحور الضلال بمطالعة تاليف عصره وذلك الزمان المحيدة الانسان عن طرق الرحمن

أنما قد ذهب وقتئذٍ اهل الضلال مذاهب ينفر منها السماع فترى ما الذي لم تعلمه شيعة ماني ذلك الملحد من الافك والبهتان وما كانت تعاليمها عن اله الخير مبدا كل خير وما الذي علمهُ بيلاجيوس عن حرية الانسان وما الذي انبانا عنه تاريخ ذلك العصر عن اراء مذاهب

ذهبت تعلن الاضاليل عن عدم ميتوتة النفس فهذه جميعها مثلّت لجميل حالته مع تاليف عصره وتوغله باضاليل فواطير وغيره من مشاهير الكفرة والمفسدين واعداء الاداب والدين لاسيما اراءهم بالخلاعة والفساد ومزايا الكبريا والعناد فابى العقل ان يذعن للحق والارادة ان تخضع للفروض والواجبات

فكلما كان جميل يقابل حالته بحالة اغستين الجليل لهيامه باراء اولي التعاليم الفاسدة والمبادي الكاذبة كان يرى ذاته صغيرًا حقيرًا عاريًا عن كل حكمة لان الحكمة قائمة بمعرفة الحق وما تاليف كان قد صرف ايامه بتلاوتها وتصانيف كان قد اشغل اذهانهُ بمطالعتها الّا مشحونة اضاليل وما الضلال الّا انحياز عن الحق . فما الفائدة من الزيغ وما ثمرة تستير الاضاليل بتفخيم الالفاظ وعظيم العبارات الّا انتفاخ القلب عجرفةً وامتلاؤه كبرياء فيزدهي اهل الضلال ويعظمون من انفسهم الاحوال وان هم الّا برق خلّب وسراب يخدع الظمآن

فكل عبارة من كتاب الاعترافات جاءت لقلب جميل جزيل الخيرات فما امعن النظر ببعض تلك الاقوال الجليلة الاّ قد ذهب كافرًا بالكفر وجاحدًا اضاليل الجاحدين. قال اغستين الجليل لك يارب قد خلقتنا ولاجلك قد جبلتنا فلذا لا راحة لفوادنا الاّ بك ولا سلام لانفسنا الاّ فيك. فتلا جميل هذا القول الجليل فتنهد الحسرات وسكب العبرات وصاح قائلاً: لذا يارب لم اجد قط راحة لنفسي فان لازمت القيام في الدار او طفت البراري والاقفار او جالست الاكابر او لاطفت الاصغار ان تلوت الصحف او تاملت التحف فلم ارَ راحة ولا سلام فلم تكن حياتي الاّ اضغاث احلام على اني قد خلقت لاجلك وملت اليك طبعًا لانك لم تخلق فوادي الاّ لاجل الخير وقد مال هذا القلب طالبًا الخير الاعظم وما هو الخير الاعظم الاّ الاله الاعظم. ربي نحن مياه الجداول وانت البحر المحيط نحن اشعة وانت شمس الكون وان نحن الأابرة مغناطيسية نتجه نحوك يا قطب الاكوان. الهي انت

الاول والاخر وانت البداية والنهاية فاننا منك واليك راجعون فعبثًا نطلب الخير خارجًا عنك وباطلاً نسعى وراء الراحة والسلام بعيدًا منك . ربي املك على ملكك واجلس في فوادي فهو عرشك ربي استغرقني في بحر جودك وانرني باشعة رحمتك فلا يطلب قلبي سواك مركزًا ولا عقلي سواك موضوعًا

فلم تمضِ برهة الاَّ قد تغير جميل وتبدل واستنار بالانوار الالهية فبالاضاليل كفر فارتفع البرقع عن اعينهِ فاكتشف على عوالم جديدة واقطار بعيدة وممالك شاسعة وبلدان لا تحدها حدود وكلما وجه الحاظه نحو ايقونة البتول الجليلة ورفع الادعية والابتهال زاد حبًّا نحو الاله المتعال وارتفعت اذهانه نحو العلاء وغاص بامور السماء فخلتهُ نسرًا قطع الاشراك وبسط اجنحتهُ طالبًا اعالي الافلاك

هذا وممن قد احتار بامر جميل وارتبك واشكلت الاحوال لديهِ ولم يرَ لها وجهًا للتاويل او بابًا للتفسير هي جليلة شقيقة جميل على انها رأت كتابات كان يتحفها بها

قد تغيرت كل التغيير وتبدلت كل التبديل
فاضحلت اساطير الخلاعة والكفر ودفنت تلك المبادي
المفسودة والاراء المبغوضة واشرقت شموس صحيح التعليم
وسطعت في فواد اخيها انوار تعليم الانجيل. فخال لديها انهُ
كوكب برية النساك او رسولاً جاء ينقذ البشر من الهلاك
ويرفع عقولهم وقلوبهم نحو العلا ويشغلهم بحب اله السماء
فقالت لعمري أهذا جميل الذي كان بابحر الكفر
غائص ولاوحال الاوخام خائض لا لعمري ان ذا اغستين
الزمان او كوكب في سماء بيعة الرحمن فحمدت المولى على
هذا التغيير غير انها رغبت في التفسير ولما كانت قاصرة عن
اكتشاف تلك الاحوال كتبت اليهِ في الحال وقالت: قل
لنا يا مهجة الفواد اين دفنت الكفر والالحاد وبحثتَ باراء
وتعاليم هي للنفس خير زاد وان هي الّا دستور لاعمال
العباد السائرين في طريق رب العباد
فقال يا قرة العين والناظر وسلوى الفواد والخاطر
لا ترتبكي بامري وان كتمت عنكِ سري فما شاهدتيه من

التغيير فليس بعيد عن الاله القدير فقد ارسل لي ملاكه فبزغت الانوار وبعث برسوله فضاءت الاقطار فاستنار العقل وحيي الفواد . وهل ذا بمستبعد عن قدرة العباد

فذا كلام زاد في قلب جليلة الحيرة والارتباك واوقعها امكن الاشباك فقالت : قال ان ملاك الله اليهِ قد جاء هل ذا ملاك او ظل ملاك وهل ذي الفاظ وضعية . او اصطلاحات مجازية

فكتبت اليهِ وقالت ابن لنا يا فتى اقوالك المجازية وعباراتك اللغزية هل ملاكًا حقيقيًا شاهدت . ورسولًا سماويًا عاينت . ام ذي اصطلاحات عليها اصطلحت . فاوضح لنا ما بهِ قد بحت . وانتشلنا من وهدة الارتباك . فان ذا فعلت قطعت حبائل الاشباك

فكتب اليها جميل وقال اني لم ارَ الملاك بل سمعت صوت الملاك فامنت . فانه لم يقنعني بالبراهين الساطعة والحجج الراهنة ولم يسهب لي بالمقال ويناضل عن حقيقة

التعليم ويُدحض مبادي الكفر ويويد حجج الدين بل قال
لي دونك والصلوة ياجميل فصليت فانتصرت على صلابة
قلبي فامنت فاني كنت قبلاً ادعي عدم الايمان والحال انما
دعواي كانت محال على اني اومن على ما تؤمنين واوقن
على ما توقنين غير ان قلبي لم يكن ذليلاً للايمان فلما
صليت ذللت هذه الفرس الجموح فرسخ وخضع وامن
وايقن غير اني للثبات محتاج فلاجلي توسلي انتِ ووالدتي
واحبائي وفريدة لعلي اكون من التائبين الصادقين الثابتين
فلما كان صباح احد الايام وقد دخلت جليلة وفريدة
المعبد فسجدتا للاله المتعال وحنوتا الراس لاله الجلال
وشكرت كل منهما مولاها على نعمة لجميلهما قد حباها فرده
عن الطغيان فسار في طريق الرحمن وتقدمتا من سر
النعمة شكراً عن تلك النعمة وعب انهما لفروض الصلوة
قد اكملتا خرجتا خارجاً فما كان من جليلة الاّ قد قبضت
على يد فريدة والتفتت اليها وحيتها بالسلام وقالت لها
البشرى لكِ يامهجة الفواد وخير العباد

فاجابت فريدة وما البشرى يابنت الاحرار وزينة الابكار

قالت غب الصبر الجميل قد ارتد جميل فكفر بالكفر بشفاعة الكلية الطهر فكم قد اذرفنا الدموع السخينة على ضلالهِ ونحنا بكاءً على سؤ حالهِ فكم قد تاه اقفار الضلال وخاض وحول الاوهام فالآن قد ارتفع غبار الظلام وتبددت الاحلام بانوار العلي العلام فامن جميلنا وايقن وخضع لوصايا الاله واذعن فدوننا ونقدمة الشلام للام البكر لكي تلحق النعمة بالنعمة ونتبع المنة بالمنة فيثبت جميلنا من بعد الارتداد على الصلاح فيكون من اهل الفلاح

قالت فريدة كيف كان ذلك فانبئينا بما هنالك العلّ اقامته في تلك الاقطار خارجاً عن هذه الديار قد اولته هذا الانعام ففاضت عليهِ بحور النعم فلا غرو ان سكان تلك الديار من الاخيار فاهدوه باقوالهم وانارو بكلامهم وحثوه على الخير بحسن مثالهم فكفر بتعاليم اهل الكفر

وجد الاضاليل ورجع عن طريق الهلاك فحمدناه تعالى على هذه النعمة فانها الخير منة

فاجابتها جليلة قد ارتد جميلنا وارتجع واطاع ربه وخضع لكن لم يكن ذلك عن تعاليم بشر ولا عن مثال اهل المثل بل باية من العلا ومعجزة من لدن اله الارض والسماء

فلما سمعت فريدة هذا المقال انشغل منها البال وخافت من ان يكون جميل قد لمح لشقيقته عما بينها وبينه من الاحوال فالتفتت اليها وقالت لها: ايتها المصونة ان طرق العلي مكنونة فيهب روحه القدوس حيث شاء فينير بانواره من شاء. فابيحي بالمقال فيتضح لديَّ ما اعنيتِ عنه من آية رب الجلال

قالت قد ارسل العلي ملاكه من سماه فارى جميلاً غرور دنياه وهاك ما كتبه اليَّ بهذا الشان حيث قال: قد ابى فلاسفة العصر واراء اهل الكفر الّا ان يحيدوني عن الدين فاصبح بلا ايمانٍ ولا يقين فسمعت صوت الملاك

يقول لي: دونك ياجميل والصلوة فصليت فامنت : فماذا كان ذلك افما ان ذي اية الهية ومعجزة سماوية فقد بعث تعالى بملاكه اليهِ فانكشف البرقع عن عينيهِ فبمجرد الصلوة تبددت من اذهانه الاوهام وانقشع حالك الظلام وعاد القلب في قبضة العلي العلام فما قولكِ بذلك يافريدة الفرائد وخريدة الخرائد

قالت فريدة اما انا فحاشا من اني اخفض ما بهذه النعمة من المعجزات غير اني لقائلة ان جميلاً قد قصد بالملاك النعمة وبصوت الملاك حركة النعمة اما نظراً لمفعول النعمة فقد تكلمت عنهُ الايات الشريفة افما ان اله الحق عن نفسهِ قد قال : انا هو الحق انا هو الطريق انا هو الحيوة فمن طلبه اهتدى فانهُ اله الهدى

الفصل الثاني عشر

في بهية سليلة الاشراف

قلنا في ما تقدم من الكلام ان جميلاً كثيرًا ما كان يصرف الاوقات بتربية الحمام واليمام وانهُ كان قد قبض في ذلك الغار على ضرب من الفيران وروضها بعض الترويض ولما كان احد الايام . وقد تناول جميل الطعام . وشرب المدام . ورام ان يصرف الوقت بما لا يضغط منهُ الافكار اخذ تلك الفيران وبدا يروضها على ان تقف على رجليها وترفع يديها غير ان احداهنَّ قد ودت حالة خلقت عليها من ان تجاوب على رغبة مربيها وكانت كلما انهضها وعلى رجليها اوقفها رقدت في الارض فضربها فنهضت ثم عادت حالاً الى ما كانت عليهِ فلشدة حنقه قبض على اذنها واحسن الشد فصرخت وما رفع يده عنها الاَّ قد فرت هربًا قاصدة عطفات ذلك الغار فاوقد شمعة وسار في اثرها

وهي تهرب من خلوة الى اخرى حتى اقصى الغار ولم يكن جميل في كل مدة اقامتهِ داخلهُ نزل الى تلك الدهاليز الخفية فلما اقام في كهف توهم تلك الفارة فيهِ طلبها فراها قد دخلت ثقبًا في جدران الكهف فقدم الشمعة من ذلك الوكر فطفاءها الهواء فانذهل جميل وقال من اين الهواء فلاغرو انها لنافذة تنفذ الى الخارج فرجع سائرًا الى الوراء وهو لايهتدي الى طريقهِ لادلهام الظلام في ذلك المكان الى ان وصل الى خلوتهِ فاوقد مصباحًا وجاء بشموع وزناد وكبريت وقصد ذلك الكهف

واخذ يتامل وكرًا اوتهُ الفارة الفارَّة فبان لديه باب محفور في ذلك الصخر وقد سد بحجارة مقصوبة فعاد في الحال الى خلوتهِ وجاء باداة من حديد وبدا يحاول اخراج احد تلك الحجارة فمن بعد الجد والجهد اخرج حجرًا فهان عليهِ اخراج ما تبقى واخذ يرفع تلك الحجارة واحدًا فواحدًا ويلقيها على جدران الكهف حتى اخر حجر منها وتناول المصباح فراى امامهُ دهليزًا فدخلهُ واذا

بدرج عند رجليهِ محفور في ذلك الصخر فنزل تلك
الدرجات الكثيرة الى ان قربت بهِ الخطوات عند اسفلها
واذا بهِ قد قام امام عينيهِ باب من حديد قديم الايام فما لمسهُ
بايديهِ الّا قد ذهب رماداً وبان من وراء ذلك الباب مخدع
محفور بالادوات في ذلك الصخر الصم وقد دخلتهُ في قديم
الايام اشعة الشمس من نافذة محفورة من اعلى جدرانهِ غير
ان الحشيش قد سدها فلم يخرقها الّا بعض النور فانذهل
جميل من هذا المنظر واعتجب من ايدي حفرت ذلك
الصخر ولم يعلم ما المقصد من كل ذلك العمل البديع فلما
هدات افكاره التفت الى صدر المغارة فوجد بلاطة كبيرة
من الرخام فتقدم منها فراى كتابة باللاتينية مرسومة عليها
غير انهُ لم يحسن قراتها لسقامة احرفها وقدمية الايام عليها
فمسح البلاطة واحدق الالحاظ واخذ يقراء تلك الاسطر
فكانت على ما ياتي : هذا ضريح بهية العفيفة التي لما كانت
قد ابت ان تكفر بالنصرانية وتخون قرين حياتها عاقبها
عبد الله الظالم العاتي بسجن عام في هذا المكان

فما تم قراءة هذه السطور . الا قد ضاقت منهُ الصدور . واخذ يلتفت يمينًا وشمالاً واذا بهِ قد وقعت الحاظهُ على دهليز صغير منقور في الصخر على قدر مرقد انسان وفي جدرانهِ حلقة من حديد تعلق بها سلسلة من حديد في اطرافهِ قيود حديدية فعلم بان ذلك المكان مرقد اضجعت فيهِ بهية مدة سجنها وقد غللت القيود رجليها فتاثر من هذه الاحوال البربرية غير انهُ قد ود الوقوف على حقيقة قصة تلك الامراة المظلومة

فاخذ من ثم يكرر الكتابة المرسومة على الضريح يتأمل معانيها فلم يهتدِ الى اكثر ما كان اهتدى اليهِ فعمد عند ذلك عن رفع الحجر عن القبر فعاد الى خلوتهِ وجاء بتلك الالة الحديدية واخذ يجد بالعمل وهو يبذل المجهود لكيلا ينكسر الحجر فبعد العناء الشديد نال مناه

فانكشف الحجر عن ذات بهية سربلها وشاح احمر نقشهُ الذهب وعلى راسها اكليل رصعتهُ الحجارة الكريمة وفي عنقها سلسلة ذهبية ضمت صليبًا ذهبيًا قبضت عليهِ ايدي

بهية وفي رجليها خف من الاطلس عليهِ احجار الياقوت
وقد اضجعت تلك الشمس المضية فوق وسادة مخملية
زانتها اهداب ذهبية وعلى اربعة اطرافها رمانات الذهب
واستند هامها على مخدات من قماش تلك الوسادة ووراءها
انبوبة من رصاص طولها نحو نصف ذراع فانذهل جميل من
ذلك المنظر البهي المصور عليهِ العفاف ولما كان قد تبقى
على تلك الحالة لعدم الرطوبة وكان وقتئذٍ لعب بهِ الهواء
ذهب هباء وقد انكشف عن جمجمة بيضاء فطبق جميل
القبر واخذ الاكليل والسلسلة وحجارة الياقوت والانبوبة
الرصاصية وذهب الى خلوتهِ وقد هام اولاً ال فتح الانبوبة
ففتحها فوجد داخلها درجاً من رق غزال مكتوب
باللاتينية غير انهُ لخط سقيم كان يدًا رسمتهُ قصدت
التطريف فكان عملها للتصعيب فاخذ جميل النظارة
محاولاً تلاوة تلك السطور فاطلع على قصة بهية بكامل
ظروفها وهي على ما ياتي من الكلام

كان في قديم الايام فوق صخرة داخلها غار اواه جميل

قلعة حصينة وقد احاق البحر في كل جهات ذلك الصخر العالي ولا مدخل للقلعة الّا من فوق قنطرة علت المياه فاتصلت بالبر وقد قام عند المدخل برجان حصينان صيانةً للقلعة

ولما كانت تلك الاقطار مخصبة وكثيرة الغلال والاثمار وقد قام فوق رباها قصور عالية ودور شامخة سكنها سادات ذلك الزمان ذهبت مطمعًا لاهل الاطماع فغزاها الغازون وقصدها المتعدون طمعًا بغناها وكان من جملة الذين غاروا عليها القرصان

فلما كان احد الايام والجابر زوج بهية قد قصد ورجالهُ الصيد والقنص في تلك البراري دنا قرصان البرابرة من القلعة فرأوا الحرس على بابها فقتلوهم ودخلوها واخذوا ينهبون القلعة فجاء الاتباع واعلموا بهية بتلك الاهوال وما اتموا كلامهم الّا قد دخل اولئك الاقوام مخدع بهية وامامهم رجل يدعى بربر فشددت بهية عزمها وتقدمت نحو بربر وكان قد سباه جمالها والتفتت

اليهِ وقالت لهُ ما بالك ايها الرجل وماذا تريد اما هو فما زال شاخصًا بها وقد سادت عليهِ بعظم مهابتها وقوة جنانها ولما كان جاهلاً اللاتينية جاوبها بلغته فلم يفهم احدهما الاخر ثم رجع الى الوراء وانشغلت رجاله بالنهب والسلب

فعلمت رجال الجابر بما حل بقلعة مولاهم من الوبال وهو اذ ذاك واتباعه بالصيد والقنص في اعالي تلك الجبال فبادروا واعلموه بواقعة الحال فارتعدت منه الفرائص وخاف على قرينتهِ من ان يكون البرابرة قد سطوا على عرضها وحياتها فهرول ورجاله قاصدين القلعة فصده اتباعه عن ذلك لخوفهم عليهِ واخذوا ثيابه والبسوه ثياب اهل البر واخفوه في احد كهوف الجبال فاواها مؤملاً سرعة ذهاب اولئك الاقوام من القلعة وانهم ينهبون الاموال ويهجرون المكان غير ان بربر المذكور لما رأى القلعة حصينة وانهُ قد بر ورجاله على المدافعة عولوا على الاقامة فيها وذهب الجابر مايوسًا والتجأ

عند ملك تلك الاقطار

اما بهية فجمعت اليها جواريها وقالت لهنَّ اعلمنَ ابنتها الشابات ان اجسادنا قد تطهرت بمياه المعمودية المقدسة وما نحن الَّا هياكل روح الله القدوس وكم من مرة قد تقدست احشاؤُنا بقوت الحيوة وسر الحيوة واستكن الاله المكنون داخل قلوبنا أهل يليق بنا اذًا ان نسلم اجسادنا للادناس فان اقوامًا هجموا على هذا المكان وقصدوا هتك حرمة السكان ان هم الَّا قد هاموا الى الفحشا فدونكم اذًا وان تتسلحوا بالبر وتصونوا ثوب العفاف فلا تدنسهُ ايدي اثيمة اذكروا ما قاستهُ العذارى القديسات من العذاب صونًا لكنز الطهارة فَلِمَ لا نحذو حذوهنَّ ونسير على اثارهنَّ فذعن ذلك السرب الفاضل لكلام هذه التقية الجليلة وعزمنَ على ان يقاسينَ مر العذاب من ان يدنسنَ ثوب العفاف النقي

ولما كان اولئك الاقوام قد خاضوا حمأة الادناس وما رغبتهم الَّا في ارواء غليل شهواتهم هجموا على مكان وجدوا

فيهِ بهية وجوارها

واشاروا عن مقصدهم الوخيم فقوبلوا بالرفض التام فجاشوا وهاجوا وباشروا الوعد والوعيد فلم ينالوا ماربًا ولم يبلغوا اربًا فعلموا انهم لا يقضون وطرًا من تلك الشابات ما دمنَ متشجعات بحضرة مولاتهنَّ ومثالها ففصلوهنَّ عنها ولبثت وجارية وغلام واحدًا لاغير ولم نعلم بعده ما جرى في تلك الجواري اذ قد اصبحنَ في قبضة البرابرة

اما بربر فمع انهُ كان قد تاه غرامًا بحب بهية فمع ذلك قد سادت عليهِ بهابتها وعظمتها فاصبح عبد رقٍ لسوددها ولم يجسر ان يخاطبها بما شان بل قد بذل نحوها كمال الاحترام ومراعاة الخاطر الى ان كان ذات يوم واحد اتباعه كان في سابق الايام قد وقع اسيرًا في يد بعض طائفة اللاتين فتعلم لغتهم فحضر بربر والمذكور عند بهية واشار اليهِ ان يقول لها ايتها السيدة الجليلة قد اتضح لديكِ اني على ما عظم من الاعتبار نحو شريف ذاتكِ غير

اني قد همت غرامًا ببهاء جمالكِ فلا داء لعلتي الاَّ برضاكِ فارحمي صبًا ولهان

فاجابتهُ بهية في الحال اعلم ايها البطل الباسل اني مسيحية وقد حرّمت علينا شريعتنا الاقتران الاَّ بقرين واحد وقد بارحني قريني وهو بقيد الحيوة وما زلت ادعو لهُ بطول العمر فاعفُ مولاي فان العفو من شيم الكرام كيف اذا ما امر بهِ العليم العلام

فاجابها بربر قائلاً: ان كان لا سبيل لنوال المرغوب افما ترمقيني اقلهُ بعين الرضا وعليَّ تنشرح الخواطر عل يقر مني الخاطر

اجابت ها انا اصبحت اسيرة بين يديك فقد لاق بي بالاولى ان اطلب انشراح الخواطر

قال افما للحب الصادق في قلبكِ من سبيل . فيرتاح هذا القلب الذليل

اجابت : اني قد اصبحت عبدة رقٍ بين يديك غب انك قد هجمت على هذه القلعة وهتكت حرمة المكان

وسلبت الاموال وعاملت السكان بالذل والهوان وبددت منا الشمل وذهب قريني يسوح في البراري والاقفار ولاعلم لي بما جرى فيهِ وصار فمع هذا كله لما كنت مسيحية وقد امرني مولاي بالمحبة لاعدائي فليس لك في فوادي بغضة بل صفحت وغفرت حبًا بمن يغفر الاسايا فاني قد تغاضيت عن كل اسية ولم اذكر انتقامًا ولا ثارًا افما ان ذا حب صادق وهل بعد هذا لا يحق لي ان اطلب منك نعمة واحدة فاقت كل نعمة ومنة علت على كل منة وهي ان تعفو عن العرض فذا كنز غلت عندي قيمتهُ وصنته بحياتي وبذلت عنهُ كل مالي

اما بربر التائه ببيداء الغرام فانىّ لهُ ان يدرك مثل هذه المعاني السنية والتعاليم الالهية وهل من خاض بحور اللذات وسيق في سوق الشهوات وتاهت افكاره وتعاقت اماله على المحميات يعلم ما هو العفاف وما هي هذه الفضيلة الملايكية والنعمة السماوية ولما كان كلام بهية لديه من الالغاز اشار الى تابعه واوعز . ان قل لها يافتى ان تهبني

قلبها وهذا حسبُ

فاعرب الغلام عن مبتغى مولاه والمرام وقال لبهية لقلبكِ مولاي قد طلب . وفي حبكِ اياه قد رغب . وبهذا قامت غبطته وعليهِ عاق سعادته . فما اضركِ ان تسليمهِ هذا القلب وتخلصيهِ الحب فتربحين وترتاحين . ومن شر المحن تنجين

فلما سمعت بهية هذا المقال . وعلمت بتلك الحال . الا قد تحركت فيها الحماسة الدينية . وجاوبت على النعمة الالهية . ولم تعبأ بالغلام ولا بما فاه بهِ من الاقوال بل التفتت الى بربر وقالت اعلم يا ايها الانسان . ان ديننا دين انسان لا دين حيوان . وقد جاء فادي البشر ينقذ البشر فانهاهم عن الفحشاء واغراهم على الحسنى وسعى بانهاض نفس هبطت من العلا . وان توجه شعائرها نحو السما وتدوس بارجلها الارضيات . وتزدري باللحميات . ولما كان تعالت حكمتهُ قد رفع منزلة الزواج وقصد بها بين قلبي المتزوجين الامتزاج . ولم تقصد بهِ شهوة حيوانية

وغاية لحمية وجب على المؤمنين ان يسيروا بموجب هذا التعليم وان يخلص المتعاقدان الحب لبعضهما وان لا يشركا احدًا بمحبتهما فالمرء من المراة اما بالزواج فالمراة للمرء والمرء للمراة فقد ملكها وملكته ولا حق لاحدهما على ذاته بل عاد الحق لقرينه وهل تسوّغ شريعة من الشرائع اختلاس ما للغير أفما قال ربك لا تسرق افما قال لا تزن الم يقل لامراة القريب حذار ان تشتهي الم يقل اله العفاف من نظر الى وجه واشتهى فقد زنى . فهذه يا ايها الرجل شريعة سنها فادي البشر وختمها بدمه الكريم فاذا كان ذلك وقلبي لجابر قريني وجابر كسري هل يخطر لاذهانك باني اخونه واعصى امر مولاي

اي نعم كان النكاح بين الامم سدًا لرغائب الطبيعة ولذا راينا نساءهم يقترنّ باحدهم وقلبها للاخر فتمكن قرينها من ذاتها وقد مكنت غيره من حبها اما المسيحية فلا على ان الاقتران بموجبها انما هو اولاً اقتران القلوب ببعضها وما زاد على ذلك كان نتيجة الاقتران لا الاقتران

وفيما كانت بهية تبين وتوضح وتعلم وتشرح خلت بربر على جمر الغضا . ولا يرضى الّا بنفوذ القضا . فقال لغلامه قل اني لها ان لحبها قد طلبت وفيه قد رغبت فلتذعن لمقالي وتزيح الهواجس من بالي

فاجابت بهية وقالت لبربر انك قد رغبت بحبي واياه طلبت وها اني خلوصة الحب وصافية الوداد . الم اقل لك اني صفحت وغفرت . عما بهِ علينا قد تعديت . فسلبت الاموال . وشتتت شمل العيال . وخربت المنازل وهتكت الحرمة ومع هذا وفقًا لامر من تجثو لهُ كل ركبة في السماء وعلى الارض قد غفرت لاعدائي وسامحت واني لا زيد على ذلك حبًا اغرب واعجب

فاعلم يا ايها الرجل ان كنت لنفسك تحب ولذاتك خالص الحب ان لا سعادة في الدنيا ولا غبطة في الاخرة الّا بان يخضع الانسان لاوامر الله ويهذب امياله بموجب وصايا الله . فقد حركني الحب الصادق ان اخلصك النصح فكن خاضعًا لاوامر العلي واكبح جموح الشهوات

الوطيئة واعص الاهواء الدنية واكفر بالضلالة فتفوز بسعادة اله الحق فهذا حب صادق قد اكسبك محبة الخالق

فما سمع بربر هذا الكلام ووعى هذا المقال الّا قد تبدل الضيا في وجههِ ظلام فهاج وجاش فخلتهُ بحرًا عجاج والتفت بغلامهِ وقال دونك يافتى والعصا وعالج بها بنت العصاة ابهذا تتكلم ولم تدرك ولا تعلم فلطمها العبد وضرب وبصق في وجهها وملأ فوادها كرب وقال لها هذا ما وعدكِ بهِ مسيحكِ المصلوب من الغبطة هذا هزء وعار تنالينهُ من مسيحكِ اله الاهانة والعار وهذا جزاء من فضّلت الذل على الكرامة افما كان الاولى بكِ ان تلذي وتفرحي وتنعمي وتطربي وبظل هذا البطل الباسل ترتعي واذا ما عشتِ معهُ على مثل هذا الحال في الدنيا اصحبتيه الى مثلها واعظم منها في الاخرة اذ ما الانتقال من هذه الحيوة الّا اجتياز الى نعيم اللذات فالدنيا صورة الاخرة فلذّي مع مولاي الآن تلذين معهُ بمثل ذلك في الاخرة

فاجابتهُ بهية وقالت : ان الجسم تراب والى تراب

يعود وما الانسان نظرًا للجسد الّا حيوان وانما هو انسان بالنفس المخلوقة على صورة الرحمن . فالله روح واياه بالروح نعبد فان الله اله العفاف والنقاوة فبالنقاوة نرى نور وجهه البهي فقسمة المسيحي في الدنيا عذاب وامتحان وفي الاخرة مشاهدة وجه الرحمن فليس السماء مرتع الحيوان ومطمح شهوات بني الزمان بل ان نفوسًا قسمتها السماء حاكت ملايكة الله في العلا فلا يزوجون هنالك ولا يتزوجون ولا ياكلون ولايشربون بل قد حيوا برؤيا مولاهم وهذه هي السعادة الابدية والغبطة السرمدية وليست على ما تتوهم انت انها ارضية حيوانية

فازداد بربر بهذا الكلام غيظًا . وطفح قلبهُ غضبًا . وقال زجوا هذه بنت اللئام . في مكان اشتد فيهِ الظلام . واذيقوها مر الآلام

قال هذا واخذ لنفسهِ يوبخ ويونب . وعلى حالتهِ يإنّ ويكتئب . فصاح وقال ويحًا لك يا بربر بطل الابطال . وزينة الرجال . امثل هذه اللئيمة تحب وهي تقابلك

بالنفور والنكد . فمن هي هذه الذليلة . والامة الذميمة . فانا
الذي قد تذللت لي النساء واياي احبت . وارؤيا بي
تاقت وهامت . فسعدت من بي قد حظيت . وغبطت
وما شقيت . فما دخلت منازلي الاَّ قد جثت الاماء وانحنت
الرؤُوس الحرائر وقد رفعت هذه الامة الذليلة رأسها .
وانكرت عليَّ حبها . فيما اني قد رغبت في غبطتها . ونقت
لاسعادها . فجعلتها ملكة المنازل . ووليتها على الاماء
والحرائر . فان كانت هذه صنعتها . وتلك بغيتها . فبادروا
الآن الآن والقوها في اشد الاسجان . واذيقوها امر المحن .
ولا تذيقوها قوتًا ولا زادًا سوى بلغة من الخبز الاسود
فاذيبوها عطشًا . واميتوها جوعًا . فعاملوها بما عومل به
نبيها اله العار الذي قد تباهى بهِ تابعوهُ وافتخر بيد انهُ قد
سُجن وضرب ولطم وعلى خشبة قد علق وخلاً ومرًّا قد سقي
فقاسى مر الآلام وشقي

اما بهية فحمدت مولاها . على نعمةٍ اولاها . وهي انها
قد شاركت الفادي بالآلام . ولمقاساة المرائر قلبها قد هام .

وقالت زدني ربي من هذه النعمة . وبالغ نحوي بهذه المنة .
وانعم بنعمة بها لصليبك احمل . فان كنت بايدي الظلاَّم قد
وقعت فمن الوقوع بما يهينك قد خشيت اللهمَّ فلهذه النعمة
التمست حتى اذا ما شاركتك بالالام . ادخلتني جنتك
بسلام . فاحيي بك يا اله السلام

فعندها هجم عليها اولئك الاقوام وجروها الى اسفل
ذلك الغار الى كهفٍ ذكرناه . وكان محل عذابها على ما
قلناه . وانهُ لمكان نقرته ايدي بشرية في ما كان قد مضى
من الزمان فالقوا بهية داخلهُ وقيدوها بالقيود واذاقوها
اشد العذاب ضربًا ولطمًا واهانةً وشتمًا . حتى وهى منها
الجسم وانتحل . وبالسهاد جفنها اكتحل . وكلما جاء اليها
السجان بالخبز الاسود عالجها ضربًا واضنكها تعبًا . حتى
خضبت الارض بدماها . وهي تصبر على بلواها . وفوضت
امرها لمولاها . فهذه كانت حالتها . في محل خلوتها . اي
سجن موَّبد . وعذاب سرمد . ومما زادها عذابًا على عذاب
قلق افكارها على عبيدها والجواري اللاي قد وقعنَ في

ايدي الظلام . ولم تعلم ما حل بهنَّ من الوبال . وهل قد صبرنَ على المحن . ام قد كفرنَ بالنعم . هذا وقد تمزقت احشاها على قرينها الجابر . وتكدرت لاحواله الخواطر . فلم تعلم لهُ مقر . ولا اين ذهب وفر . أهل قد طاف البراري والاقفار . وهاجر الديار . ام قد اواه عنده احد الخلان . واوقاه شر المحن

ولما كان احد الايام وهي تخوض بحور الافتكار والهواجس . وقد اقلقت اذهانها الوساوس . رأت ضياء في السجن قد لمع . ونوراً قد سطع . فسرت الرعدة في اعضائها . وقد خال لديها ان السجان قد وافاها . ليذيقها الموت فتبارح دنياها . واذا بحاملة تلك النور منها قد دنت . ولايديها لثمت . وقالت لها لا تخافي يامولاتي انا جاريتكِ امينة قد جئت اليكِ بالماكول والمشروب علَّ اخفف عن فوادكِ الكروب

فالتفتت اليها بهية فرأتها مشوهة الصورة مبدلة الاحوال كانها قفص ميت وقد تناثرت منها اللحمان

فقالت لها ما هذه الحال يا امينة . وما الذي قد حل بكِ من الوبال

قالت مولاتي لا تجزعي ولا تقلقي. فبهذه قامت بغيتي. وبها نلت تمام رغبتي . فان راعكِ المنظر فقد شاقكِ المخبر . وهاك حقيقة الخبر

انهُ لما كان هولاء الاقوام الظلاَّم قد عاملونا بما عاملوا وارادوا هتك الحرمة سالت امامة الجواري ان تاتيني بسيال لداع دهنت بهِ جسمي والمنظر فتناثرت مني اللحمان. وتبدلت الاحوال فاصبحت جيفة نتنت منها المنازل. وافسدت هواء المخادع فلما رأني اولئك الظلاَّم على هذه الاحوال اشاروا بطردي الى خارج فكان بالطرد النجاة فآويت منزل احد الفرسان . وهذا لمولاي الجابر من اعز الخلان . فاعلمتهُ بحالي. وقصصت عليهِ كل ما جرى لي. واعربت لهُ عما حل بمولاتي واوضحت لهُ ما نقاسيهِ من الاهوال

فلما كان هذا الرجل الهمام قد اواني برهة في منزلهِ

وبذل كل العناية نحوي وارتحت نوعًا من مصابي وتعافيت
اشار اليّ وقال دونكِ يا امينة وان تركبي السفينة وقد
سدلت استار الظلام. فلا يراكِ احد من اولئك الظلّام.
وسيري الى اسفل الصخر لناحية اتجهت نحو المشرق
فترين هنالك اشجارًا ملتفة وكثيرًا من الحشيش قد
غطى سلمًا خفيًا فاصعديه وسيري الى ما قدام وقد غطاكِ
الشجر فترين امامكِ بابًا صغيرًا من حديد فهاك المفتاح
فافتحيهِ فتدخلين دهليزًا في نهايته باب مخدع سجنت فيهِ
مولاتنا فعندها اكشفي عن المصباح فترين النور في
المخدع قد لاح فاقري مني مولاتي السلام . وخففي منها
الاثقال . واسعي نحوها ببعض الراحة حال قيدها بتلك
الاغلال . فاستسرت مولاتي بموجب تدابيره وهذا امتكِ
ممتثلة امامكِ وقد جئتكِ بالماكول والمشروب علّي
اخفف عنكِ وقر هذه الخطوب

فاخذت امينة تقدم الطعام لمولاتها ولا تستطيع
هذه على تناول الطعام لشدة ما نابها من الاسقام فلاطفتها

امينة بالكلام . وعللتها ببعض الطعام . وسقتها بعض المدام . ثم سرحت منها الشعر وغسلت الجسمان . وكنست المكان . وسلمتها للرحمان . وقالت لها مولاتي اني اتي اليكِ ليليًا في مثل هذا الآن عليّ اخفف عنكِ الاحزان . فمري بما شئتِ واطلبي ما رغبتِ . فان رغبتي باجراء ما ترغبين قد قامت . فوعدت امينة مولاتها بهذه الوعود . واشهدت عليها الاله المعبود . وما برحت ليليًا تاتي بما يريح اثقال مولاتها المغللة بالقيود . ويخمد نوعًا نارًا استعرت بها الكبود

هذا ما كان من امر بهية وامينة واحوالها وليرجع الكلام الى الجابر قرين بهية فانهُ قد التجأ في تلك الاثنا الى نادي ملك تلك الاقطار فنال من لدنهِ كمال الاعتبار فامتاز بين الشجعان والفرسان فرقاه الملك الى المراتب العالية هذا وقد خلب الجابر قلب الجميع بالطافهِ ورقة كلامه وانخفاض جانبهِ حتى مالوا جميعًا اليهِ ووقع حبهُ في قلوبهم فاثنى عليهِ الرفيع والوضيع

غير ان ما نالهُ الجابر من لدن الملك وفي بلاطهِ من

الرفعة والاعتبار لم يخفض شدة احزانهِ على خراب منازلهِ وهتك حرمة داره لاسيما شدة اكداره على حال بهية قرينة حياته ومولاة فواده ومما زاده احزانًا على احزان واكدارًا على اكدار عدم وقوفه على حقيقة احوالها وهل هي ما برحت في الحيوة ام قد ضمها رمس فآلفت الاموات

ولما كانت هذه الهواجس تمزق منهُ الاكباد وتبعده عن الراحة كل الابعاد خطر لاذهانهِ ان يسعى بما بهِ يتمكن من انقاذ اوطانهِ فاعرض الامر على زعماء الملك واصفيائهِ وكان من جملة اولي النفوذ على قلب الملك رجل من اهل النسك والامساك قد ازدان بالفضائل الدينية والصفات الادبية فهابهُ الكبير والصغير وصغى لاقوالهِ الملك والوزير. فدخل هذا الرجل في ذات يوم على الملك وقص على مسامعهِ ما حل بسواحل تلك الديار من البوار لهجمات البرابرة عليها ووثبات اهل العدوان على اراضيها وان هولاء الاقوام المعتدين الحقوا الضرر بالبلاد وبالساكنين فنهبوا الاموال واحرقوا المنازل ودمروا

الاطلال وهتكوا حرمة العرض وذهبت الحرائر عرضة السبي فاسرهنَّ الاشرار وباعوهنَّ خارجًا عن الديار ولما كان اقوال اولياء الله ذات تاثير على قلوب عبيد الله صغى الملك لاقوال ذلك الرجل البار واشار الى وزيره ان ارسل الكتائب الى اقطار ذهبت فريسة اهل العدوان فانقذها وسكانها من ايدي الوبال

فامتثل الوزير لامر مولاه واشار الى قواد العساكر والابطال ان تاهبوا ايها الفرسان للمدافعة عن الاوطان فانقذوا السكان من ايدي اهل العدوان وتوكلوا على اله الجيوش الذي يولي النصر لمن يشا وتسلحوا بالحماسة الوطنية ولا تخالفوا الاصول الدينية فدافعوا عن الناس ولا تؤذوا الناس فاوقدوا نيران الحرب على اهل البغي ولا تثقلوا على الاهلين ولا تسطوا على الضعيف سالنا الاله القدير ان يوليكم نصرًا مبينًا

فسارت الجيوش وكرّت الجحافل فهاجمت الاعداء وطردتهم من امامها وهجم الجابر ورجالهُ على بربر فكسر

رجاله وجندله قتيلاً في الارض فدخل القلعة فراها قد اصبحت منزلاً للبرابرة اذ كانوا قد حولوها وفاقاً لماربهم وبدلوها وفقاً لمشاربهم

ففي تلك الاثناء امتثلت الجارية امينة لدي الجابر مولاها واعلمته بجميعما جرى وصار وكيف قد اسر البرابرة مولاتها واذاقوها مرّ الوبال وهي مطروحة داخل ذلك السجن المظلم موثوقة بالاغلال وقد ساءت منها الاحوال فعندها صاح الجابر وقال أبمثل هذه المعاملات الفظيعة تُعامل بهية ذات الجمال. ونربية الدلال. ويلاه على حالتكِ. يامهجة الفواد. وزينة العباد. وتبًّا لوثاقات شددتكِ. وسجون عذبتكِ. قال هذا ونزل وامينة الى حيثما كانت بهية فما سمعت صوت قرين حياتها وقد دنا منها الاّ وقعت مغشيًا عليها بين ذراعيهِ فسعى وامينة بحلها من القيود وحملاها الى القلعة ولما استفاقت على حالها حمدت المولى على سلامة الجابر وشكرته على جبر كسرها بعودته اليها وانقاذها من ايدي معذبيها واخذت تقص على حبيب

فوادها ما قد جرى لها وافصحت عن حسن تصرفات
جاريتها امينة نحوها وكيف انها كانت تلازم زيارتها وتسعى
براحتها تحت خطر حياتها غب ان كانت قد سعت
بتشويه نظرها البهي واضنكت صحتها لتبعد البرابرة
عنها وتحفظ عفافًا امر بهِ اله العفاف . فنزلت امينة منزلة
عظيمة في قلب الجابر فاثنى على فضيلتها وصونها بكارتها
وحمد من احسانها نحو مولاتها وانهُ غريق ابحر احسانها
ولم تمض ايام الاَّ قد اصبحت امينة على ما حسن من
الصحة واخذ منظرها بالازدهاء وعاد الى ما كان عليهِ
سابقًا من البهاء غير ان بهية المسكينة لشدة ما كانت قد
ذاقتهُ من مرّ العذاب ضربًا ولطمًا وشتمًا اخذت
بالذبول . والجسم بالنحول . حتى اصبحت خلالاً فما ملكت
حرية تتمتع بها برؤيا قرين حياتها ونجت من ظلام
السجن الاَّ لتاوي بعد ذلك رمسًا فيكتنفها ظلام القبر فناح
الجابر على فقدها وبكي بكاءً اذاب منهُ الفواد والحشاء ولم
يذق لذة السلوى الى ان مضت عليهِ الايام واستولت عليه

الاشجان فعزاه الاهل والخلان فسلم لارادة الرحمن

فلما كان لابد لهُ من الاقتران وكانت عظمت لديه منزلة امينة لما بدا منها من علامات الفضل والفضيلة لاسيما حبها مولاتها قال انّي لي ان اري لنفسي اصدق منها حبًّا واخلص منها بخدمتي نصحًا غير انهُ قبل ان يتم ذلك اخذ يتم الواجبات نحو قرينته فدفنها في ذلك المدفن وكتب قصتها على درج من رق غزال وجده جميل بعد مرور تسعة اجيال على ما تقدم الكلام واخذ يترجم تلك الكتابة من اللاتينية الى لغة ذلك العصر

غير ان جميلاً كان علم من هذه القصة كيف كانت امينة تمكنت من الدخول لدى مولاتها من ذلك السلم الخفي في اسفل ذلك الصخر فبادر في الحال الى المكان فرأى بابًا صغيرًا مسدودًا بالحجارة فرفعها من مكانها واذ بهِ قد قامت امام ناظريهِ اشجار ملتفة الاغصان وحشيش غطى المكان فدخل داخله فاشرف على حافة البحر فكتب

حالاً الى كل من جليلة وفريدة يعلمها بذلك الاكتشاف وانهما اذا ما قصدتا زيارتهُ سهل عليهما سوق السفينة الى اسفل ذلك المكان من ان يخاطرا بحياتهما بخوضهما الاباحة عند اسفل الغار على ما كانتا تفعلانِ في سالف الايام

فلما كان الغد ركبت فريدة سفينتها بقصد الانشراح وما برحت تسير بها الى ان وصلت الى مكان اشار اليهِ جليل فتبصرت بالمكان وما غطاه من الحشيش والاشجار ورجعت حالاً الى الوراء فما دخلت مخدعها الاَّ قد كتبت الى جميل تقول له : حمدًا لرب العباد والمدبر العباد بغوامض عنايتهِ الازلية . حمدت ربي على طريق اكتشفتها علها تمكنك من النزول الى حافة البحر في ذلك السلم الخفي فاذا كان ذلك وقد هداك المولى الطريق المستقيم أفما ترغب في اني احضر اليك امام الدين القائم بخدمة دارنا فيزيدك ارشادًا ونتمم بهذه الوسيلة الفروض الدينية

اما جميل فاجابها في الحال حمدت المولى لانهُ اهداني الى الصراط المستقيم وسهل طرقًا كثيرة تمكنني من السير

في طريقهِ القويم فدونكِ ياذات الغيرة العلية وارسال الكاهن اليَّ فاتمم فروض الدين واقوم بواجبات نظام الدين . قال هذا وطوى السجل ولدى الفرصة ارسلهُ الى فريدتهِ واخذ يلازم الخلوة باحثاً في ماضي حياتهِ فسطر زلاتهِ على قرطاس وندم عليها وتاب وللاعتراف تأهب

ففي ثالث الايام والليل ما زال معترك الظلام حلت سفينة فريدة في المكان المعهود وخرج الكاهن الى الشاطي فقابلهُ جميل بالترحاب وقبض على يدهِ ودخل تلك الخفايا وصعد السلالم وما برحا ينتقلان من مكان الى مكانٍ الى ان وصلا الى خلوة جميل فراها الكاهن منسك ناسك وقد صمد جميل على طاولة ايقونة الام الحزينة هدية لديه كريمة فجثى لدى اقدام الكاهن واعترف بما فرط منهُ في سالف حياتهِ من الاثام وكان كلما سهى عن امر القى نظره على القرطاس فتذكر ما كان قد سطره فيهِ الى ان اعترف اعترافاً مستوفي الشروط فارشده الكاهن وشجعهُ وحمده على حسن العمل فشكر هو من غيرة كاهن الله الذي افتقده في

ذلك الغار وقال له اصبر ياولدي فبالصبر نجاة من الاخطار ووقاية من الاضرار

فاجابهُ جميل لا احب لديَّ يا ابتِ ولا الذّ لنفسي من خلوة احييت فيها نفسي فاني افضّل الاقامة داخل هذا الغار على سكني احسن دار. سالتك يا ابتِ ان تدعو لي بان لا اخرج من ههنا ما لم اكن اصبحت على حالة سر بها خاطر فريدة ملايكية الشمائل. فعندها علم الكاهن بما عند كل منهما من الحب الصافي نحو الاخر هذا ونزل جميل بالكاهن الى اسفل الصخر فودعه الكاهن وشجعهُ وركب سفينة كانت فريدة تنتظره داخلها فعندها التفت جميل الى فريدة وقال جازاكِ الله خيرًا عن كل خيرٍ فعلتيه لخير نفسي

فاجابتهُ فريدة بلطف المقال تشجع ياجميل سالت الله ان يظللك بظل حمايته المنيعة وسالتك ان تتوسل له لاجلي قالت هذا وضربت المجذاف فصارت السفينة الى حيث مرساها

اما جميل فقد خفت عليهِ اثقال الوحدة واكدار الخلوة لتفرّغه للامور الدينية وتلذذه بحلاوة السلوى السماوية لاسيما لاكتشافه على مدخل المغارة الجديد كان يستانس بمشاهدة جليلة شقيقتهِ على انهُ في غد يوم دنا فيهِ من سر الاعتراف كتب لجليلة واعلمها بذلك الاكتشاف وافهمها ان تاتي اليهِ في الحين المعلوم لجهة ذلك الدهليز

فما امسى المساء الاَّ وقد حلت سفينتها تلك الجهة فاشارت الى جميل فنزل اليها في الحال فراها قد صارت في البر فتصافحا وتعانقا واذرفا الدموع مسرة وحبورًا. هذا وقد هام الغلام ان يشاهد مولاه فربط السفينة في ذلك الصخر واتبع اثار مولاته وهي في باب الغار فاشعل جميل المصباح وصعدوا ذلك الدرج الى ان وصلوا وسط الدهليز فالتفت جميل الى الغلام ونظر اليهِ استمالة وضحك بوجههِ بشاشة غير انهم كلما كانوا يتقدمون خطوة كانت جليلة تزداد رعدة لمشاهدتها تلك الخبايا ومعاينتها تلك الزوايا المستولي عليها الظلام فلاح لها الظل القائم

اشباحًا والعطفات لججًا والثنايا وهدات عميقة فما وصلوا الى حيث مركز جميل الَّا وقد خارت من جليلة القوى خوفًا واصفرت الوانها رعبًا فحدثها جميل بما راق وسألها عن الاهل والاقارب واستعلم منها عن الاحوال وعما جد في تلك الاثناء في تلك الاقطار فخالته سائحًا غاب زمانًا عن الاوطان او ناسكًا قد رجع بين الخلان فتسامرا وتنادما واعلما واستعلما ثم ودعها الى حيث السفينة واشار اليها ان لا تحضر اليهِ الَّا مرة واحدة في الاسبوع وان توصل اليهِ الزاد من المكان المعتاد خوفًا من الرقباء الحسودين ومنعًا لكيد المبغضين

فعاهدت جليلة اخاها بان لا تاتي اليهِ الَّا على ما اشار ولما كانت الزيارة الرابعة استصوب جميل ان يذكر لها ميله نحو فريدة وكيف كانت هذه الظبية الفريدة قد اصطادتهُ بحبائل التقوى فاقتنصتهُ والى الله ردتهُ وانهُ قد كفر بالكفر وجحد اقوال الجاحدين واعترف باثامهِ وتاب ونال الحل من يد كاهن الاله التواب فسرت جليلة

لهذا الخبر ولاح الحبور على محياها وانتشر واخذت بما تخاطب به فريدة تتبصر تمكينًا لجميل بالدين وتوطيدًا لما استكن في فواده من حسن اليقين فاثنت على ارتداده وعلى من سعت بهذا المسعى الحميد وودعتهُ قائلة الثبات الثبات فمن ثبت في مضمار الجهاد كللهُ رب العباد

اما فريدة فكانت تقصر الترداد واذا ما جاءت مرة اوقفت سفينتها في اسفل الغار على ما كان من عادتها السابقة ومن هداياها لجميل كتب تحيي في فواده شعائر الدين وتمكنهُ من حسن اليقين اما الكاهن فكان يتفقده مرارًا داخل خلوته ويرشده توطيدًا لحالتهِ

الفصل الثالث عشر

في ما عقد من السلم في سنة ١٨١٤

لما كانت السنة الرابعة عشرة من بعد الثمانمائة والالف

من سر الفداء اطلق بيوس السابع الجالس وقتئذٍ على السدة الرسولية من سجنهِ في الاقطار الفرنساوية ورجع الى صافونا في الاقطار الجانوية فسر الاهلون لنجاة خليفة الصفا من القيود وبادر الشرفاء والاعيان لمقابلتهِ فكان اول من حظي بالمثول لديه جليل وعائلته وفاضل وعائلته فانطرحوا على الاقدام وتمموا مواجب الاحترام واخذت الدموع تتدفق من مآقي جليل لمقابلتهِ ذلك الحبر الجليل . فالتفت بيوس السابع المفضال الى اولئك الاقوام وقال : اعلموا ايها الابناء الاحباء اني بغاية الامتنان لمساعي جليل الجليلة فكم قد اولاني من التعزيات في اسري واملاء فوادي سلوى في قيودي فان هذا المؤمن الهمام قد فتح داره منزلاً للفرنسيس وقواد الفرنسيس استعطافاً لخواطرهم نحوي فكم قد سعى نحو والي هذه المدينة تخفيفاً لاثقالي فسقياً له على هذه الاعمال . وحمداً لهُ عن هذه الافضال . والتفت نحو جليل وقال كيف احوالك والزمان وما حال عائلتك الكريمة وحال ولدك جميل

الوحيد هل نجا من القرعة العسكرية وكيف حاله في منفاه

فنهض جايل على الاقدام . واجاب الحبر بكمال الاحترام . وقال ياقداسة اب المؤمنين العالي المقام . والرفيع الشان . كيف لا يصان ولدي جميل من كل اذية واضرار وقد التمست لهُ بركتك الرسولية قبل خروجه من المنازل فان هذه البركة قد اصحبتهُ في منفاه واولته كمال التعزية ومما يسر فوادي باعراضه لحنوكم الابوية هو ان جميلاً وان يكن من البنين الصالحين غير ان حالة منفاه قد زادته تمكنًا في الدين . وتوطيدًا في اليقين . فازدان بصفات الكمال ونما في التقوى والبر

فسر بهذه الاقوال فريدة الجمال على انها لما سمعت كلام قداسته عن جميل وانشراح خواطره الشريفة عليهِ التفتت الى جايلة كانها تشير اليها ان هذه عربون اكيد بكون فريدة لجميل اما والدها فاضل فاخذ يلوم النفس ويوبخ لما سبق منهُ من سوء الظن بجايل ولما كان يقذفهُ في

حقهِ لترداد الفرنسيس عليهِ لانهُ كان توهم ذلك الترداد عدوانًا لحبر الاحبار بيد انهُ كان تخفيفًا للاثقال

فلما عاد كلٌ لمنزلهِ اخذت فريدة تقول لوالدها اينك عن اوهام توهمتها ضد جليل وعائلتهِ فكم قد اوعبتهُ ملامًا وكم قد ونبتهُ على ابعاد ولده فيما ان جميلًا لم ينأَ عن الديار الّا بمشورة حبر الاحبار

فدرنا اذًا وزيارة جليل في منازلهِ تهنئةً لهُ على حال ولده وسلامته ولاغرو انهُ يرجع قريبًا الى الاوطان وبعودتهِ تسر الخلان. هل ننسى ما لجميل علينا من اليد البيضاء وقد بادر الينا في الضراء فانقذنا من سيول المياه العرمرمية. لعمري ما مسرة قلبي الآن بمشاهدة والدي الّا من فضل جميل وما راحة والدي بي الّا من احسانهِ

قلنا ان فاضلًا وان يكن ممن يصر على رايهِ غير انهُ اذا ما عرف انسان مشربه ملكهُ في الحال وهل من يعهد اطباعه اكثر من فريدته

فلما سمع فاضل كلامها التفت اليها وقال: يا مهجة

الفواد لِمَ تبادرين لتونيبي وقد ونبت انا نفسي لما فرط مني من سوء الظن والملام بحق جليل وعائلتهِ فاني لاحسان وحيده جميل لا انسى ما دمت حيًّا ولزيارتهِ قاصد في الحال وعاهدت نفسي ان لا اسيء الظن بانسان فليس يدرك افكار الانسان الّا من خلق الانسان فانهُ وحده عليم بكل شي . فدونكِ الآن وان نتاهب الى زيارة جليل ونقدم لهُ التهاني على سلامة جميل وندعو لهُ بقرب اللقاء بمهجة فواده وبهذا اشارة عما استكن في فوادنا من الامتنان لفضل جميل والاحسان

فلما كانت الاوهام قد زالت من اذهان فاضل واخذ يحسن الظن بجليل ووقع بين العائلتين الامتزاج ودارت الالفة بين فريدة وجليلة اخذت كل منهما تغتنم كل فرصة لتقابل محبتها وتصرف الاوقات بمجالستها ولاسيما كان جميل قد اعلن لجليلة ميله نحو فريدة واعلمها بما ابدتهُ هذه الفتاة الكريمة من الغيرة حتى انهُ ارتد بمساعيها عن طريق الضلال ورجع الى الاله المتعال فهذه وخلافها

من المحامد زادت جليلة بفريدة تعلقاً حتى كانت لا تفتر عن ملاطفتها

فلما كانتا في صباح احد الايام خارجتين من المعبد وقد تسابقتا بالتحيات التفتت فريدة الى جليلة وقالت ياحبيبتاه لاغروان حضرة والدكِ الافخم يذهب في هذه الايام الى صافونا بقصد زيارة جلالة الحبر الاعظم فاني استحلفكِ بالحب الصافي الموارد ان تسلميه هذه الامتعة الدينية والخواتم فيلتمس من قداسته ان يباركها ويبارك حامليها فالتفتت اليها جليلة وقد بسمت عن الاقاح وقالت لها: نشدتكِ الله ياسيدة الملاح ان تقولي لي اي هذه الخواتم اعددتيه لجميل

فخجلت فريدة فنصع الجلنار وعلا تلك المحيا الخفر ولما كانت قد انفطرت على محبة الصدق قالت لها: ياخليلتاه ان خاتماً ازدان بايقونة ملكة الابحار وسيدة الملايكة والبشر هو المعد لاصابع جميل الكريمة واني لقائلة له في يوم من الايام نشدتك بالحب الصادق ان تزين

الاصابع بهذا الخاتم المبارك

ففي تلك الاثناء افل نجم سلطان الفرنسيس واستولى عليهِ زحل الانقلاب فحصرتهُ الدول المتحابية في باريز واجبرتهُ على ان يمضي صكًّا كان بهِ ختام سعوده فذهبت السلطنة وملك ايطاليا من يدهِ وزايل جنوده ارض الايطاليانيين وكانت جليلة تعلم جميلاً في خلوته بكل ما كان يجرى يوميًا فلما راقت الخواطر واضمحلت جيوش مابليون كتبت اليهِ اني في هذه الليلة الغراء احضر اليك فاتي بك الى المنازل. فكتب جميل الى والدته في الحال اني يا اماه قد هاجرت الجزاير البعيدة فاحضر اليكِ في اول قلع قادم فتلت والدته الكتابة وسرت منها الخواطر وقرت النواظر وطربت المنازل وتهللت الاواهل وكان يوم افراح بددت جيوش الاتراح

فلم تلبث جليلة ان قصدت زيارة خليلتها فتصافحتا وتعانقتا وقالت لها يافريدة الفرائد ها قد جاء اليوم المقبول ففي هذه الليلة تمر سفينتنا بشاطي هذه الحدايق

فلن يدخل جميل دار ابيهِ قبل ان يقابل طلعتكِ الغراء فتشاركينا بالسراء كما قد شاركتينا بالضراء

ففي الآن المعلوم كانت سفينة جليلة في اسفل الغار فاشارت الى جميل فنزل في الحال واذا هو قد بارح خلوته وسار في داخل السفينة فقذفتها المقاذيف فقالت لهُ جليلة ان الافراح تقابلك في اثنا الطريق وقبل ان تحل المنازل قد طفح فوادك حبورًا وافعم سرورًا فاشكرنَّ احساني عن منة اوليكها وانها اخص ساعة افراح تذكر في سجل حياتك السعيدة

ففيما كانا بذلك يتحدثان رست السفينة في اسفل حدائق فاضل فقالت للغلام . قف يا فتى فاننا نعود اليك في الحال وقبضت على يد اخيها واذا بهما قد دخلا البستان فاشرق البدر . وانار القطر . وتبدت فريدة لجميل فحياها بالسلام وبالغ بالاكرام فقابلته بالترحاب وقالت حمدًا لرب العباد على نجاتك من الاخطار ورجوعك الى الديار

فاجاب مولاتي حمدته تعالى على رجوعي اذ قد تمكنت من اسداء الشكر لاحسانكِ فاني اضرب صفحًا عن كل ما ابديتيهِ نحوي من المحامد ولا اذكر الّا سعيكِ بارتدادي الى الله فرفعت قلبي الى الله فاحب الفضيلة واحبكِ حبًّا لائقًا بكِ

فقالت مولاي حمدناه تعالى على هذه المنن والتمسنا منهُ تمكين حلقات حب استاسر القلوب وهي منّةٌ من لدن مولى القلوب فلذا غبطت يومًا تتم فيهِ غبطتي اذ اقول فديتك بالروح ياجميلاً قرين حياتي

فلم تمضِ لحظة الّا قد صار جميل وجليلة في ساحة الدار فبادر اليهِ والده وقد تحركت في فوادهِ الشجون فضمهُ اليهِ. وقبلهُ بين عينيهِ وقال: عدت فعادت الحيوة

فقال لهُ جميل باركني يا ابتاه في أيابي كما باركتني في ذهابي فمنحهُ البركة الابوية وقال سلمتك لاله الكل المدبر الكل

ولما كان جميل قد تغيرت منهُ الاحوال من جرى

تلك الوحدة وتبدلت صورته وانسقم جسمهُ وخافوا من ان
والدته اذا ما رأته على تلك الاحوال تتأثر وتتضرر
فاستدراكًا لوقوع ما لا يرام بادرت جليلة اليها في الحال
وقالت لها يا اماه قد دخل جميل المنازل لكنهُ على حال
من الضعف والاسقام تكدر الخواطر فلا تقلقي يا اماه ولا
تجزعي فان تأثرتِ لذلك ازداد هو تأثيرًا فزدتيهِ اسقامًا
قالت هذا وجاتا معًا الى حيث كان جميل وأنَّى لنا ان
نصف حال الوالدة لدى مقابلتها وحيدها من بعد تلك
الغربة فغب ان قبلت جميلًا ولثم ايديها ابتعد عنها في
الحال وجلس على كرسي واخذ يشغلها بالسوال عن صحتها
ويقص عليها قصصًا اوهمها بها انهُ كان في الجزاير البعيدة
اوطان اقاربها وطمانها عن صحة الجميع و بلغها منهم
السلام واخبرها انهُ قابل الاكابر والاعيان وحظي بمقابلة
الملك نفسهُ وهلمَّ جرًّا حتى هداء روعها وركن جزعها
فشاع خبر رجوع جميل من غربتهِ فبادر الاهلون
لمقابلتهِ وهنأوه واهلهُ على عودتهِ بالسلامة وكان اول

الزائرين فاضل وكريمته فريدة اخص المحبين وما برحت دار جليل تماوج بجيوش الزائرين والموسيقى تزعف والالحان تنشد والولائم تصنع مدة ايام ليست بقليلة واخذ جميل يزور زائريه وقد مال كلٌّ اليهِ ورام الاعيان تزويجه وقدمت لهُ كل سيدة عالية الشان ووفيرة الاموال ولما كان فواده قد اكتسبتهُ فريدة اخذ يحاول اولئك الاقوام غير ان كل ذلك قد بلغ مسامع فريدة فتنغص عيشها وما زادها احزانًا تاكدها اصرار والدها على عدم قبوله باقترانها بجميل . فاني لها الصبر الجميل . فاخذت تنحلها الاسقام وتنهكها الاكدار حتى اصبحت خلال اذا اعترتها نوب شديدة كادت تدخلها ابواب الاخرة . فاستدعى والدها الاطباء المشاهير واخذ كلٌّ يعالجها لكن واسفاه

وضع الآسي يصدري كفّهُ قال مالي حيلة في ذا الهَوَيّ

فلم نكن الادواء الاّ لتزيد الاداء فايس فاضل وفشل واستولت عليهِ جيوش الاحزان فغاب عن دائرة الاهتداء

وهو ينادي يا ولداه واقطع رجاه واحر قلباه يا ويلاه يا ذلاه

ولما كان ذلك الكاهن خادم دار فاضل عالمًا بما في فواد كلٍ من فريدة وجميل من الحب المتبادل وقد تاكد ان تلك العلة لا دواء لها الاَّ بقبول فاضل باقتران ابنته بحبيب فوادها فذهب اليهِ وقد رآه مطروحًا على الحضيض ويبكي وينوح من فواد مجروح فقال لهُ ايها الفاضل لا تياس من رحمة ربك

فانه محيي العظام وهي رميم اعلم يا ايها الاديب الاريب ان فتاتك لا تموت بل انها تشفى من علتها وما دواها الاَّ بين شفتيك

فالتفت أليهِ فاضل وقال . يا ابتِ ما هذا المقال وهل تعالمني بالمحال فان فتاتي قد ماتت

فاجاب . انها لا تموت بل ان الشفاء على الابواب

قال . فكيف يكون ذلك

اجاب . قل كلمة واحدة فتحيا فتاتك

قال . قد اشكل عليَّ الامر وابهم

اجاب . ان الامر واضح كالشمس في رابعة النهار ومن لهُ عينان تبصران فليبصر

قال . قد زدتني يا ابتاه ابهامًا زدني افصاحًا زادك الله فضلاً

اجاب . انك مغرم بالاعيان الاقدمين وتحتقر المتاخرين ولم تزوج ابنتك الّا من كان سليل الاولين وهي قد هامت بحب جميل وهو من المتاخرين فما العمل

قال . لا بارك الله بالاعيان المتقدمين والمتاخرين فاني اروم شفاء ابنتي في الحين

اجاب . هل تاذن لها بالاقتران بجميل الهائم بحبها

قال قد اذنت ورضيت كل الرضاء

فعندها اخذ الكاهن وفاضل يتداولان في كيف يبلغان فريدة رضاء والدها خوفًا على صحتها . فاتفقا رايًا على انهُ متى جاءت جليلة لتعودها يبيحان لها بالسر فتبيح بهِ لحبيبتها

فبلّغا جليلة ما صار عليهِ الاتفاق ودخلت فرأت

فريدة قد ادنفت على الموت فقالت لها تشجعي يا حبيبة الفواد ان ذي علة عارية من كل خطر

فاجابت: لا تخادعيني يا حبيبة الفواد ها قد حان الاوان لكن قولي لي هل علم جميل بحالتي وكيف احواله فقولي له انهُ لما كان تعالى لم يشاء اقتراننا في هذه الدنيا فاننا نشاهد بعضنا في الاخرة

قالت: انكما تقترنان في الدنيا

اجابت: ما هذا المقال وهل هي ساعة خداع

قالت: قلت ما قلت واني صادقة المقال

اجابت: قد يلين الجلمود اما قلب ابي . . .

قالت: انهُ قد لان

اجابت: فمن اين تعلمين

قالت: انما قد يكون جميل خاطبه بهذا الشان ،

ففيما كانتا على هذه الحال من بحث وجدال دخل الكاهن وفاضل فقال لها فلتحيي ولدي حبًا بي وبمن احبتهُ نفسها فما سمعت فريدة هذا المقال الّا قد اضطربت منها

العظام وغطى وجهها الاحمرار وكلل جبينها العرق فقالت . هل لذا القول صحة يا ابتاه

اجاب : حييتِ يا حيوة الروح وحيي من حييتِ بحبه فاشتدت النوبة على فريدة وازداد العرق حتى خيل دنوها من الاخرة واذا بالطبيب قد حضر ففحص حالتها والتفت بفاضل وقال : بشرى لك يا زين الرجال ببرء فتاتك فريدة الفرائد وخريدة الخرائد

فاجاب : ما تقول يا هذا وها قد حان ...

قال : انها لنوبة شديدة لكنها قد انتهت بعرق الصحة

اجاب . حمدتك مولاي على النعم ولم تمضِ دقائق الاّ قد فسخت النوبة وزالت عن فريدة الاخطار

فعندها مضى فاضل في الحال طالبًا اطلال جليل فحياه بالسلام وقال له : يا ايها الخليل أن وحيدك قد انقذني ووحيدتي من الغرق مرة وها انهُ الان قد انقذها من الموت ثانية فكانت له حتمًا الا ترتضي بان تكون

ابنتك وهي وحيدتي فلها شرعاً كل ما ملكتهُ يدي فدونك وان تخاطب جميلاً بهذا الشان ولا تتاخر عن الجواب فعليهِ قد تعلقت الغبطة قال هذا ورجع الى المنازل

فما استقرت بهِ الاحوال الَّا وقد امتثل اليهِ الغلام وقال مولاي. ها ان جليلاً وولده جميلاً يطلبان مقابلتك فنهض في الحال وبادر لملاقتهما الى صحن الدار فالتفت جليل الى جميل وقال. ادنُ من حميك والثم منهُ الايادي فان لهُ عليك ايادي

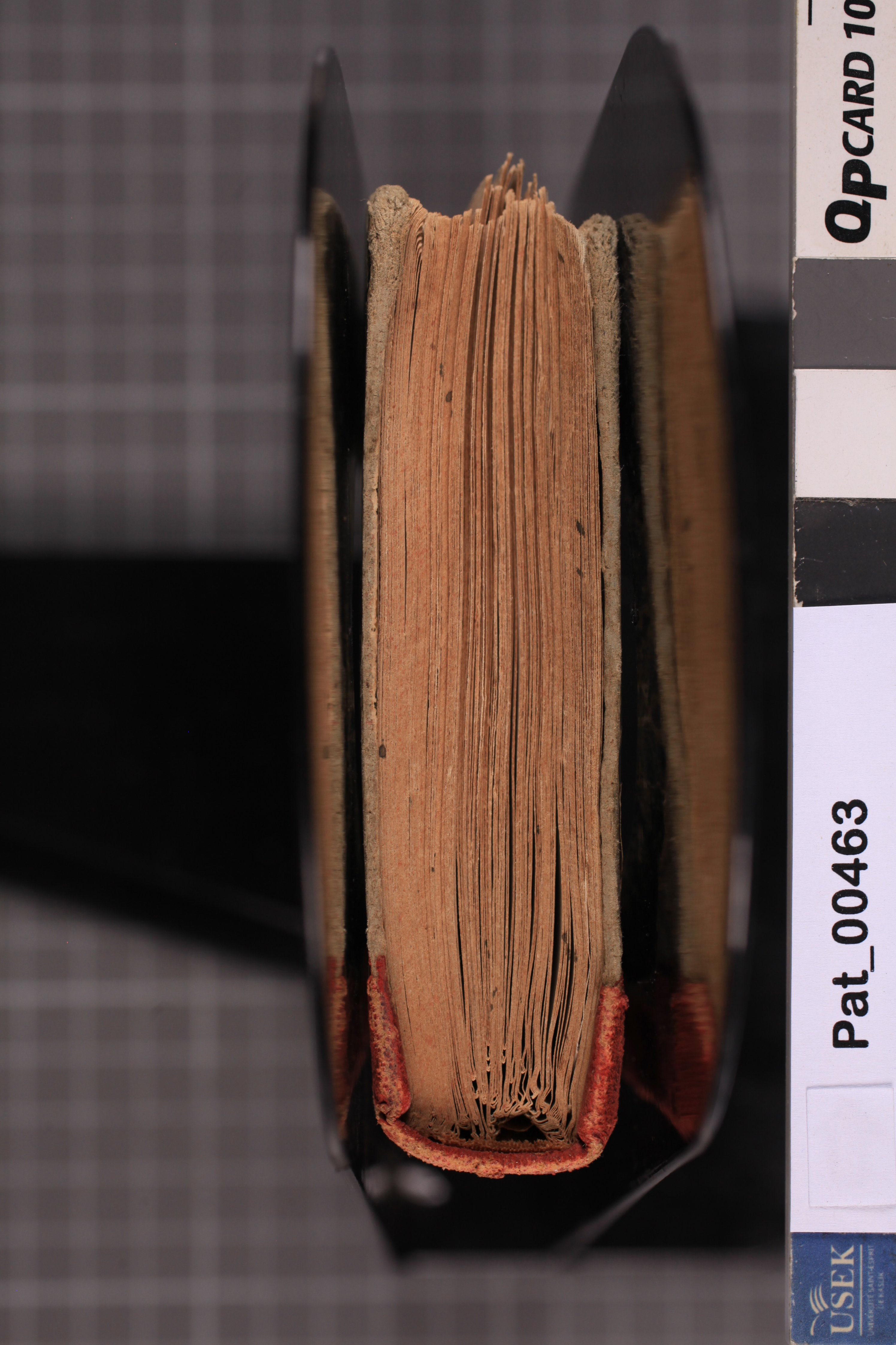
اما فريدة فاخذت بالتعافي وتحسن الاحوال ولم تمضِ ايام الَّا قد ذهبت عنها الاسقام فعقبتها الصحة التامة والراحة الكاملة . فعقدت الافراح . واشرقت شموس الانشراح . وصنعت الولائم . وحفلت المحافل . وزوجوا بنت الكرام من ابن الكرام . واصبحت فريدة لجميل بعد مقاساة الصبر الجميل

خاتمة

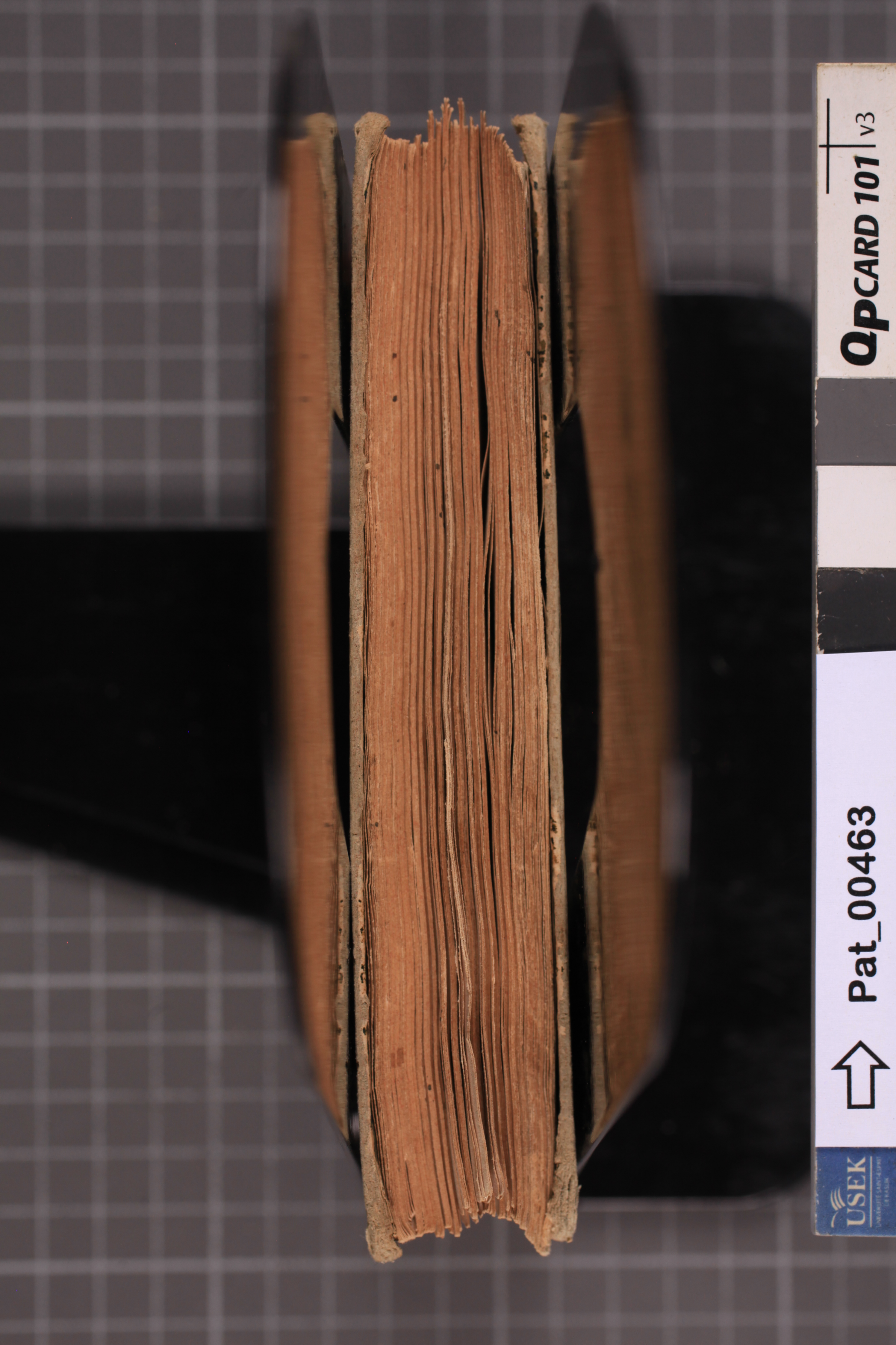
قال جرجس زوين الفتوحي الماروني اللبناني تلميذ مدرسة غزير العامرة راوي هذه القصة عن حيوة الاب بريشياني اليسوعي الشهير علماً وعملاً صاحب الرتبة الاولى بين ارباب القلم انّ مما رغبتُ في ذكره فائدةً افادها حضرة الاب المشار اليهِ وفيها جواب مسدد لمعترض قد يعترض قائلًا: ان مثل هذه القصص لاغرو فانها ادبية غير انهُ قد تخللتها دسايس عشقية . قال ان الحب اسمى شعائر النفس الابية واشرفها وانهُ ذو اقتدار عجيب حتى قال عنهُ سليمان الحكيم ان المحبة كالنار . فالحب بحسب وضعه جليل مقدس غير ان قد سيجت طريقه اشواك اميال وطية ولجج اخطار عظيمة ووهدات عميقة . فاذا ما قام قلبان على ذرى جبال الحب الفاصلتها وهدات عميقة وراما التوصل الى

بعضهما كانا عرضة لاخطار تدهورهما الى العمق فعسر النهوض من السقطة غير ان القلوب الحكيمة المزدانة بحق التربية المسيحية والمتاسسة على المبادي الدينية فمن شانها ان تصنع قنطرة تعلو ذلك الواد وتركب سفينة تطوف فوق تلك اللجج فتصل لنقطة الملتقى سليمة ٠ اما هذه السفينة وتلك القنطرة فهما خوف الله فمتى تمكن خوف الله في قلب عبد الله كان حب استولى على هذا القلب نقيًا طاهرًا شريفًا . فما دام هذا الحب مستندًا على هذه قنطرة خوف الله وراكبًا متون هذه السفينة لا تخشينَّ عليهِ الاخطار بل قد قطع القلوب الهائمة حبًا ببعضها فوق وطوء الشهوات ووصلت الى بعضها في نقطة الملتقى سليمة من كل خطر يدنسها فاحبت بعضها بعضًا على ما سنه الرحمن فحيي حبها بنعمة سر الاقدس المانح للقلبين محبين نعمة تقديس الحب في سر الاقتران المقدس

فهرس


QPcard 10
Pat_00463
USEK

امين
سبيتة


QPCARD 101 v3
Pat_004463
USEK

فريدة المغترب

